



الاسلام وعهده العالمية

ومقالات أخرى

عباس محمد العفاد



العنوان: الإسلام دعوة عالمية.. ومقالات أخرى.

المؤلف: عباس محمود العقاد .

إشراف علم: داليا محمد إبراهيم .

تاريخ النشر: الطبعة الرابعة يوليو 2005م

رقم الإيداع: 2003/ 16078

الترقيم الدولي: ISBN 977-14-2408-4

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة
ت: 3466434-3472864 (02) فاكس: 3468576 (02) ح.ب: 21 إيماءة
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: publ@nahdetmst.com

الطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8339287 (02) - 8330189 (02) - فاكس: 8330290 (02)
البريد الإلكتروني للطابع: press@nahdetmst.com

مركز توزيع الرئيس: 18 ش كامل مصطفى - القجاجة -
الغمامرة - ح.ب: 96 الفيصال - القاهرة.
ت: 5909127 (02) - 5908893 (02) - فاكس: 5901395 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجاني: 16002226222
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: sales@nahdetmst.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رئيسي)
ت: 5462090 (03)
مركز التوزيع بالقاهرة: 47 شارع عبد السلام عارف
ت: 2350675 (050)

www.nahdetmst.com
www.enahda.com

موقع الشركة على الإنترنت:
موقع البيع على الإنترنت:



احصل على أى من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)
وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع
www.enahda.com

جميع الحقوق محفوظة © لشركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أى جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

تقديم

بقلم / محمود أحمد العقاد

أسهم العقاد في ميدان الإيمان والدين في القرن العشرين بتصويب عظيم ، بما تضمنته كتبه عن العبقريات فأعطت مثلاً عالية من الأنبياء ورجال الإسلام ، فأظهرت فضلهم ، وأرست أسس اليقين في نفوس الباحثين عن الإيمان ، والضالين في متاهات الخيرة والشك من أبناء الجيل الحديث .

وقد كانت فترة «الحرب العالمية الثانية» وما تلاها مصدر هذه الخيرة والشكوك ، كما كانت مصدر خير كبير لهؤلاء الناثين ، فقد أصدر العقاد فيها - بجانب كتبه عن الإسلام والمسلمين - كتابه عن «الله» الذي صور نشأة العقيدة الإلهية منذ اتخذ الإنسان رباً إلى أن عرف الله الأحد واهتدى إلى نزاهة التوحيد . وكانت مصدر خير كبير أيضاً بما صدر فيها عن «الفلسفة القرآنية» و«البحث في عقائد المفكرين في القرن العشرين» وإثبات أن الفكر لا يناقض العقيدة ، ولكنه يرسبها ويثبتها في نفس الإنسان فوجهه إلى الحقيقة التي هي بنت البحث . «فالتفكير فريضة إسلامية» كما قرر العقاد وحل عليه في كتاباته .

وكان العقاد في هذه الفترة يبني بكتبه ومقالاته بناء متكامل الأساس ، ثابت الأركان يوضح فيه «الديمقراطية في الإسلام» ويعلل فيه من شأن «الإسلام في القرن العشرين» ويدافع عن الإسلام ويبين مؤامرات الاستعمار وكيدته للمسلمين . ثم يثبت حقائق الإسلام ويزهق أباطيل خصومه ، ويفرد للمرأة كتاباً هو «المرأة في القرآن الكريم» وللإنسان آخر هو «الإنسان في القرآن الكريم» .

كل هذا بجانب دفاعه عن الثقافة العربية واللغة العربية ، وفلسفة العرب والإسلام والفلاسفة والمصلحين والأدباء وإظهار فضلهم ونبوغهم ومناحي عظمتهم ، في ميادين الحياة المختلفة والحضارة الإنسانية في الماضي والحاضر ، وما يمكن أن يفعله المستقبل منهم .

وبهذا البناء المتكامل هدى العقاد الجيل العربي المعاصر وشفاه من قلقه ، وأعاد إليه ثقته بنفسه وبدينه وبقوميته .



ولقد أجاب العقاد مرة على سؤال من شبابنا الذين تراودهم الشكوك ، فكان مما قاله إن وجود الله لازم . . . والمطلوب من الإنسان أن يؤمن بالله ، فالإيمان صلة نفسية قوية بينه وبين ربه . . . وعلى الإنسان أن يطلب المعرفة الإلهية والشعور بالله دائماً . . . إن المطلوب الآن هو شجاعة الإيمان .

وكان مما أجاب به أيضاً عن أهمية الدين في المجتمع قوله : إن للدين أهمية كبيرة في المجتمع ، ولا يوجد مجتمع بغير دين . . . وأهمية الدين مقترنة في الواقع بوجود المجتمع نفسه . . . وإيمان بعض أصحاب المذاهب بمذهبهم - وهم يظنون أنهم حاربوا الإيمان - إنما هو من ألوان الشعور الديني . . . ولولا حماسة هذا الشعور لما ثبتوا عليه ولما تحملوا الضحايا في سبيل نشره .

لذلك اهتم العقاد في كتاباته بشريعة الإسلام ، وبين موقفها من المذاهب المتباينة والدعوات المختلفة والأقوال المتضاربة ، فبلور محاسن هذه الشريعة وجلالها للقراء ، وكانت كتاباته في «مجلة الأزهر» في أخريات عمره دليلاً واضحاً على حقيقة دوره ، وضرورة قلمه وعلمه ، وحاجة الناس جميعاً إلى هذه الكتابات العميقة الواضحة ، التي جمع بعضها كتابه «ما يقال عن الإسلام» .



وهذا الكتاب «الإسلام دعوة عالمية» والذي قمنا بجمعه لهو مجموعة طيبة من الفصول تتفق مع ما نشر من كتبه مما سبقت الإشارة إليه في صدر هذا التقديم . وفي هذه الفصول نجد العقاد - كعهدنا به دائماً - يناقش الشبهات التي أثارت حول الدين والعقيدة ، ويتعقبها وينقضها ، ويدافع عن الإسلام بالحجة الدامغة . وهذه المجموعة تبدأ بمقالات عن النبي ﷺ ، وبأخرى عن رمضان المبارك وفريضة الصوم ، وعن العيدين والهجرة .

أما بقية المجموعة فهي عن الإسلام وما يتصل به في القديم والحديث ، وما يقال

عنه في الغرب والشرق . ويمكن أن تكون هذه البقية جزءاً مكملًا لكتاب العقاد «ما يقال عن الإسلام» الذي صدر في حياته رحمه الله ، والذي تصدى فيه للرد على ما يكتبه الغربيون عن الإسلام جهلاً أو قصداً ، عائبين ومهاجمين لتاريخه وأحكامه وتشريعه ، وصوب بذلك مفاهيم هؤلاء وغيرهم عن الإسلام .

وهذا الكتاب يضم إلى بناء العقاد الفكري الشامخ الذي يتناول الدين والعقيدة والإيمان والإسلام ، والذي يملأ القلوب طمأنينة والنفوس ثقة وبقينا .

ثم نترك القارئ لهذا الكتاب يخلو إليه في روحانية يستجلى معاني الدين والعقيدة ويحيا في صوفية دينية مباركة ، فيزيد إيمانه وقلبه يقيناً ، فيسعد في هذا العالم المضطرب المائج ، ويرضى بإيمانه وعقيدته ، فيزداد سعادة كلما ازداد إيماناً .

محمود أحمد العقاد

الفصل الأول في الإسلام

محمد العربي الإنسان^(١)

شعور القومية بالنسبة إلى الأم ، نوع من الشعور بالكرامة الشخصية بالنسبة إلى الإنسان الفرد ، وأعرف الناس بالكرامة أشدهم حرصاً على كرامة سواء ، ولا تعز الكرامة في نفس أحد يهون عليه أن يهينها في نفوس الآخرين .

والأم تصون حقوقها الوطنية على قدر شعورها بحقوق الأوطان ، فليست رعاية الأم لحقها مبيحة لها أن تبغى على حقوق غيرها . إلا أن يكون مأل الأمر عندها قوة كقوة السبع ، وأثرة كأثرة الطفل المدلل ، لم تبلغ في معارج الإنسانية مبلغ الرشد والاعتدال .

قبل ألف وأربعمائة سنة ، وجد في العالم الأرضي رجل كان إماماً للقومية في مثلها الأعلى ، ورسولاً للإنسانية في قدوتها الحسنى .

ذلك هو محمد بن عبد الله ، النبي العربي ، رسول رب العالمين ، إلى جميع خلقه ، من عرب وعجم ، ومن بيض وسود ، ومن سادة ومستعبدين .

نبي عربي هبّين . .

ولكنه رسول رب العالمين إلى جميع بني الإنسان ، وذلك هو مثال القومية الفاضلة ، وقوام الإنسانية ، كما يتمثل فيها جميع بني الإنسان .

كان محمد بن عبد الله - عليه السلام - راضى النفس بعرويته ، يحمد الله لأنه ولد يوم أعز الله العرب ، ونصرهم على دولة الأكاسرة التي طغت على حوزتهم واستباححت ما ملكت من جوارهم ، وكان يحب قومه ولا يحب من يبغضهم ، فلا يكره العرب إلا منافق ، ولا يخلص في عقيدته من لا يخلص في رعايتهم وعرفان حقهم ، قال لصفيه ومشيره سلمان الفارسي : «يا سلمان! لا تبغضني فتفارق دينك» . قال سلمان رضى الله عنه : «كيف أبغضك وبك هدانا الله؟» . قال صلوات الله عليه : «تبغض العرب فتبغضني!» وفي حديث عثمان ذي النورين :

صلوات الله عليه : «تبغض العرب فتبغضنى!» وفى حديث عثمان ذى النورين :
«من غش العرب لم يدخل فى شفاعتى ولم تنله مودتى» .

يحب قومه ، ويحب أن يحبهم الناس ، وهذا قصارى النفس من القومية فى شعورها وعاطفتها ، ولكنه الحب الذى يعمل ولا يقنع بأن يشعر وينطوى على شعوره . فهذا الحب هو الذى جمع شمل العرب ، وألف بين قلوبهم ، وأخرج من أشتات قبائلهم أمة واحدة تهابها الأمم ، وتتلقى عنها رسالة الهداية باسم الله . باسم رب العرب والعجم ، باسم رب العالمين ، باسم رب الإنسان فى المشرق والمغرب .

ولا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لقرشى على حبشى . . . إلا بالتقوى ، ولا عصبية كعصبية الجاهلية .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ .

ومعجزة المعجزات فى هذه الرسالة الإلهية أن يتعلم الناس ضلال العصبية بالنسب والحسب ، وجهالة الفخر بالأباء والأجداد فى غير فضل ولا عمل ، من صاحب العصبية التى لا يعلى عليها بين قومه ، ومن رسول القوم الذين بلغوا بالعصبية غايتها ، من الأنفة لها والاعتداد بها والغيرة عليها ، ولو كان هذا النبى محروماً من العصبية فى أمته ، أو فى عشيرته أو فى أسرته ، أو فى بيته ، لما كان فى إنكاره للعصبية من عجب الأعداء المتكبرين باللغة ، وبالسلف ، وبالمنعة فى مكانهم وفى تواريخ أيامهم ولكانت رسالته بالمساواة بين بنى آدم وحواء رسالة من معدنها لاتتقرب من صاحبها ولا من قومه ، لكن محمداً عليه السلام كان فى الذروة من فخار النسب والعصبية ، وكان نسبه العريق ملتقى الأنساب من أقوى الأقوياء وأغلب الغلاب .

يجتمع معه فى مضر قبائل قيس كلها ، وسائر بنى ذبيان وغطفان ، ويجتمع معه فى تزار قبائل بكر وتغلب وعنز من بنى وائل ويجتمع معه فى معد وعدنان من لم يجتمع من هؤلاء ، وهم فى الصفوة من ذوى العصبية الأعزاء . .

فإذا كان في بلده فهو في بلد الكعبة ، وفي أعز قبائل قريش . .

وإذا كان في قريش فهو في بني عبد مناف ، وإذا كان في بني عبد مناف فهو في بني هاشم ، لا ينازعهم فخارهم أحد إلا أسكتته غيرهم قبل أن يسكتوه . .
ونسابة العرب «نفيل» جد عمر بن الخطاب هو الذي قال . . فيما روى الرواة - يؤنب حرباً حين نافر عبدالمطلب «أتنافر رجلاً هو أطول منك قامة ، وأعظم منك هامة ، وأوسم منك وسامة ، وأقل منك لامة ، وأكثر منك ولداً ، وأجزل منك صفداً ، وأطول منك مذوداً؟» .

خلاصة من خلاصة من خلاصة ، يعرفها أهله ولا يدعى الممترون فيهم شرفاً أجدر بالفخار من شرفه . ثم هو سليل عبدالمطلب بعد ذلك سيد بيته ، نبي أمته ، أشرف من يتعصب له من شاء أن يتعصب ، وأن ينتسب إليه من اعترز بنسب .

ومن هذا النبي تحيى دعوة الأمم إلى المساواة ، وإلى فضل العمل ، وإلى كرامة القومية دون مساواة إلى قوم ، وإلى رب العالمين ، رب الخلائق أجمعين .

هذه هي المعجزة الإلهية ، هذه هي الآية لمن لا يهتدى إلى الهداية بغير آية ، وهذا هو البرهان على إيمان لا تنهض به طاقة إنسان لم تنهض به مشيئة الله ، وآية الآيات أن تتقدم هذه الرسالة قبل ألف وأربعمائة سنة . وقبل أربعين سنة ، لا أكثر ، سمعنا من ينادى بسيادة العالم كله فخاراً بعنصره وسلالته! وقبلهم سمعنا من ينادى برسالة «الرجل الأبيض» ويكاد أن يخرج الأسمر والأسود والأصفر من زمرة الأدميين .

ولا يزال في العالم حتى اليوم من يدين باله يعز قبيلًا واحدًا ليذل من بعده كل قبيل ، ومن يدين باله يتقبل من أقاس ولا يتقبل من آخرين ، ومن يسمع الدعوة إلى إله واحد وعالم واحد وحق واحد فيستغربها بطبعه قبل أن يستغربها بعقله ، وينظر إلى العالم قد توحد على اختيار منه وعلى غير اختيار . اتصل ما بين مشرقه ومغرب ، وتجاوبت أصداؤه في كل بقعة من بقاعه وبين كل شعبة من شعابه وشعوبه ، وكاد أن يقترب ما بين أرضه وسماؤه ، ثم هو يسمع عن رب العالمين كأنه يسمع عن رب جديد ، أو رب طارئ من بعيد!

ولم يكن هذا الرب بعيداً قبل مئذات الفسنيين ، ولا هو بجديد عند عربى يؤمن بالقومية ، ويؤمن بالأخوة الإنسانية كما آمن بها الرسول

وحسب العربى أن يؤمن برسالة قبل ألف وأربعمائة سنة ليعلمها الأمم فى هذا العصر ، جديدة كأن لم تسمع بالأمر ، عربية كأن لم يرددها الأذان على مدى الأسماع فى أجوار الفضاء . حسبه أن يعلمها هذه الرسالة وأن تعلم منها بعد ذلك كل رسالة .

حسبه أن يكون عربياً يحب قومه ويحب من يحبون قومه ، ولا يحب لهؤلاء القوم أن يتميروا ، يعير مرية وأن يتفصلوا بغير فصل ، وأن يتعالوا بغير علم ، وأن يطلبوا القوة بغير تقوى .

حسبه أن يكون عربياً على هذه الشرعة ، عربياً على سنة بنيه . ليكون «الإنسان» نعم الإنسان ، وليفخر بنسبه وحسبه ولا يرزى على أحد بفخره وشرفه ، لأنه العربى الإنسان .

رَأَى فِي نَبِيِّ الْإِسْلَامَ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ (١)

من أشهر المطبوعات المتداولة عند العربيين سلاسل التراجم والسير التي ينهض كل كتاب منها بالترجمة لخدمة من قاده الإنسانية في ميادين الدين والحكمة ، أو ميادين العلم والفن ، أو ميادين الحرب والسياسة ، مشملاً على عظماء كل ميدان في المشرق والمغرب وفي الزمن القديم والحديث

وهذه الترجمة تنتشر وتعد ونعاد طبعاتها من حين إلى حين ، وآخر ما أعيد منها في العام الماضي كتاب المدة الدينيين Religious Leaders لمؤلفيه هري توماس ودانالي توماس Henry Thomas and Danalee Thomas .

وفيه تراجم ثلاثة من الأنبياء الكبار وثلاثة من أئمة الديانات الكبرى في الهند والصين والمشرق ، وبحر عشرة من المصلحين الدينيين في اندونيسيا المسيحية أو البرهمنية ، آخرهم «المهاتما غاندي» رعيم الهند السياسي الديني المعروف

أما كبار الأنبياء فهم موسى ، وعيسى ، ومحمد عليهم السلام .

وأما أئمة الديانات الشرقية ، فهم رزادشت ، وبوذا ، وكيشيوس .

وأما المصلحون في مذهبهم فمهم بوس ، ولوثر ، وبيولا ، رعيم الطائفة اليسوعية .

ويظهر من آراء المؤلفين وتعليقاتهما أنهما يكتبان عن الأديان جميعاً بقدم المؤرخ الذي يحترم العقيدة الدينية ولا يتبع عقيدة خاصة منها ، لأننا إذا قابلنا بين كتاباتهما عن محمد وكتابتهما عن موسى أو عيسى عليهم السلام ، كدنا نعلم منها أنهم أقرب إلى الإعجاب بنبي الإسلام وإن كان قد ولد وترى على مطالعة التوراة والإنجيل ، ولكنه إعجاب تقدير واستحسان يتساوى فيه الإعجاب بالعظمة حيث كانت في مقامها الرفيع من قيادة نبي الإنسان .

تبتدئ ترجمة النبي العربي بالأسطر الثانية وفي القرن السابع ، حين بدأ على الدنيا أنها قد أصيبت بالجهف ، وحين فقدت اليهودية مولدها واحتلقت المسيحية

(١) الأهر يوليو ١٩٦٠م

موروثات الأمم الرومانية والسريرية ، بيع في لمشرق - معجاة - يسوع صاف من الإيمان ارتوى منه نصف العالم وإن حكمة الله لعجينة ذات قوة في قصائها العجيب ، من هذا اليبوع الصافي قد انبثق من أحدث بقعة بين بقمع الأرض قاطبة - صحراء الجزيرة العربية .

قال المؤلفان : «وتروى الأحبار لمأثرة كثيراً من المعجرات والخوارق التي صحبت مولد محمد وطولته . . . ولكن محمداً لم يذكر هذه المعجرات ولم يذكر قط معجزة تتصل بشخصه أو برسالته ، لأنه لم يأت كما قال بغير معجزة واحدة هي معجزة القرآن الذي تنفـه من رضى الله وقد جاء بالدين ليدعو إلى ملة إبراهيم ، وموسى ، والمسيح ، على هدى جديد» .

وقالا «وقد كان محمد محمداً لإحونه من نبي الإنسان ، بسيطاً في معيشته بأكل خبز الشعير ويخدم نفسه وإن اجتمع له أسباب الثراء ، ويسوع أن يصرب أحداً أو يسوءه بكلمة تقريع . . . ولم يغمر لنفسه أنه أعرض ذات مرة عن سائل صرير . . . وقد حاول أن يقابل كراهة أعدائه بالحب لأنه يعلم الناس أن أحب الخلق إلى الله أحبهم إلى خلق الله ، ولكن عباد الأوثان بمكة لم يستمعوا لدعوة الحكمة والمحبة ونظروا إليه فسم يهيموا من قوله ولا عمله إلا أنه ثائر عليهم يسمه أحلامهم ويحطم أصنامهم ، فصادروه وتعدوه واعتدوا على حرته وأوشكوا أن يعتدوا على حياته» .

وتأدب المؤلفان في وصف الهجره إلى المدينة ، فيحاران لها اسماً باللغة الإنجليزية غير الاسم الذى اصطلح عليه المبشرون والمرحمون للسيرة النبوية في بعث الغرب وهو اسم الفرار أو الهرب Flight . . . فقد سميا الهجرة باسم المفارقة أو الابتعاد Departure وذكرنا الكلمة المصطلح عليها قديماً لاشتغالها .

ويقول المؤلفان : «إن صاحب الدعوة الإسلامية لم يبدأ المخالفين له بالحرب ، بل هم الذين بدأوه بها واضطروه إليها ، وكان من حلائفه المعروفة أن يرحم الضعيف ، ويأمر بالرحمة ، ويرفق بالحيوان ، وينهى عن التحريش بين البهائم ، ويدعو أتباعه إلى إدحان السرور على قلوب المخروبيين ، وهو القائل . «أفصل الأعمال أن تدخل على أحيث المؤمن سروراً أو نقضى عنه ديباً أو تطعمه حسراً» . وهو القائل . «هكوا العاصي ، وأجيبوا الداعى ، وأطعموا الجائع وعودوا المريض»

وأشار المؤلفان إلى الخسر الذي ورد عن وقوف النسي لجنارة اليهود ، وإلى الأحبار الكثيرة التي وردت عن أدبه عليه السلام في معاملة الصعفاء والأيتام ، ومعاملة اليتامى والأيتامى فعلا . «إن هذا الأدب هو أدب النبوة الإسلامية في لبانها ، وليس أدب القتال عبثا لها كما حسب بعض الناقدين بالإسلام على السماع» .

أما الجهاد ، فهو فريضة يؤمر بها المسلم ويتعلم معها من نبيه أن «أفضل الجهاد أن يجاهد فرجل نفسه وهواه» .

ويشير المؤلفان في هذا السياق إلى كلام كارليل عن استخدام السيف لشرك الدين فبعد أن قوله :

«إن شريمان لم يشرك الدين بين قتائل السكسون بالدعوة والموعظة ، وإن العبريين لم ينشروا بهما الدعوة بين قتائل كنعان ، وإن من السحف أن يقال عن محمد أنه شر ديه بالسيف ، لأن الذين يقولون ذلك يصورون لنا رجلاً واحداً قائماً وحده يحمل السيف ويشهره على أمة كاملة تعاديه وتكره دعواه ، وهي صورة غير معقولة يرفضها خيال انتخيل قبل أن يرفضها إدراك المتأمل ، ولا بد له من النظر قبل ذلك إلى الدعوة المقنعة التي آمن بها عبد من الناس كآب «الحمل السيف والجهاد به للدفاع أو الإقناع» . وعارة كارليل في هذا السياق أن محمداً دافع عن نفسه دفاع الرجل ودفاع العربي ودفاع الرسول «المستجيب لدعوة السماء

وبلغت الكاتبان التفاتة حسنة إلى مثل لأعلى في الحياة الباقية كما وصفتها القرآن الكريم ، فذكر أن أمة هي الحياة التي تصفو فيها القلوب ، ﴿وَبَرَعْنَا مَا فِي صُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تُجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ وإنها هي الحياة التي يتساوى فيها الناس ﴿فَلَا أَسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ ومثل هذه القدوة السماوية لا يوجد في عبيدة تقوم على البعضاء وسفك الدماء ، ولكنها هي الصورة لمشودة لكل حياة يتسحرها المسلم في ديباه ، ويدكرها كلما ذكر لإله العبود . ﴿يَسْمَعُ الْمُتَّقِينَ﴾ .

والا . «إن من الحق أن يلاحظ أن صدق محمد لا يتجلى في كتاب مقدس وحسب ، بل هو متحل «كذلك في حياة مقدسة ، لأنه كان بأصدق معاني الكلمة

نعم المثال للمسلم المعاصر الذي أسلم نفسه إلى الله إسلام السمع والطاعة ، ولم يدع قط لنفسه صفة من الصفات الإلهية ، بل كل ما ادعاه وكرره أنه بشر يعلم الناس ما يستطيع كل إنسان أن يتعلمه لو ألقى السمع إليه ، ولا يصعب تلخيص تعليمه ببصعة سطور ، فإن المسلم لا يحتاج إلى الخوض في النظريات الكهوتية ولا يحفل أن دسه دس عمل بتحقيق الحياة الصالحة وليس مجرد نظريات وأقوال يطول فيها الجدل والمغال .

وبعد بلخيص الفرائض الإسلامية حتما خلاصة الفرائض والعبادات بحلاصه السلوك العملي الذي يوجبه القرآن على المسلم فعلا . «إن القرآن واضح في منهج السلوك الذي ينطلبه من المسلم . . . فإن واحده الأول أن يرتفع غاية الارتفاع الذي يعلو به إلى الافتراق من صفات الله ، وقد عمل على إدماع النزاع بين الأفراد والقبائل في أخوة إسلامية وتوصل إلى تحقيق هذه الأخوة بتعليم كل رجل ، وكل امرأة ، وكل طفل ، منهجه الكامل من السلوك المستقيم ، فحاش بتحريم الشكر والقمار ، والخذاع ، والأثرة ، والقسوة على أى وجه من الوجوه ، وألهم المسلمين أن يفرقوا بين حدود العبادة وحدود الأخلاق والنيات ، فليس البر أن يولوا وحوهم قبل المشرق والمغرب ، وإنما السر في الإيمان والإحسان . وعلى المسلم أن يدفع عن نفسه ، وأن يقاتل من يقاتله ، ولكنه لا يعتدى لأن الله لا يحب المعتدين ،

وقالا في ختام السيرة المحمدية : «والإسلام لا يحالف الديانات لأخرى ، بل هو دين يجمع ويؤلف ، ولا يطرد أو يستثنى ، ومن أدب المسلم أن يحترم عقائد غيره ، وأن يؤمن بأن العالم أمة واحدة تدب لآله واحد هو رب العالمين » .

هذه هي زينة الفصل الذي جاء في كتاب العادة الديني عن محمد - عليه السلام - ، ولا يخال أن القارئ المسلم يطلع في كتابات العربيين المعاصرين على كلام عن سيرة ورسالته هو أدعى إلى رتياعه ، وحسن طه عن كلام المؤلفين أو المؤلف لهذا الكتاب

فإن كتاب العرب على درجات في حسن المهيم وحسن النية ، وعلى درجات في العصب الديني والشعور الإنساني الذي يشعرون به نحو أنباء الديانات الأخرى ، ولا سيما الديانة الإسلامية وأتباعها من الأمم العربية .

فمنهم من يطمس الحقائق ويأبى أن ينظر إلى حبر من أخبار التاريخ يستدعي
الثناء على صاحب الرسالة المحمدية ، وينفى عنه رعماً من المراعى التى أشاعها
المهلاء المتعصبون فى ظلمات القرون الوسطى

ومنهم من ينظر إلى حقائق التاريخ ويشى حيث يلزمه الشاء كأنه ينصف فى
الشهادة على كره منه

ومنهم من يتقبل أخبار السوء بأضعف سند يبقاه بين يديه ، ولا يتقبل أخبار
الحمد والخير إلا أن تفحمه بالأدلة والأسناد التى يحار فيها الإنكار والارتياح .

أما القليل النادر جداً بين هؤلاء الكتاب فهو الذى يبحث ويبتل البحث بين
المصادر المجهولة ليستخرج منها شواهد الحمد والإصاف ، وهذه مصادر الأحاديث
وأخبار السيرة المتفرقة التى على الكائنات باستقصائها كما يرى من مواضع
الاستشهاد بها فى الصفحات الموحدة التى حصصها لسيرة نبي الإسلام بين قادة
الأديان ، وهى لا تزيد على عشرين .



إن رد التحية بمشها ، أو بأحسن منها أدب من آداب الإسلام التى توه بها
الكاتبان ، ولكنها تحية - مع هذا - تنشأ عن شيء يحسه فى عداد الأخبار التى لم
تتكلف لها مؤونة الترويد ، فإن سلسلة هذه التراجم من مطالعات الجمهور القارئ
على أوسع نطاق ، ووجود هذا لاستعداد فى طائفة متعلمة من ذلك الجمهور
علامة لا يعفلها المسلم الذى يعبه على الدوام أن يقبس موقف الإسلام من العالم ،
وموقف العالم من الإسلام .

حُكُومَةُ النَّبِيِّ وَخُلَفَاؤُهُ (١)

يقول الدكتور/ طه حسين في كتابه «عثمان» : «إن حكومة الرسول والخلفاء الراشدين من بعده كانت وصعية وليس للدين الإسلامي يد فيها ، ويستنتج من هذا أنه لا فرق بين المسيحية والإسلام من هذه الوجهة وأعني نظام الحكم والمجتمع ، ويأتى بدليل قوله تعالى ﴿ وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ ، ويقصد الأمور الدنيوية بأسرها .

ولكن ألم يقرأ قوله تعالى عز من قائل : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

هل كانت حكومة المسلمين من وضع محمد عليه الصلاة والسلام دود ايحاء من رب السماء؟ وهل كان أبو بكر وعمر يقومان بأعمالهما من تلقاء نفسيهما وليست هي من جوهر الإسلام في شيء؟ وهل كان عمر رضى الله عنه يقصد من قوله «لو استقلت من أمرى ما استديرت لأحدث فضول أموال الأغنياء فرددتها على الفقراء» أقول هل كان يقصد الأموال بأنواعها كما يعتقد الدكتور ، أو يقصد الزكاة والصدقات؟

أرجو أيضاً ذلك على صفحات الرسالة الغراء . إلخ .

الأعظمية - عبد الكريم الوهاب

جاءنا هذا الكتاب فحذفنا منه بعض العبارات التي لا تدخل في السؤال ، وكتفينا به بما نشرناه .

وانذى براه أن الأديب صاحب السؤال قد ظلم المكرة التي نقلها عن كتاب «عثمان» ، لأن الدكتور طه حسين لم يقل شيئاً مما فهمه في سؤاله ، وكل ما يفهم

(١) الرسالة ١٢ مارس ١٩٤٨ م .

من كلام الدكتور طه أن حكومة النبي عليه السلام لم تكن حكومة «ثيوقراطية» أى حكومة تستأثر بها طائفة من الكهنة والأحبار ولا تُشرك فيها الأمة برأى فى اختيار الحاكم وتقرير الأحكام

وهذا فى رأينا صحيح

فمسألة الحكم فى الإسلام حق لجميع المسلمين يتولاه من يصح له وتتفق جمهوره المسلمين على صلاحه ، وليس العالم بالحق فيه إلا كالعالم بأصول الحكم فى هذه الأيام ، يُحتر لحاجه المجتمع إلى هذه الأصول ، ولا يحتار لأن علمه يجعل الولاية حكراً له أو حقاً محصوراً فيه وفى طائفة من أمثاله .

وليس رأى المسلمين فى صلاح الحاكم يمنع أن تكون أصول الشريعة التى يحكم بها من عند الله ، وكل ما يمه أن يعتنر «الحق الإلهى» الذى ادعه بعض ملوك أوروبا وسيلة إلى إنكار حق الرعية فى الشورى والرقابة على الحكومة . وقد أبى الإسلام هذه الدعوى فكانت مسته هذه مرة له بين الأديان .

وقد أوضح الدكتور طه حسين هذا المعنى فقال يرد على الفائلين بالثيوقراطية فى الإسلام ' إهم قد يرون ' «إن الحكومة التى كانت تحكم المسلمين فى هذا العهد إنما كنت تستمد سلطتها من الله ، ومن الله وحده ، ولا ترى أن للناس شأن فى هذا السلطان ولا ترى أن من حقهم أن يشاركوا فيه أو يعترضوا عليه أو يتكروا منه قبيلاً أو كثيراً» .

فالواقع أن الإسلام لا يعترف للحاكم بحق إلهى يمح الناس من حسابه والتعقيب على حكمه ، وهذا الذى فهمناه من كتاب «عثمان» حين رجعا إليه ، فلا عبار فى رأيا عليه .

أما كلمة عمر عن الأموال فقد عقينا عليها فى كتابنا عن «عقبة عمر» وقد «به لم يرد فى كلامه تفصيل لهذه الية ، ولكن الذى نعلمه من أرائه فى هذا الصدد كاف لاستخلاص ما كان ينويه ، فعمر على حبه للمساواة بين الناس كان يفرق أبدأ بين المساواة فى الأدب النفسى والمساواة فى السن الاجتماعية ولم تكن المساواة فى أدب النفس عند عمر مما يفضى التفاضل بالدرجات ، ولم يكن يرضيه كذلك أن يعتمد الفقراء على الصدقات والعطايا ، ويعرضوا عن العمل

واتخاذ المهمة ، فكان يقول لهم في خطبه : «يا معشر الفقراء ارفعوا رؤوسكم فقد وصح الطريق ، فامسكوا الخيرات ولا تكونوا عيالاً على المسكين» ، وكان يوصي الفقراء والأغنياء معا أن يتعلموا المهمة ، فإنه يوشك أن يحتاج أحدهم إلى مهمة وإن كان من الأغنياء . . . فيسوخ لنا أن نفهم من هذا جميعه معنى ما أتواه من أخذ فصول العبي وتقسيمه بين ذوي الحاجة ، وهو تحصيل بعض الضرائب من الثروات المأصلة وتقسيمها في وجوه البر والإصلاح .

هذا مجمل رأينا في سؤال الأستاذ الوهاب .

وقد تلقينا كتباً أخرى في هذا السياق يسأل كتابها عن مواطن في كتاب «عثمان» لا ترى حاجة إلى تفسيرها ، لأن إمعان النظر في الكتاب نفسه يعنى عن ذلك التفسير .

على أننا نعتقد أن الذين يستقبلون كتاب «عثمان» بمثل هذا النقد لم يظلموه كما ظلمه المقرطون له بلسان الترفل والدهان ، فإنهم يقولون فيه ما لا يقوله إلا عاجز عن التقدير الصحيح ، وهو كاف لإعطاء الكتاب حقه من الشئ .

فهؤلاء العجزة عن التقدير الصحيح يزعمون أن الفتنة الكبرى لم تُبحث على قواعد التاريخ أو على قواعد السنن الطبيعية قبل كتاب «عثمان» .

ومن جرأة الجهل أن يصدر مثل هذا الادعاء في هذه السنوات على التحصيل ، لأن هذه السنوات قد طهر فيها كتاب يسمى «عقريّة الإمام» ، طبعت منه طبعات قل ظهور كتاب «عثمان» ، وترجم إلى اللغات الشرقية ، ونُشر في جميع لأقطار الإسلامية ، وقراء عشرات الألوف من أقصى المشرق الإسلامي في الهند إلى أقصى المغرب الإسلامي في مراكش وأفريقيا .

وفي هذا الكتاب كلام عن الفتنة الكبرى التي برزت في أيام عثمان ودامت إلى قيام الدولة الإسلامية .

وقد وصف عصر عثمان فقال : «إنه هو العصر الذي تكوّن فيه المجتمع الإسلامي بعد شأه الدولة الحديده ، فيرر فيه نظام جديد على أساس الثروة الجلوبة من الأقطار المفتوحة ، وعلى أساس الولايات التي نولها بعض الطبقات المرشحة لبرئاسة من العلية وأنسابها» .

وأحصى الكتاب أسباب التدمير سبباً سبباً ، فقال في مسألة الثروة : «كثير المتروكون من جانب وكثير المتربون من جانب آخر ، وشاع بين الجاهليين ما يشيع دائماً في أمثال هذه الأحوال من الملاحاة والبغضاء» .

وقال عن قتل أبناء الولايات : «إن التدميرين توافدوا من الولايات إلى المدينة مجسدين وعير مجسدين ، وبولى رعاية التدميرين في بعض الأحيان جماعة من أحناء الصحابة كتبو صحيفة وقوعها وأشهدوا فيها المسلمين على مأخذ الخليفة» .

وقال عن التنافس بين العوصم «إن التنافس كان على أشده بين العاصمتين الحجازيتين وبين الكوفة ، لا يرضى أهل المدينة بما يرضى أهل مكة ، ولا يرضى أهل الكوفة بما يرضى هؤلاء وهؤلاء» .

وقال عن أثره قریش : «إن فئائل المدينة كانت تنص على قریش عاثم الولاية ومناصب الدولة ويطربون إليهم نظرتهم إلى القوى المستأثر بحاه الدين والديا وحق الخلافة والسطوة» .

وقال عن طغقات المستخريين «كان العبيد والموالي والأعراب المحرومون حاققن متبرمين لا يرضون عن حظهم من العيش بعد أن علمهم الإسلام حقوق المساواة وشرع لهم شريعة الإصاف» .

وقال عن جمهرة القراء والحفاظ وأصحاب السنك والعقده والشريعة ، «وإنهم خلق كثير يعدون بالآلوف ، ويتفرقون في الخواضر والبوادي ولا يرأون كأنبياء يسي إسرائيل عشرين متوعدين صاحبين على ترف المترفين» .

وقال إن أب بكر وعمر كانا يمكن الصحابة بالحجاز ويحذران منهم أن ينطلقوا في الأرض فيقبوا على الدب ، وإن عثمان أهمل هذه السياسة الحكيمة وشق عليه أن يطيل حبسهم بالحجاز والهيمنة عليهم بجواره

وقال غير ذلك مما لا يحصر عنه سبب واحد من أسباب الفتنة ، وخصها كلها في مرجع واحد وهو افتراق عهد الخلافة وعهد الملك ، وأن الموقف كان في خلافة عثمان «ملتبسا ، متشابك ، لأنه كان نصف ملك ونصف خلافة ، أو كان نصف زعامة دينية ونصف إمارة دنيوية ، فوجب أولاً أن يتصح الموقف بينهما وأن يروا الالتباس عن قلق صريح ، ووجب - وقد زال الالتباس وتقابل انضداد اللدان

لاستحقاق - أن يلع الخلاف مداه ، وليس يراد قائماً حتى تكف العلة لبدأ من
أبدأين وحكم من الحكيم»

هذا بعض ما جاء في «عقوبة الإمام» عن أسباب الفسدة الكبرى وبعض ما
ورد في صفحات الكتاب كنه في تفسير تلك العوارض الاجتماعية
ومن الخرافة التي لا توصف ، لا بأنها جرأة ، جهل ، أن يحاول عمر من الأعمار
ستر هذه الحقيقة عن الأعيان ، وهي تعد بعشرات الألوف

ونحن لا يعنينا الأمر ، لأنه لا يصير كتاباً عن «عقوبة الإمام» ، فإن «عقوبة
الإمام» لا يحجه كلام يلفظ به عمر من الأعمار

ولكننا سبه إليه ، لأن سكوتنا عنه يعد عجباً جداً في هذا الزمن وفيما بعد هذا
الزمن ، ولأن قحة الجهل خليقة أن تزجر ، ليتعلم الجهلاء كيف يكتبون حين
يريدون الثناء على مؤلف من طراز كتاب «عثمان» .

وهذا الكتاب من مؤلفات العصر التي يستطيع الباقد الخسر أن يثنى عليها
ولا يقول فيها إلا حقاً ، وإذ لحاً إلى الساطن في الثناء عليه فأما يسىء إلى نفسه
ويسىء إلى الكتاب يسىء إلى نفسه ، لأنه يفسد عجزه ، ويسىء إلى الكتاب ،
لأنه يرى الناس أنه محتاج إلى الباطل ليطفر بعض الشاء

لو عاد محمد ﷺ

من الأمثال التي تعاد ولا تمل أمثلة الكاتب الروسي «ديستيفسكي» عن السيد المسيح ومحكمة التفتيش في قصة لأخوة كرامروف .

وحلاصة الأمثلة أن السيد المسيح عاد إلى الأرض وأحد في وعظ الشعب وتبشير به بالملكوت فأقبلوا عليه واستمعوا له وأوشكوا أن ينفصوا عن وعظهم ودعاتهم اليهوديين ، فأشفق هؤلاء على مكائتهم وأوعروا إلى رئيس محكمة التفتيش فاعتقله وتوعدته بالمحاكمة والحكم عليه لتصيله الشعب والانحراف به عن تعاليم السيد المسيح' وقال له إن هؤلاء الذين يقلون عليك اليوم هم أول الثائرين عليك وأسبق المبادرين إلى تنفيذ القضاء عليك .

أمثلة تعاد ولا تمل لأن العبرة بها لاتقصى في حقبة واحدة . ولا تزال عبرة الدهر كله في أحاديث المصلحين والمفسدين

ولم سأل الكاتب العظيم في تخيله ، فإذ يكون مبالعاً لو كان ما نحيته بعيداً أو غرباً في بابه ، ولكنه في الواقع أقرب شيء إلى الاحتمال مع هذه البشرية التي تحتلظ فيها الشيطانية والخريرية والحمارية في وقت واحد ، فلا تزال حرباً على من يجمعها وألعبوبة في أيدي العاشين بها ، وإن كرروا العبث بها كل يوم مرات بعد مرات .

لو عاد السيد المسيح لأكره كثيرون من يعيشون باسمه وينتحلون هدايته

ولو عاد محمد ﷺ لكان له نصيب كذلك التصيب من يردعون العقيرة مهدية الإسلام والإسلام يرى مهم ، وكل ما هالك من خلاف أن المسألة لا تمر بتلك السهولة التي توهمها رئيس محكمة التفتيش أو من يتصدى في الإسلام لمثل عمله ، وأد سيندم على فعلته بدءاً يكمر عن سيئاته ، إن كانت سيئاته بما يقبل التكفير .

وأسأل نفسي كيف يستمتع المسلمون على أحسن وجوه النفع بعودة النبي ﷺ فترة قصيرة من الزمن؟ وما هي المسائل التي يرجعون بها إلى شخصه الكريم فيسمعون منه فصل الخطاب فيها؟

أسأل نفسي فتخطر لي مسائل خمس يرجع فيها كل إلى شخصه الكريم ويعنى حواره فيها الغناء فلا خاحه ولا احتلاط ولا حاحه إلى الاجتهاد والتأويل من محتهد أو مقعد وما أشبه الاجتهاد والتقليد في هذه الزمان!

تلك مسائل خمس هي مسألة الأحاديث النبوية ، ومسألة الروايات في قراءة الكتاب المجيد ، ومسألة الخلافة والملك ، ومسألة الرسالة والنسوة بعد حام المرسلين ، ومسألة المذهب الاجتماعية الحديثة وحكم الإسلام عليها وقول نبي الإسلام فيها .

مسألة الأحاديث النبوية

إن رجال الحديث قد بلعوا العاية من الاجتهاد المشكور في جمع الأحاديث وتوحيدها وتقسيم روايتها وأساليبها ، وقد جعلوا من أقسامها الثابت والراجح والخس والمقبول والضعيف والمشكوك فيه والمرفوض وجعلوا لكل قسم شروطه وعلاماته فأصبح الحديث بفضل هذه الشروط والعلامات علماً مستغلاً بتعمرغ له علماء مستقلون .

وبعد كل هذا الجهد المشكور لا تريد الأحاديث لثابتة على عشر الأحاديث المتداولة في الكتب وعلى الألسنة

وكلمة واحدة من فمه الشريف ﷺ ترد الأمور جميعاً إلى مصابها «لم أقل هذه الأحاديث» ويسهى القليل والقال ويبطل الخلاف واخذال ، ويبطل معهما بلاء أولئك المحدثين الذين يمسدون إلى الحديث الكاذب في التضييل وسرويح الأباطيل .

قراءات القرآن

ومسألة الروايات القرآنية دون مسألة الأحاديث في أشكالها ونتائج الاختلاف عليها ، فإن الروايات التي لم يتفق عليها القراء لا تعبر شيئاً من أحكام القرآن ، ويمكن الأخذ بها جميعاً ولا ضرر في ذلك ولا صرار

إلا أنها تحتل أقل احتمال مع وجود السى الذى تنزل عليه القرآن مما يقوله فيها فهو مجتمع القراءات ومرجع الروايات ، ومتى استمع الناس إلى تلاوته - فى عصر التسجيل - فتلك دحيه الأند فى ذاكرة الأجيال ، وسيبقى صوته بلاوة القرآن أول ما يسمعه السامعون فى محالس الذكر الحكيم .

الخلافة والخمس

وتأتى مسألة الخلافة ، بل معصلة الخلافة .

تلك المعصلة التى سالت فيها بحور من الدماء وجداول من المداد ، وبقيت وراء كل انقسام بذكره فى الإسلام حين بذكر السنة والشيعه والإماميين والزيديين والإسماعيليين والبرانيين ، وحين بذكر الهاشميين والأمويين والعباسيين والفاطميين وغيرهم وغيرهم من انقسامين وأقسام المقسمين

بم أوصيت يا رسول الله فى أمر الخلافة؟ وهل أوصيت بها دينية أو دنيوية؟ وهل تريدنا اليوم على هذه أو على تلك من صفاتها وأحكامها؟

فإذا قال ﷺ أوصيت بكدا ولم أوص بأوص بكدا ، فكأنما مسح بيده الشريعة على تلك الصفحات والمجلدات فإذا هى بيضاء من غير سوء ، وإذا هى نقيه من نقاي الدصى تحال إلى درر محفوظات للعبرة والحدرد أو يلقى بها حيث لا حس ولا خير وكفى الله المؤمنين شر القتال وذكرى القتال .

الرسالة بعد حاتم المرسلين

والخطب أهون من ذلك جداً فى مسألة الرسالة والسوة بعد حاتم المرسلين ، فإن المحالين للإجماع فى هذه المسألة واحد فى كل خمسمائة مسلم ، وسيتهى خلافتهم عما قريب .

ولكن ، إذا انتهى بكلمة من الرسول الذى يؤمن به المسلمون جميعاً فتلت هى النهاية المعصلة ، وقد تمنع فى المستقل أصراراً لا يقاس عليها ضررها فى الموت الحاصر ، وخير من واحد يشق على خمسمائة أن ينشق الخمسمائة فلا يشق منهم واحد

المذاهب الاجتماعية الحديثة

وم قولك يا رسول الله في دعاة المذاهب العصرية من اجسماعية أو غير اجسماعية؟ . .

لا حاجة إلى السؤال عن الديمقراطية ، فإن سابقة الإسلام فيها أصلح من كل سابقة .

ولا حاجة إلى السؤال عن الفاشية فإن الإسلام يحقت الحارين والمتجبرين ولا حاجة إلى السؤال عن الشيوعية الماركسية ، فإنها ملعونة في كل دين .
وإذا سُئِلَ النبي ﷺ في الاشتراكية فيقول ما قاله القرآن حيث بهي أن تكون الثروة ﴿ دُونَهُ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ ﴾ . ثم يسأل عن شرحها فيتنقده منه المسلمون على أقوم المناهج وأسلم الحلول .

وبأنى على لها مش أسئلة عن ترجمة القرآن وعن حقوق المرأة وعن دعاوى المدعين في الأحكام والقوانين باسم الدين ، وعن أحاديث شتى مما يتحدث عنه الصحفيون وأشباه الصحفيين .

ويسمع من النبي ﷺ هي أولئك كله جواب يعنى عن ألف جواب أو عن كل جواب .

ويعود إلى محكمة التفتيش وما يشه محكمة التعيش بين المسلمين .
إن كاتب هذه السطور آخر من يؤمن بإقناع العقول أو بسلطان البرهان في الإقناع

إن كاتب هذه السطور قد رأى بعينه أناساً أعرب وأصفق ممن ينكرون الشمس في رابعة النهار

وليس بالمستحيل عندى أن يعاندك المعابد ويكابر بك المكابر في «أثنين واثنين يساويان أربعة وفي واحد وواحد يساويان اثنين» .

بل ليس بالمستحيل عندى أن يكابر بك المكابرون في معنى الواحد ومعنى الاثنين وأن هذا خمسة وليس بواحد وذلك صقر وليس برقم من الأرقام .

فإذا عاد النسي ﷺ وقضى قضاءه في أحكام لإسلام فلا والله لا يعذب الناس
من يشكك في كلامه وبيانه وفي ملامح وجهه وعلامات جثمانه ، ولا والله لن
يسدس المقادير بلح في العباد ويضيع عليه الجاه أو العنى بما قصناه الرسول وتلقاه
الناس منه بالتعليم والقبول

غير أنه ، فيما نحسب ، عاد لا يسمع أصحابه ولا يطمعون في الرجاء منه حتى
تفجأهم الحوادث بالدم عليه ، وصلى الله على محمد في الأولين والآخرين ، وما
هو إلا أن يعود فلا يعرف عليه هداية المهتدين ورياضة الدين لا يهدون ، فلا يصدون
أحداً عن الدين ولا عن الدين .

الفصل الثاني رَمَضَانُ وَالصَّيَّامُ

ألوان من الصيام

يلاحظ الصوم في الأديان الكتابية الثلاثة . لموسوية و لمسيحية والإسلام .

وليس في كتب العهد القديم نص على الصيام في وقت معين غير صيام الكفارة يوم عاشوراء ، وهو اليوم العاشر من شهر تשרي من السنة العبرية .

وقد استعان العلامة المصري - محمود باشا الملوكي - بذلك على تحقيق التاريخ الهجري بالحساب العلمي الدقيق ، فإن الروايات اتفقت على أن النبي ﷺ دخل المدينة واليهود فيها صائمون صيام عاشوراء ، فطس بعض المتأخرين أنه كان اليوم العاشر من المحرم ، ولكنه طس ينفية أن الهجرة كانت في شهر ربيع الأول ، وأن دخول المدينة كان يوم ثني ، فلما رجع محمود باشا الملوكي إلى التاريخ العبري تبين له أن العاشر من شهر تشرين يوافق يوم ثني ويقابل العشريين من شهر ستمبر سنة ٦٢٢ ميلادية ، وأنه هو اليوم العاشر من شهر تشرين سنة ٤٣٨٢ عبرية .

أما أيام الصيام الأخرى عند اليهود فقد أصبحت مع الزمن ولوحظ فيها التكفير والاستعفار في أيام المحن والشدائد ، ومنها يوم هدم الهيكل الأول وهدم الهيكل الثاني ، وغير ذلك أيام أخرى من أيام الهرم أو الحصار .

والصيام عندهم على درجات ثلاث : يوم كامل ونهار كامل ، ونصف نهار

فيصومون يوم الكفارة ويوم ذكرى الهيكل من العروب إلى الغروب . ويصومون أياماً غير هذين اليومين من مشرق الشمس إلى مغربها ، ويصومون كثيراً من الشروق إلى الظهر ، وهو صوم نصف النهار ، وكل الصيام عندهم إمساك عن الطعام والشراب

وقد ورد عن السيد المسيح أنه صام أربعين يوماً في البرية ، ولم يرد عنه أنه أمر بالصوم في وقت معين ، ولكن الكنائس المسيحية تلاحظ الصيام قبل عيد القيامة خاصة ، وينقسم الصيام إلى إمساك عن الطعام كله وإمساك عن ألوان معينة كالحوم الحيوان ، ومن

الصيام ما يبدأ عند منتصف الليل ومنه ما يكتفى فيه بوحدة يومية ، ولا حرج من التذحي ، ويترك الخيار للصائم التابع للكنائس العربية في كثير من الأحوال
أما الصيام الإسلامي كما هو معلوم فهو الصيام من المحر إلى مغرب الشمس في كل يوم من أيام شهر رمضان .

وهذه الفريضة هي الفريضة المثنى بين ألوان الصيام الديني ، لأنها تحيى في شهر معلوم فيشمل العالم الإسلامي كله وتصبح هذه العبادة فيه عبادة فردية وعبادة إنسانية عامة في وقت واحد ، وهي تحيى في شهر قمرى يختلف موقعه من فصول السنة ، فلا تقتصر الرياضة النفسية على موسم دون موسم ولا يختص بالصيف دون الشتاء ولا بالشتاء دون الصيف ، وما دام الموعول في فريضة الصيام من أساسها أن تكون قدرة على صسط النفس فالأوفق أن تتقرر بموعود محدودة وألا يملك الصائم أرحاءها مع الكسل والتسويق إثراً لوقت على وقت أو لحالة على حالة ، فمن ثم يبدو أن صيام شهر رمضان فريضة مثالية بين ألوان الصيام التي أوجتها الأديان .

ولم تأت فريضة الصيام دفعة واحدة ، بل سار الإسلام فيها على سنته من التدرج والانتقال من طور إلى طور . فكان التمسك بصلوات الله عليه في روية السيدة عائشة ، يصوم اليوم العاشر من المحرم ويدعو المسلمين إلى صيامه مدد كان بمكة قل الهجرة ، ثم فرض صيام شهر رمضان في السنة الثامنة للهجرة ، ووردت الإشارة إلى الصيام مرتين بمعنى السياحة حيث جاء في سورة التوبة : ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ لَأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وحيث جاء في سورة التحريم : ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يَبْدُلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَائِمَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيَّابَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ ورجح القول في التماسير أن المقصود بالسياحة في لآيتين الصيام ، وهو معنى حميل يدل على حقيقة الصيام الجوهرية وأنه سياحة من عالم الحسد إلى عالم الروح ، فلا يكون قصاره الإمساك عن شهوات الحسد ساعات من اليوم ، ولا يزل الغالب عليه أنه سمو عن تلك الشهوات كأنها رحلة إلى مكان قصى منه ، وانتقال من محال إلى مجال .

تشتمل الكرة الأرضية على أكثر من ثلثمائة مليون مسلم ، إذا حسبنا المكلفين منهم بلغوا نحو ستين مليوناً من سن الصبا إلى سن الشيخوخة التي تطيق الصيام . لكننا لا نبالغ إذا قلنا إن الكرة الأرضية لا تخلو اليوم من خمسة أضعاف ذلك العدد يترمون الصيام طوال العام ، ولا يقصرونه على شهر رمضان ولا على الصيام الإسلامي فيه .

لا نبالغ إذا قلنا إن العالم الإنساني يشتمل اليوم على ثلثمائة مليون رجل وامرأة وفتى وفتاة يصومون ألواناً من الصيام ويصرون عليها شهراً أو يصرون عليها طوال العام ، على الدوام .

منهم من يصوم عن الدسم والأطعمة النشوية ، ومنهم من يصوم عن السوائل إلا بمقدار ، ومنهم من يقرن الصيام بصلوات جسدية لا تقصد بها الصلاة ، ولكنها من باب الصلاة في التزام بعض الحركات بميقات .

ومنهم من يقنع بوجبتين ، ومن يقنع بوجبة واحدة ، ومن يقصى شهراً أو أكثر من شهر على مأكهة معلومة كالبرتقال أو العنب أو الثمرات الموسعة أو عصير بعض هذه الثمرات .

يصومون ولا يقصدون العبادة والاستغفار ، ولكنهم يقصدون الجمال حيناً والصحة حيناً والدرية الرياضية حيناً آخر ، وأشدهم عناء بصيامه وقيامه من «يتعد» في محراب الجمال .

وكنا قديماً نعلم أن النساء يبدأن بعريضة الصيام بعد الأربعين وأتھن يحسبن للصام والشباب موسم لا يتلاقيان ، وربما تخرجت الحسناء أن تجھر بالصوم لثلاً يقال إنها باھرت الأربعين ، وإنھا حاوزت السن التي تنقطع فيها للديا وأقبلت على السن التي تذكر فيها الدين ، وإن لم تنقطع له طوال السنين

كانت الحسناء تحسب هذه المخالفة من الدلال الذي يسمح به للحسان ، وقد نحسبه دلالاً على الخالق الذي متعھا بالضمرة والشباب وإن لم يكن من قبيل الدلال الذي تحمده منها مخوقات الله ، أو تحمله على كل حال ، وإن لم يكن هين الاحتمال .

كان هذا أيام زمان!

أما الزمان الحديث فقد عكس الآية وفرص على الحساء صياماً لا تنال به في غير زهرة الشباب .

فهذا الصنف من الطعام ممنوع وهذا الصنف من الشراب غير مأمور ، وهذه الوجبة توزن بمقدار ، وتلك الوجبة لا تقبل بميران كائناً ما كان .

وهكذا يوماً بعد يوم ، وشهراً بعد شهر ، ومئة بعد سنة ، فإذا حانت سن الأربعين فقد يحشى أن يقال بها يئست من إعجاب العيون وتحيت الألسن وقياس الهدام ، فنمضي الكهلة في صيامها كي تلزمها شبهة الشباب ، ولو لقيت في سبيل هذه الشبهة جهد طاقتها من العذاب .

كان رمضانياً واحداً بعد الأربعين فأصبح رمضانياً كل شهر ، قبل الأربعين وبعد الأربعين ، ومدى السنين .

وقد دان الرجال بهذه الفريضة كما دان بها النساء ، فمن كن يستثقل الصبر عن وجبة أو وجبتين ، أصبح العام عنده محتملاً بغير مثبات الوجبات ، من شتى المأكولات ، المطبوخات وغير المطبوخات ، وهان على صحامة الجاه ما هان على صحامة اللحم والشحم ، فصبر الصائم على الجوع والظما والسفر ، وصبروا على الاستشفاء لغير مرض ، والتجرع بلا دواء ، وظن أصحابهم مكاناً وجثماناً أنه طائر ربيع بعد هذا الصبر الطويل ، إذا حسبوه من المهاريل وهبطوا به إلى وزن الريشة بعد الوزن الثقيل .

درس في الأدب .

نعم درس في الأدب لهذه القرون الحديثة من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين . . وما سيلي .

درس لهذه القرون التي بدأت بالسخرية من يصومون في سبيل الروح والصمير ، أياماً قد تطول إلى شهر ولا تريد عليه ، فإذا بهم يصومون في سبيل الحسد ، أو في سبيل المظهر الذي فوق الجسد ، شهوراً وسنوات ولا يضمنون القبول ولا يأسون من الرحمة بعد ذلك ، رحمة الهزال والإعياء ، ورحمة الاستدواء والاستشفاء .

صيام في مستشفى العلاج طلباً للصحة ، وصيام في ملعب الرياضة طلباً

لدرشافة ، وصيام في كل مكان وعلى كل مائدة طبيباً للمطرة المعجبة والعين
المستحسنة ونزولاً على حكم الأرباء وهي تختلف مع الأدواق والآراء ، كل صيف
وشتاء ، إن لم يقل كل صباح ومساء .

بعض التواضع أيها القرن العشرون

كان كثيراً عليّ أن تعترف بصيام واحد ، فها أنت اليوم تعترف بألوان من
الصيام وأنوع من العذاب ، تارة في سبيل الأجسام ، وتارة في سبيل الشيا .
درس في الأدب وكذلك تكون الدروس والآداب .

رَمَضَانُ وَلَيْلَةُ الْقَدَرِ (١)

شهر قديم الحرمه فى الجاهلية .

وكان من عادتهم أن يصوموا أياماً منه يبدأونها أحياناً من منتصف شعبان ، تيمناً بالصيف وتقرباً إلى أربابهم أن تجعله موسماً من مواسم الخصب والرخد ، وكانوا يسمونه قديماً بالتاتق أو السطل ، من التافة التاتق أى كثيرة الولادة ، أو من السطل وهو كين السوائل ، ولا تزال كلمة السطل تفيد معنى قريباً من هذا المعنى ، سواء باللغة العربية الفصحى أو بالعامية التى تجرى على السنة السوداء .

وما زعمه بعضهم أنه اسم من أسماء الله ، وعدلوا بذلك أنه كلما ذكر قيل شهر رمضان ، ولم يدكروه فرداً يعبر إضافة كما يقولون مثلاً «شعبان وصفر والحرم» وسائر الشهور الأخرى . ويروى صاحب لسان العرب عن مجاهد أنه كان يكره أن يجمع رمضان إذ يجمع على وزن جمع المؤنث السالم وعلى أوزان حموع التكسير ، فيقال رمضانات ورماضين وأرمضة وأرمضاء إلى آخره ثم روى صاحب اللسان عن مجاهد أنه قال : «بلغنى أنه اسم من أسماء الله عز وجل» .

ويجوز أن اسمه مشتق من الرمض وهو المطر يأتى قبل الخريف فيحد لأرض حارة محترقة . لكن رأى الغالب أنه مشتق من الرمضاء ، وأنه كان يأتى مع الرمضاء فى كل سنة ، لأن عرب الجاهلية كانوا يحسبون تاريخهم سنة قمرية شمسية ، فيصيفون تسعة أشهر كل أربع وعشرين سنة ، أو يصيفون سبعة أشهر كل تسع عشرة سنة ، أو يصيفون شهراً كل ثلاث سنوات حسب مواقع الشهور ، ويعلم أن يكون هذا الحساب متبعاً فى مكة دون البادية ومن يسكنها من الأعراب الذين لا يحسبون الحساب ، ولكنهم يتبعون فيه أهل مكة بجوار الكعبة ، لأن شريعة الكعبة هى التى كانت تنس لهم تحريم القتال فى شهور من السنة ورياحته فى سائر الشهور .

(١) الهلال يولية ١٩٥٣

وقد بحث العلامة محمود العلكى رحمه الله هذه المسألة في رسالته التي سُمّتها «نتائج الأفهام في تقويم العرب قبل الإسلام» فرجح أن أهل مكة كانوا «يستعملون التاريخ القمري في مدة الخمسين سنة التي قبل الهجرة» . وبما كان أصحاب الحساب يتصرفون في التقديم ولتأخير إن أرادوا الحرب في الأشهر الحرام أو أرادوا منعها في غير هذه الأشهر وفاقاً لأهوائهم ومناصعهم . ومن هنا كان تحريم الإسلام لنسئء ، لأنهم يحلونه أو يحرمونه كما يشاءون ، ولا يستقيم الأمر على هذا الحساب بعد فرص الصيام والحج في أيام معلومات

ولم يصرص الصيام في شهر رمضان مد فيام الدعوة الإسلامية ، بل كان النبي ﷺ يصوم في كل شهر ثلاثة أيام ، ثم فرص صيام رمضان كله بعد الهجره إلى المدينة ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مَعَكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾

ومن المعلوم أن القرآن الكريم نزل في ثلاث وعشرين سنة ، فالمقصود إدد على القول الراجح بين المعسرين هو ابتداء النزول ، إدد نوتر أن النبي ﷺ قد تلقى الوحي أول مرة وهو يتعبد بغار حراء

ولقد كتب الصيام على المسلمين كما كتب على الأمم من قبلهم . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

وحاءت في العهد القديم إشارات كثيرة إلى صام الأشياء وصيام غيرهم من أهل الكتاب ، ففي سفر الخروج أن موسى عليه السلام إكان هناك عند الرب أربعين نهراً وأربعين ليلة لم يأكل خبزاً ولم يشرب ماءً .

وفي سفر الملوك الأول أن النبي إيليا إصار بقوة تلك الأكلة أربعين نهراً وأربعين ليلة إلى جبل حوريب .

وفي نهجس متى في العهد الجديد أن السيد المسيح صام أربعين يوماً في البرية ، وراجع الباحثون العصريون أخبار الصيام المحققة إاستدلوا بحادث محافظ كورك فيرسس ماكسويي - على أن الحسم يحتمل البقاء بغير الطعام أربعة وسبعين يوماً إدا لم يقطع عن الشراب ، لأن المحافظ المذكور أمسك عن الطعام في

الثاني عشر من أغسطس وبقي ممسكاً عنه إلى الخامس والعشرين من أكتوبر عام ١٩٢٠ ، ولم يغيب عن وعيه غير أيام قبيل وفاته ، ولم يكن من أصحاب القرة البدنية البالغة ، بل كان وسطاً بين القوى والهزال

وفي سنة ١٩٤٢ لحق أحد الدعاة المسلمين إلى الصيام احتجاجاً على تخييده ، هبث ستة وأربعين يوماً ثم قال الطبيب بمسكر ماريلاند عند فحصه إنه كان على حالة حسنة - جسداً وعقلاً - وإن كان قد تعرض للجفاف والهزال .

وفي سنة ١٩٤٣ صام «بهايسالي» أحد أتباع غاندي وحداً وسين يوماً ، ولكن الأطباء عمدوا في الأيام الأخيرة إلى طعامه قسراً بالحقن المغذية وهو مصرّ على رفض كل طعام .

والأساء متواترة عن صيام الأنبياء والسُّك على هذا النحو أياماً متوالية ، ولكن الصيام الوحيد الذي فرصته الشريعة في العهد القديم هو صيام يوم الكهرة ، وعقوبة من يحالف هذه المريضة الموت والقطع من الأمة

ولم يرد في دين من الأديان الكتابية أمر بالانقطاع عن الطعام أو الشراب أياماً متوالية ، بل نهى النبي ﷺ عن الصوم الوصال ، واختار بعض الطوائف المسيحية صياماً عن اللحم وما إليها اقتداءً بالنبي حرقبال حيث جاء في كتابه «خذ لنفسك قمحاً وشعيراً وفولاً وعدساً ودحماً وكرسنة وضعها في وعاء واحد ، وطعامك الذي تأكله يكون بالوزن وتشرب الماء بالكيل» أو اقتداءً بالنبي دانيال حيث قال «وفي تلك الأيام أما دانيال كنت نائحاً ثلاثة أسابيع لم أكل طعاماً شهياً ولم يدخن في فمي لحم ولا خمر ولا أدهن حتى تمت ثلاثة أسابيع» أو اقتداءً بالنبي داود إذ يقول حسبما جاء في الترجمة السبعينية «ركبتاي ضعفت من الصوم ولحمي تغير من أكل الزيت»

هذه الأنواع المختلفة من الصوم جميعاً كانت معهودة في الأمم من قبل ، وكان منهم من يصوم عن أصناف من الطعام ، ومن يصوم عن الطعام والشراب ساعات ، ومن يصوم عنهما من مطلع النجم إلى مطلعته في اليوم التالي ، ومن يصوم عن الكلام إلا أن يكون نسيحاً أو دعاء إلى الله .

أما هذا العصر الذي نحن فيه فإنه بدعة العصور قاطبة في أمر الصيام ، لأنه أكثر العصور صوماً وأقلها صوماً في وقت واحد ، ونوجز فنقول إنه أكثر العصور صوماً

فى طلب الرياضة البدنية وما يشبهها ، وإنه أقل العصور صوماً فى طلب الرياضة
الروحية وما يشبهها ، وإنه من أجل ذلك مدعة بين جميع العصور

ففى العصر الحاضر عرفنا النطل الرياضى الذى يحرم على نفسه طيبات الطعام
والشراب ليضمن السبق على أقرانه فى مصماره وميدانه .

وفى العصر الحاضر عرفنا الرجل الذى يحود بشحمه وخممه على مدح الرشاقة
والأفة ، ولعله لا يوجد برطل من لحم خيون على مدح الكرم والإحسان

وفى العصر الحاضر عرفنا العانية الحسنة التى تصوم الدهر عن الدسم
أو الشراب المسح حرصاً على القوام المعتدل والقدر السحيق ، ولعلها لاتصوم لحظة
واحلة عن اللغو والمحال .

وفى العصر الحاضر عرفنا الذين يصومون احتياجاً على هذه السياسة أو ذلك
التدبير ، وعرفنا الذين يصومون عن هذا الصنف أو ذاك من اللحوم يومين أو ثلاثة
أيام كل أسبوع ، خوفاً على الصنف من السعد السريع .

وفى العصر الحاضر عرفنا الذين يقضون الأيام والأسابيع على عصير الفاكهة
أو ماء الخضر أو ما شابه هذا وذلك من الغذاء القليل ، لأنهم عرفوا دواء الجوع وم
لا يغنى من جوع .

عرفنا أنواع الصيام جميعاً فى العصر الحاضر ، بما بالجد ، وقبلما عرفنا نوعاً من
الصيام إيماناً بالروح

بل عرفنا أناساً يصومون شهر رمضان ليجمعوا بين الصوم والنوم ، ويحسبوا الليل
كله سحوراً من مطلع النجم إلى مطلع النهار .

وعرفنا من يسهرون ليله ليرصدوا ليلة القدر ، ولا يفهمون من ليلة القدر إلا أنها -
باصطلاح هذا العصر - موعد العرائص والطلبات التى تجاب

وإن ليلة القدر خير من ألف شهر كما جاء فى القرآن الكريم ، ولكنها لم تكن
خيراً من ألف شهر لأنها «فرصة» أو أكرىون ، كما يقول أيضاً باصطلاح هذه الأيام
ولما كانت خير من ألف شهر لأنها فاتحة عهد جديد فى تاريخ الصمير ﴿هذى
للناس ونبات﴾ .

ومهم من لا يرقب موعداً من العمر كما يرقب موعداً فلعلها في السابع والعشرين من رمضان ولعلها في لياليه المسع الأحيوان ، ولعلها حبيب نكي يحيى من يريد لها الليالي الكثيرة ظلماً لموافقها ، ولعلها بما يشير إليه ولا يحصى .

قال الأستاذ الإمام محمد عبده رحمه الله «سميت ليلة القدر بمعنى ليلة التقدير ، لأن الله ابتدأ فيها تقدير دينه وتحديد الخطه لنبيه في دعوة الناس إلى ما يقدمهم بما كانوا فيه ، أو بمعنى العظمة وانشرف من قولهم فلان له قدر أى له شرف وعظمة ، لأن الله قد أعلى فيها منزلة نبيه وشرفه وعظمته بالرسالة . ثم قال إنها خير من ألف شهر لأنه قد مضى على الأمم آلاف من الشهور وهم يتخبطون في ظلمات الضلال ، فليلة يسطع فيها نور الهدى خير من ألف شهر من شهورهم الأولى . . . » .

وقد أصاب لأستاذ الإمام رحمه الله ، فما من ليلة تساوى ألف شهر في تقويم السماء لأننا نجمع فيها ما لم نجمعه في ثمانين سنة من أرباح المطامع وعروض الحطام ، ولكيها تريد على ألف شهر لأنها هداية العمر كله ، وقلما يريد العمر على تلك الشهور .

أما في تقويم عصرنا هذا فخير الزمان ما اجتمع فيه الهيل والهيلمان ، وكل صيام مأثور فهو رياضة أبدان ، وكتب الله السلامة لشهر رمضان!

ولعلها آية من آيات العصر يدركها الداكرون فما بلى من العصور .

ولعلها آية لهذا العصر أن يصل إلى الروح من طريق الحسد ، وأن يبلغ النهاية من هنا ليسررك النهاية من هناك

لقد علمنا من عصر الدرة أن الأجسام كلها نور .

وقد تعلم من عصر الدرة أن رياضه الحسد مسيل إلى رياضه الصمير ، وأن العصر الذي عرف من صروب الصيام أشكالاً واللوناً ، سيعرف بعد حين خير ما في هذه الأشكال والألوان .

ليلة القدر^(١)

﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ .

والمتفق عليه بين جلة المفسرين أن ليلة القدر شرعت هذا التشريف لنزول القرآن الكريم فيها ، ولا خلاف بينهم على هذا المعنى ، ولكنهم - كعادتهم في تحقيق كل دقيقة وجليلة من تفاصيل الآيات والأخبار القرآنية - يفسرون نزول القرآن على وجه من وجوهه المحتملة . إذ يجوز أن يكون المقصود به انتهاء النزول ، كما يجوز أن يقصد به نزول الكتاب كله حملة واحدة ، ويشير انقرطى وابن كثير إلى قول القائلين إن ليلة القدر اسم جنس لجميع الليالي التي سرت فيها الآيات ، قد سلع عدتها عشرين أو أكثر من عشرين ليلة على هذا الاحتمال ، ولكنه قول لا يأخذ به الكثيرون وإن أخذوا بتعدد الليالي التي سرت فيها آيات الكتاب .

ومفسرون الذين يحققون أن ليلة القدر ليلة واحدة من ليالي شهر رمضان يرححون أنها إحدى لياليه العشر الأخيرة ، وإنها على الأرجح ليلة السابع والعشرين منه لأسباب لا محل لتفصيلها في هذا المقام .

ومن المفسرين من يرى أن نزول القرآن الكريم جملة واحدة هو المقصود بنزوله في ليلة القدر ، يعررون رأيهم بأن انتهاء نزول الآيات كان بهاراً ، ولم يكن في ليلة من الليالي لأنه من المتواتر أن السى ﷺ خوطب بأول آية كريمة وهو عاكف بغار حراء ، وقيل له : «اقرأ» فقال ما أن بقارئ» ، إلى آخر ما ورد في الحديث المشهور ، ولكن الأمر الذي لاخلاف فيه أن سورة العلق التي افتتحت بهذه الآيات قد تمت بعد ذلك لما ورد فيها من الإشارة إلى الأمور التي حدثت كما قال الأستاذ الإمام «بعد شيوع خبر البعثة وظهور أمة النبوة وتحرش قريش لإيادائه عليه السلام»

فلا خلاف على وجه من الوجوه في شريف ليلة القدر لنزول القرآن الكريم فيها آيات متفرقة أو حملة واحدة ، وأن حكمتها الكبرى أنها هي ليلة القدر كما جاء

(١) الهلال مارس ١٩٦١

فى سورة الدخان ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُدْرِيسِينَ﴾ فيها يُفرقُ كُلُّ أمرٍ حكيمٍ .

فهى ليلة القدر لأنها ليلة التقدير والتمييز بين الخير والشر والفرق بين المباح والمحظور ، ولأمر بالدعوة والكليف ، وهو أشرف ما يشرف به الإنسان لأنه هو مخلوق المميز بالكليف والمحصوص بالتمييز بين جميع المخلوقات ، ومن أجل هذا فصل على الملائكة لأنها لا تتعرض لما يتعرض له الإنسان من فتنة التمييز بين المباح والمحظور وفصيلة الوصول إلى الخير والامتناع عن الشر بمشيئة الخى المكلف المستول ، وقد فتحت دعوة محمد ﷺ بالأمر بالقراءة ، وفتحت تمييز آدم على الملائكة بفصيلة العلم كما جاء فى وصف خليفة من الكتاب المبين ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ سَوَّاهُ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُمْ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَجَعَلَ نَسْحًا بِحَمْدِكَ وَيُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ . وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مَا غِيبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُدْبُرُونَ وَمَا كُنْتُمْ تُكْتُمُونَ﴾

وقد جاء وصف الإنسان بهذه لمزية بعد الأمر بالقراءة فى أول آية حوطب بها عليه السلام ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾

وهكذا يتبع أن يفهم معنى القرآن ومعنى الفرقان ومعنى التقدير والتمييز الذى حصن به الإنسان ، ومعنى الأمر بحكيم الذى يفرق فى ليلة القدر ، بأمر العليم الحكيم .

والشرف الذى فصلت به ليلة القدر ، إنما هو شرف التقدير والتمييز ، وشرف

القرآن والعرفان ، وشرف التكليف الذى رفع به الإنسان إلى منزلة أشرف المخلوقات ، وحق عليه أن يذكره لأنه محاسب عليه ، فيذكر فى كل يوم وبيلة أنه مسئول عما يفعل ، وأنه مشرف بين الخلاق جميعاً لأنه مناط السؤال والحساب .

وعلى هذا المعنى وحده ينسحق أن نفهم التقدير الذى يرتبط بتناول القرآن وبأمر القراءة والعلم الذى يفرق به كل أمر حكيم

ومن حقائق المدهة التى يدين بها المؤمن بالله أنه سبحانه وتعالى يقدر الأقدار ويقسم الأرزاق ، ويحيى ويميت ، ويجرى قضاءه فى صروب الخواص وأطوار الحياة والأحياء ، ولكن اقتران ذلك بيلة واحدة من ليلالى الزمن أمر لا يقول به المؤمن بالإله الواحد السرمد الذى لا أول له ولا آخر ، ولا تأخذه سنة ولا نوم وإنما يحتلف هذا الاعتقاد من بقايا الأديان التى كانت تعدد الأرباب وتحص كل رب منها بوقته وسمائه ، أو تشبهه بما يشبه الإنسان من أعمال أصحاب التصريف والسلطان من سى نوعه المحكمين فيه ، وتحمل لندسعود والحوس أياماً تتعلق بمطالع النجوم ومسارات الأفلاك ، ويستترلها العارفون بأسرار النجوم عندهم نوسلا إليها شفاعاة القرابين والصالحاى ورموز الطلاسم والعبادات .

ومن بقايا تلك العقائد الوثنية تسربت عقيدته التقدير فى إحدى ليلالى السنة ، وسرت إلى بنى إسرائيل بعد احتلالهم بعباد النجوم والأرباب الأرضية أو الملكية فى أرض بابل وأخذت مسيلها مع سائر الخرافات والإسرائيليات إلى عامة المسلمين ، فظهرت فى تلك الأساطير التى أحاطت بأخبار ليلة القدر وعملت بتدك الديلة المشاركة عن معالها الذى يتصل به شرف الإنسان وشرف التمييز والتكليف إلى معنى يناقسه ويطل حكمته ويطل حكمة لإسلام فى جملته ، لأنه يرتتهن العادة والشقاء والمثوبة والجزاء بغير الأعمال والمقاصد ويعود بها إلى أرصاد اللبالى والأيام ورموز الشفاعات والقرابين .

كان قدماء البابليين يحتفلون بستمهم الزراعية ويسهلون إلى أربابهم فى مطلعها أن يعدق فيها المطر ، ويورق فيها الشجر ، ويجعلها سنة أمن ورحاء ونعمة وثراء ، لاعتقادهم أن أرباب النجوم تقصى فى الليلة الأولى من مطلع السنة كل ما يقصى من أمور الخصب والخصب والرزق والحرمان والحياة والموت ، وكان من عقائدهم أن

للأعمار شجرة تنحصر أوراقها أو تدل مع احصرار الشجر على الأرض وذبوله ، فمن كتب له العيش احصرت ورقته ، ومن قصى عليه بانوت ذلت ورقته وسقطت فلم يبق منه غير عود كميدان الخطب بغير روح ، وكان من عقائدهم مع هذا أن اخصرار الورقة وذبولها مرتين بمواسم الصلاة وطلاسم السحر النسي ينولها الكهان ويفرصون من أحلها القرابين والهدايا على طلاب الصلوات والدعوات

وقد نقل الإسرائيليون كل ذلك إلى عيد من أعيادهم التي احتلظت فيها عبادة الإله بعبادة الأرباب الوثنية ثم تسربت منهم إلى عامة المسلمين ، وانحدع بها من غير العامة من كان يحسب أن الصوم يفعلون ذلك عن مصادر الكتاب الصحيحه ، فأصافوا إلى ليلة القدر أكثر ما كان يقال عن مواسم السنة الزراعية عند السابليين ومواسم التكفير عند كهان إسرائيل .

ولعل انتقال بعضهم بليلة القدر إلى منتصف شهر شعبان ، مع وضوح سببها إلى شهر الصيام في القرآن الكريم ، إنما جاء من ذلك الاعتقاد القديم في السنة الزراعية ، إذ كان شهر شعبان إنما سمي بذلك لانشعاب عيدان الشجر فيه على ما جاء في روايات الجاهلية ، فهو أشبه بـ كان يقال في بابل القديمة عن شجرة الحياة وعما يعرض لها من «انشعاب» الأعمار بين الاحصرار والذبول .

لكنه في الواقع «انشعاب» آخر بين العقائد الإسلامية في صميمها وبين العقائد التي تخلصت عن عبادة الأوثان والأرباب من دود الله .

فالعقيدة الإسلامية في صميمها لا تتمثل في شيء كما تتمثل في التكليف والتعويض ، وفي المخلوق العاقل المسئول الذي يدان بعمله ولا يصيبه الجزاء أو العفو من عمل غيره ، وهما تشعب العقائد بين ليلة القدر في شريعة المسلم وبين أشباه هذه الليالي في كل شريعة يباط فيها قدر الإنسان بغير الأعمال والنيات .

وإن المسلم ليعود إلى إسلامه الصحيح كلما احتفل بليلة القدر ، وهو يذكر أنها ليلة فرقان وحساب ، وأنه يدعو الله فيها ليشرق بما شرفته به الليلة المباركة من آيات التقدير والتذكير .

شهر الصَّيَّام

شهر الصوم قديم في تاريخ الإسلام ، والصوم نفسه أقدم من لإسلام وأقدم من الأديان الكتابية الثلاثة ، وقد يقصد في التقدير من يقول إنه سقى الدنيا الموسوية يومين ، وإن اليوم بمقدار ألف سنة عما تعدون .

وسوى بحمد الله أن يصحب الشهر في أحداث الجمعة بما يحريه في الخطر أو يرده إلى الذاكرة من عرائب الماضي ومستحدثات الحاضر ، وأولها اقتراح على الماكينات والآلات بالصيام!

منذ خمسة وعشرين قرناً ذهب يونس عليه السلام بديراً إلى أهل بنوى العظيمة لله .

ولم تكن عظيمة لله لأنها تطيع الله وتعمل بأوامره ووصاياه ، إذ كانت في الحقيقة أطعى للذن القديمة كما وضعها أسياؤها ، وكان غناها سبباً لطغيانها ، وطغيانها سبباً لغناها ، فإنما احتجعت لها الثروة التي لا مثيل لها من أسلاب المفهورين والمسخرين ، وكانت كل لبنة في قصر من قصورها تقوم بحياة عند مظلوم أو بحياة جملة من العبيد المظلومين .

ولكنها سميت بالعظيمة لله على حد التعسير المعروف في اللغة العربية ، حيث يراد الارتفاع بالوصف إلى أقصى مداه ، ومنه حبال الله وأمر الله كما جاء في المزمير . وقد كانوا يقسرون طول المدينة وعرضها مسيرة الأسياال لا بالخطوات والعلوت . وقبل في طولها مع ضواحيها إنه مسيرة ثلاثة أيام

فلما توسط يونس عليه السلام تلك المدينة العظيمة بعد مسيرة يوم ، تجمع إليه الخلق واستمعوا إلى نذيره ، وقد أندرهم أن تنقص المدينة على من فيها إذا هي أصمت مسامعها عن النذر الإلهية ، وأولها نذيره انهروب ، وكفى به بديراً أوقع الهلع في قلوب الرعية والرعاة ، وترددت أسباؤه بعد قليل في جناب القصور ، فارتاع له الملك والعظماء

وجاء في سفر يونان - أو يونس - من العهد القديم إن أهل بينوى أموا بالله وتنادوا إلى الصوم ولبسوا المسوح الغلاظ ، وقيل في المدينة «عن أمر الملك وعظمائه» : «لا تذاق الناس ولا الهائم ولا البقر ولا العنم شيئاً ، لا ترع ولا تشرب ماء ، وليتخط الناس والهائم بالمسوح ويرجعوا عن الظلم»

وفسر المفسرون أمر الملك والعظماء أن تصوم الهائم وتتخطى بالمسوح قائلين : «إن المدينة إذا انقلبت فإنما تنقلب على الهائم كما تنقلب على الناس ، وإن الله لا يعجل بعقاب المدينة التي تحتوى فيمن تحتوى مائة وعشرين ألفاً لا يعرفون أيامهم من شمائلهم لأنهم أطعموا صغار ، ومعهم مئات الألوف لا يعرفون أيامهم من شمائلهم كذلك ، لأنهم عجماءات» .

وصيام العجماءات هو بيت القصيد .

فلماذا لا تصوم الماكينات والآلات في العصر الحديث؟ على بعض المجددين في الشعر فوصعوا قطار الحديد إزاء قطار الإبل ، وشهدوا للأقدمين بالفصل لأنهم وصعوا الدقة بألف قصيدة ولم نصف نحن القطار ولا الطائرة ببعض ما وصفوه

لكنا لا نعالى إذا وصعنا الماكينات والآلات إزاء الخيل والجمال والغال فيما نصنعه للإنسان وما يسحره له من حيره وشره ، فهي إذا صامت عن بعض ما تصنع في العصر الحديث فقد نجد صيامها بعض الجدوى وقد ينجو الإنسان في المغرب واشرق من شر كثير ، وقد يكون صيامها نفسه هو توبة الدم التي يتبعها العصور ، وكم في الأرض من يسكنها الألوف وألوف الألوف من لا يفرقون بين اليمين والشمال ، لا لأنهم عجماءات ولا لأنهم أطعموا ، ولكن لأنهم في حال شر من حال العجماءات والأطفال؟

لتصم ما كينات القدثف والنفثت ، لتصم ما كينات الفصول والوافس ، لتصم كل ما كينة تريد حاجة لإنسان ولا تعيه عن حاجة إلا فتحت له أبواب حاجات لتصم هذه الماكينات ولا تأكل باراً ولا دخاناً بصعنة أيام وليطر الناس كيف يصحون على سبيل التجربة إذا صامت الماكينات

قبل إن الماكينات تصاعف صاعة العدء وتصاعف صناعة الكساء ، وقيل إنها

تضاعف صناعة السلاح وتضاعف صناعة البناء ، وصبح ما قالوا فى كثير ، وصبح كذلك أن حياض اليوم أكثر من حياض الأمس ، وأن خوف العدوان فى عصر السلاح المضاعف والساء المسلح أكبر من خوفه يوم لم يكن سلاح كسلاح العصر الحديث ، ولم يكن بناء مسند بالحجر والحديد .

فلماذا لا نصوم الماكينات؟ وماذا لا نجرب صيامها ولو فى بعض الأوقات؟

شهر فى السنة على سبيل التجربة فإن طال الشهر على عبث الماكينات فليكن الصيام الأول أسوعاً واحداً لا تدور فيه ماكينة ولا يعمل فيه بخار ولا كهرباء ، ثم منظر ما يكون ، ولن يكون أسوأ مما هو كئس وما يخشى عدداً أن يكون .

يقول حكيم من حكماء العصر إننا لو أصبحنا ذات يوم وقد صغر الكون كله إلى مقدار البدقة لما أدرك الناس فرقاً بين ما كانوا فيه وما صاروا إليه ، لأن مقاييسهم تصغر كما صغروا ومسافاتهم تصغر كما تصغر المقاييس ، ومن كان يتعب حين يمشى ميلين فإنه سيتعب عدداً حين يمشى مقدار شعرتين . ومن كان يقيس سنوى بمسيرة ثلاثة أيام ، سيقيسها كذلك بمسيرة ثلاثة أيام لا تنقص ساعة واحدة ، لأن الشمس وكوكبها صغرت معنا كما صغرنا معها ، فلم تتغير الأيام والساعات ولم تختلف الأفلاك والمدارات .

كذلك يكون الأمر إذا أصبح الكون كله فى حجم البدقة . فهل يكون غير ذلك إذا صرنا «البومة» ونفخنا فى البوق ، وأومأنا للأتون فى قلب الساحرة أن يصبح شراعاً وللماكينة الطاحنة التى تصبى رحي ، وللمصنع الدوار أن يصطع الأناة فى المدار بالليل والنهار؟

مستحيل . . حسن إن كان لابد من استحسان ، فتمتعوا ما شئتم إذن بالممكنات وبالمكينات ، ولعلها سائرة بن حميعاً إلى حالة لا تستحيل ، لأنها آخر الحالات .

على أنه بالتجربة المحسوسة لم يكن بالمستحيل كما يرعمون ، فقد صام أناس وصامت ماكينات قصنهم العجائب وصغت المعجرات ، ولا يزال خبرها فى الآذان وأثرها فى مشاهدات العيان .

صام غاندى وصوم معه الماكينة الجهنمية التى تأكل النار وتنفت الدخان .

وكانت معجزة الماكينة الصائمة أعجب من معجزة القديس الصائم ، فاعتصمت
الهند بالمعزل ، واعتصمت بريطانيا العظمى بتلك الماكينات لأنه كما تفوق البلاعة
العسرية ، وما كانت لله ولا للقديسين ، إلا أن يكون القديس حورج الراكب على
صفحة الدينار

صام عابدي واعتصم بالمعزل ، فلم يكن صيامه ولا صيام ماكينته بالمستحيل ،
وإنما كان هو المعجزة التي صنعت المستحيل ، وارتفعت صورة المعزل شعاراً لراية لم
ترتفع قط منذ ثلاثة قرون .

فإذا كان صيام الماكينات حملة واحدة عسيراً كل العسر أو بعض العسر ، فليكن
صيامها أقساطاً منجّمة على حسب الحوادث ، ولننظر بعد ذلك كيف ينسر العسير
ويتحول المستحيل .

لقد كانت في بهائم نبوى حكمة ، وعزير على حكمة الناس أن تحكيها اليوم ،
لأنهم ماكينات تجرى وراء ماكينات ، ويأكلون النار كما يأكلها الحديد الدوار

فيلسوف وقديس

يعطان دوات الأربع والجنحين!

لما كتبنا عن صيام أهل بيوت الأشرافهم أعمامهم معهم في الصيام وليس المسوح ، كتب إلينا سائل يسأل هل كانت شريعة من الشرائع تلزم البهائم التكالييف والفرائض وبوجوب عليها التكفير عن الذنوب؟ ثم استورد ، ولعله استورد مارحاً ، فسأل أليس من الإكرام للنهي الأعمى أن يعامل معاملة الإنسان؟ .

والمسألة هيما يرى لم تكن مسألة تكليف أو تكفير ، فكل ما هنالك أنها مرسوم حداد في الزمن القديم اشتهرت فيها جميع الأمم ولا تزال هي العصر الحديث تشترك فيها على صورة من الصور .

فقد روت ملاحم اليونان أنهم كانوا يحلقون شعر الخيل ويجللونها بشارات الحداد في حارة إيطاليا ، ورأينا ولازال يرى في العصر الحديث مراسم الحداد يشترك فيها عرس الحدى المشيع إلى مرقده الأخير ، وربما صدف الناس عن الطعام وهم محزونون معتمدون فلم يحظر لهم أن يحوجوا ويقدموا العلف بأيديهم إلى عطائهم وأعمامهم ، فيدركها الحزن والصيام على هذه الصورة وهي لا تعقل ما يفعلون ، وللم يعقل الناس أنفسهم ما يفعلون وهم محزونون أو مغمومون .

على أن السائل الحريص على كرام حيوان الأعمى يستطيع أن يطمئن ، ولو بعض الاطمئنان إلى حسن رأى لأقدمين من هذه الساحية ، فلم تخل العصور الأتلى من فيلسوف يحسن النظر بالطير والعصافير فيسوق إليها دروسه وعظاته وهي من أعصم ما تعالجه العقول .

ذلك هو «الحكيم» فيثاغوراس .

وبم نحل العصور الوسطى من قديس جيل الشأن يحاطب الطير ويدعوها إلى

الإيمان ويذكرها بمرحمة الله وبعمائه ، وما أسعاه عليها خاصة من برة وسجدة .

وذلك هو القديس فرسيس الذى تسمى إليه طائفة «الفرسيسكان»

كان الفيلسوف فيثاغوراس «منطقياً» مع نفسه كما يقولون فى تعبيرات العربيين ، لأنه كان يعتقد تناسخ لأرواح ويحسب أن النفوس الشريرة تتركب فى أجساد الناس عقاباً لها على شرورها وجهالتها . فهى إذن أحوج ما تكون إلى العطش والتذكير ،

وكان منطقياً مع نفسه لأنه كان يحرم أكل لحيوان ويقول إن أكل لحيوان وأكل الإنسان على هذا الاعتبار يستويان

وكان من عجائبه أنه - مع تحريمه أكل لحيوان - يحرم أكل الصول ويحسبه من أعطى المحرمات .

ونعود فنقول لعله فى هذا «منطقى» مع نفسه كذلك ، لأنه يترك للحيوان طعامه غير مزارع فيه ، ويدخر له خير ما يأكل من الحبوب ، وعنده غير الفول كثير من طعام النبات

وقبل أن يحظر من يحهل الرجل أن يتهمه بالبلادة والعتة معجل فنقول إن فيثاغورس كان عقرى القرون الأولى فى العلوم الرياضية وإن العالم لم يعرف مداة أصدق من مدياته فى تعليل الأصول واستنباط أسرار الوجود ، وحسه على الرمس أنه هو القائل إن الموجردات كلها عدد وإيه لاشئ من المادة التى يحسها فى الأرضين والسموات إلا وهو عدد فى عدد ، ومن استصغر هذه البدهة المدهمة فليذكر أنها سقت عصر الكهارب والذرات سيف وعشرين قرناً وأن الكهارب والذرات هى مصداق ما قال فى ذلك الزمن السحيق ، إذ لا محصل للمادة فى أصولها عند أحدث المحدثين من علماء الطبيعة إلا أنها عند من الموحات والفهرات تحتل نسبته فتختلف عناصرها ، ولا يعلم أحد كم منها فى الرمن وكم منها فى المكان ، ولا يتحصّل لها كيان واحد مرتين على حال

ومضت قرون وقرون ثم ظهر فى العالم رجل يخاطب لحيوان بلسان الإيمان بعد هذا الرجل الذى خاطبها قديماً بلسان الفلسفة ولأخلاق

ذلك هو حيوفاسى الذى اشتهر باسم «فراسوا الأسيسى» وأثر عيشه السك وهو

في الخامسة والعشرين من عمره ، ويمتلك من المال ما لم يملكه كثير من أمراء زمانه ، ويعرف عن فنون اللهو ما لم يعرفوه .

ولد قبل نهاية القرن الثاني عشر (١١٨٢) وندر نفسه للعبادة ستة سبع ومائتين ، وحصر الحروب الصليبية فكان له رأى فيها يوائم دعوته إلى السلم والإحياء . وجملته الرأى أن يتخلى عن الحملة رجال السيف ويتركوها لرجال المسبحة والصومعة ، وعمل بما دعا إليه فحصر إلى مصر ولقى السلطان الكامل ، ودار بينهما حوار عجيب كان السلطان اللبيب الأريب يتسم وهو يصغى إليه ، ثم أباحه من الحرية له ولتلاميذه ومريديه ما لم تتركه الحيوش بحوار السيرف .

قال تلميذه الذى كتب ترجمة حياته : «ولما فترت من بيقايا وصل إلى بقعة تراحم فيها الطير من جميع الأنواع ، فهرول إليها حين رآها وحياها كأنها تفهم كما يفهم الدس ، وانتظرت الطير من جانبها تحنو رؤوسها عليه وهى على أعصابها كلما اقتربت منها ، وتطر إلىه نظرات لم تعهد من أمثالها ، ثم توسطها وتوسل إليها أن تستمع منى إلى كلمة الله فثلاً بحق يا إخوانى الصبور يسغى لكم أن تسحوا بحمد خالقكم الذى كساكم ريشاً وجعل لكم أجنحة تطيرون بها ويسط لكم الهواء المظهور وشملكم بعنايته ورحمته وأنتم لانفكرون فى أنفسكم .

قال صاحب السيرة : «ربيتما كان يحاطبهم بهذه الكلمات وظايرها كانت تلك الخلائق الصغار تسلك حوله مسالك عجباً تمتد إليه أعناقها وتشر أجنحتها وتفتح مناقيرها وتطيل التأمل فيه ، وكان هو فى شوة الروح يقبل ببسها ويدبر ويمسحها بشبابه فلا ترح مكانها حتى باركها وأذن لها فاصرفت جميعاً ووقف أصحابه ينضرون إلى هذه الأشياء ويستطرون . وجاءهم الرجل الطيب المقدس وهو يوم نفسه لأنه غفل عن وعظ الطير قبل ذلك .

ويظهر أن ستة الطير فى حب السماع والإصغاء إلى المواعظ والوصايا كسنة أباء آدم . فليسب كدنها تحسن أن تسمع وأن تستمعى عن السبب إلى السكوب وحفظ الطام ، فقد وصل القديس إلى القرية الأخرى - قرية الفيانو - وأقبل على جماهير المرحبين به يتحدث إليهم فلم يستطع أن يسمعهم ولم يستطيعوا أن يسمعوه ، وراحت العصافير تفرق من حولهم وتصبح ولا تهدأ لحة عين عن الرققة والصباح ،

فأداه على مسمع من الحاضرين جميعاً وأهاب بها قائلاً «إخواني العصافير: لقد حاد لى أن أتكلم أنا أيضاً كما تكلمت أنت واستوفيت حظك من الكلام، فاستمعى إلى كلمة الله والزمى الصمت حتى يفرغ من الدعاء» وكأنما رزقت ساعتها الفهم والمعلم فلادت على الأثر بالصمت واستقرت فى أماكنها لا تتحرك حتى فرغ الدعاء.

وانقل السر من القديس إلى تلاميذه ومريديه فكررت الكرامة فى مدينة بارما على لسان معلم يقاظه عصفور لا يسي حوله يرقرق ويظير، فالتفت المعلم إلى جمع من رفاقه وقال لهم: «لعل هذا العصفور واحد من تلك السرب الذى أرفع رجل الله وهو يلقى عظامه على سامعيه حتى أمره بالسكوت، ثم أوماً إلى ذلك العصفور وناداه فى ثقة وإيمان، باسم فرسيس خدام الله أمرك أن تأنى هنا وبكف عن الرققة» فما سمع العصفور اسم فرسيس حتى صمت كأنه يتلقى الإلهام من رجل الله، ونقدم إلى يد المعلم كأنه يتقدم إلى عشر أميين

كذلك كانت الطيور والعجماوات فى رأى الفيلسوف الحكيم وفى رأى القديس الطيب الكريم، فعاداً يرى السائل الخريص على كرامة الطير والحيوان؟ هل يكلفها تكليف لإسان أو يحاسبها حساب الصالحين والخطئين؟

لو كانت الطيور كلها على تلك الصفة التى وضعها تلميذ القديس لوجبت عليها التكاليف وحق عليها الحساب ولحققت بها كرامه سى آدم، ولحققت هى بتلك الكرامة .!

هل كل الطيور كذلك لطيير؟

وما لنا وللطير نسأل عنها وعن تكاليفها وكراماتها؟ هل كل بنى آدم مكفون؟ وهل كلهم على تكليفهم أمناء منخلصون؟

من الكرامة لطيير والحيوان أن تلتزم تكاليف الإنسان، ولكيف مطلومة حين تؤخذ بواجب الإنسان ولا تستمتع بحق الإنسان، فمن بهص بتكليف الراسلين فعليه فرائضهم وله حقوقهم وعنده مقلرتهم، ومن لم يكن كذلك فهو مظلوم حين يشقى به عليه ولا يعجم بما له فى حوزة يذبه ولا يدري ماذا تؤثر الطيور والعجماوات لنفسها إذا استشارها المشيرون فى أمرها؟

ان عقلت كانت كمنى آدم ، وان لم تعقل كانت كما هي في جهلها وعجمتها
وعجزها عن التكليف والحقوق ، وتلك هي الخيرة في أمر هذه الخلائق التي لا
يفهمها كل الناس كما فهمها ذلك الفيلسوف وكما فهمت هي ذلك القديس

والخروج من هذه الخيرة على ما يرى أن تنأى وتترىث من أمسا ويومنا ، فلا
نعطي حديد قس أن يعرف حساب لعديم ، ولا نطلب من حرائر القدر تكليف
للطير والعجمارات قبل أن نزدى لنقدر حساب التكليف انتهى ورعت في آلاف
السين على بنى الإنسان

ماذا صنع الآدميون في أمانتهم؟

صه . ولا حاجة هنا إلى معجزة القديسين ليسكت من بأى السكوت عن
السؤال والخواب ، قلو أنما راجعنا حساب الأمانة الإنسانية لكان الخوف الأكبر أن
نسقط عن الإنسان تكاليفه وسلبه حقوقه وسلبناه على المخلوقات ، ولم تكن
الخيرة الكبرى أن نشرك الطير والحيوان في أمانة ذلك الإنسان .

والله يصلح من شأن فيثاغوراس وفرنسيس ، ماذا صنعنا بعظمت «العقلاء» حتى
يتسع الرجاء لهما بعدها في عظمات من لا يعقلون؟

الجمعة السعيدة

نعم ، وقد سمعت الدليل على ذلك من أفواه العامة قبل أن أقرأه في كتب الأدب أو كتب البلاغة ، وأحسب المثل الذي يسوقه العامة للدلالة على السعد الذي يجعله اللفظ مثلاً نادراً يطلبه البلغاء فلا يظفرون بما هو أبلغ منه في هذه الدلالة .

قالوا إن ملكاً من ملوك الزمن القديم - أولئك الملوك الذين يحرون على الكلمة بحرائر المال أو بقطع الرقاب - رأى مناماً أقلقته فأرسل في طلب المنجمين يعرضه عليهم ويطلب منهم تفسيره ، فبدأ بأحدهم يعسره للملك تفسيراً يرسله إلى السجن وتبيل إلى السيف ، وإذا بالآخر يعسره له تفسيراً يصدق عليه بالأموال والهدايا ويوقف عليه وظيفة التنجيم وتأويل الأحلام مدى الحياة .

والتفسيران معنى واحد لا يختلف بينهما غير «اللفظ» أو النطق ، وهو سعد عند إنسان ، وحس عند إنسان - حتى في مرة المنجمين الذين يعملون في صناعة السعود والنحوس .

قال أحد المنجمين وقد وجع واضطرب وغارت عيائه وارتجفت شفاته : يلهمك الله الصبر أيها الملك العظيم!

قال الملك : ماذا؟ هل من شر تراه في المنام؟

قال المنجم : شر عظيم يا مولاي يموت أهلك وصحبك جميعاً ، وتموت أنت في أثرهم ، ولا مرد لقضاء الله .

وقال المنجم الآخر وقد تهلل وجهه ولمعت عيائه واخترت شفاته : بشرى يا مولاي الملك المعظم!

قال الملك : ماذا؟ هل من خير تراه في المنام؟

قال المنجم : كل الخير يا مولاي إنك أصول أهلك وصحبك همراً ، والله يطيل بقاءك وبقاء ذويك الأعمام .

ماذا قال المنجم الأول ، وماذا قال المنجم الثاني؟

إنهما قالا شيئاً واحداً بعبارتين مختلفتين ، فكانت عبارة الأول شؤماً يستحق عليه العقوبة والحرمات ، وكانت عبارة الثاني بشارة يستحق عليها الرضى والثواب .

واللفظ سعد كما قيل ، والسعد والنحى قدرا مقلوبان

ولم تكن المسألة التالية مناماً يفسره منجمون ، ولكنها كانت توديعاً لشهر رمضان يختلف فيه اللفظ اختلاف القيصيين ، وهما شيء واحد حين ننظر من ورائهما إلى الباب .

يودع المصلون شهر رمضان في لياليه الأخيرة بترتيل حزين يبكى بعض العيون ، ولا سيما عيون الأطفال من دوى الحس المرهف والخيال السريع .

ويهتف الهائمون بعد كل ترتيل : لا أوحش الله منك يا شهر الحسان ، لا أوحش الله منك يا شهر الخيرات لا أوحش الله منك يا شهر الرضوان ؟

ولا أعلم في العواصم الكبرى كيف يستمع الصغار إلى الترتيل الحزين ، ولكني رأيت في الرفق كثيراً منهم يكون حتى يستمعون إليه ، وفي مناسبة من هذه المناسبات سمعت ذليلاً آخر على سعد اللفظ ونحسه ، أو على اختلاف التعبير حسب اختلاف الصمير .

كان قريب لنا يصحب طعنه الصغير والطفل دافع العينين ، فرأياهما في جمع من الأقارب والأصحاب وقال أحداً ملاطفاً للطفل الصغير : ماذا يبكيك يا عماد؟ قال أبوه متسماً . إنه يبكي حزناً على رمضان؟

قال صاحبنا ملاطفاً مواسياً : يا شيخ . رمضان فراقه عيد فما الذي يبكيك يا فتى؟

قال أحد السامعين : بل فل ختامه عيد . ولا تقل فراقه عيد ففلك أكرم للصيف الراحل ، وكلاهما بعد سوء .

نعم . إن الذي يقال فيه إن فراقه عيد ، كالذي يقال فيه إن ختامه عيد ، ولكن العبارتين على اتفاقهما في النتيجة تعبران عن شعورين متناقضين أحدهما يصيق ذرعاً برمضان ، والآخر يشكره ويفرح به وختامه كما يفرح الإنسان بتمام الخير إلى غايته ومنتهاه .

فراقه عيد فهو العيد لا يجتمعان

ختامه عيد فهو الطريق إلى العيد ، ولا وصول إلى العيد من غير هذا الطريق

واللفظ سعد كما قيل ، أو هو من الأسرار ، يستطيع من شاء أن يسوق به السعد أو يسوق به النحس ، وهو السعيد بما يقتدر عليه .

وهذه الجمعة التي تصبح صباحها اليوم ، ما سألهم يسمونها الجمعة اليتيمة ولا يسمونها الجمعة السعيدة ، أو الجمعة المباركة ، أو الجمعة المأل والبشارة؟

إنه يتبعه بالنظر إلى ما قبلها لأنها تلحق بالجمع ولا تلحق بها جمعة في شهر رمضان .

ولكن ما بالهم لا ينظرون إلى ما بعدها ، ولا يتطلعون إلى العيد من وراءها؟

إن النظر إلى ما قبلها يخرج بها جمعة يتيمة ، وإن النظر إلى ما بعدها يخرج بها جمعة سعيدة ، فليس بعدها غير العيد . .

وهكذا تختلف النظرة كما يختلف اللفظ ، فيختلف الاسم بين اليتيم والسعادة ، وهما بعيد من بعيد .

أحسب أن هذه التسمية مصرية بلأت في بلادنا وسرت إلينا من جمعة الآلام التي يحتفل بها إخواننا المسيحيون ، فأصبحت الجمعة اليتيمة مرادفة لجمعة الآلام من حيث لا مشابهة ولا مقاربة ، وإنما تتفق جمعة الآلام في ختام الصيام وتتفق الجمعة اليتيمة كذلك في ختام الصيام ، وتمضي التسمية مع الزمن عفو اللسان ، يعبر الثغرات إلى معنى الجمعتين ، وليس بينهما مشابهة ولا مقاربة في الغرض المقصود بالإحياء والاحتفال .

فجمعة الآلام تحيي ذكرى الآلام التي لقيها المسيح عليه السلام ، وليس في شهر رمضان ذكرى كذلك الذكرى ، بل هو شهر التمام في الإسلام ، أو هو الشهر الذي أنزل فيه القرآن الكريم .

فراقه عيد ، أو ختامه عيد .

وهي جمعة يتيمة ، أو هي جمعة سعيدة .

قل إن شئت هذا ، وقل إن شئت ذاك ، ولكنهما عرضان مختلفان ، يذهب بهما اللفظ والتعبير من طرف إلى طرف ، ومن تقدير إلى تقدير .

منذ سمعنا الموعظة الأولى من مواعظ رمضان فيل لنا عن حكمة الصيام إنه يعلم الأغنياء كيف يعطفون على الفقراء حين يحربون الجوع والحرمات

ومنذ سمعنا تلك الموعظة سمعنا معها سؤالاً يتكرر على نحو واحد ، فقد قال

أحد السلايميد : ولماذا يصوم الفقراء إذن وهم يجربون الجوع والحرمان في رمضان وفي غير رمضان؟ وما قاله ذلك السليميد في درسنا الأول يقال ويعاد في جميع الدروس أرى أن وعظ رمضان حلقاء أن يترقبوا هذا السؤال فلا يحصروا حكمة الصيام في تلك الحكمة ، لأنها في الواقع لن تكون حكمة الصيام كلها ، ولن تكون إلا سبباً من أسباب .
إن الحكمة الكبرى في الصيام هي القدره على النفس ، فهي الحكمة التي يحتاج إليها العبي والفقير ، ويستفيد منها المجلود والمحرور .

والقدرة على النفس هي كل شيء في مبادئ الأخلاق والمصائب ، بل هي مناط الأخلاق والمصائب جميعاً في كل حالة وكل معيشة ، أيًا كان حظها من العنى والفقر ، ومن السعادة والشقاء .

وليس في وسعنا أن نتحليل فصيلة تحبو من قدرة الإنسان على نفسه ، بل ليس في وسعنا أن نتحليل تكوينها يقوم به لإنسان من غير تطوع نفسه ، ولا فرق في التكليف بين فرص الدين وفرائض الدنيا ، أو بين العبادات ونظام الاجتماع ونظام الحياة الفردية الذي يفرصه الإنسان على نفسه لأداء عمل من الأعمال .

هذه القدرة على النفس هي حكمة الصيام الكبرى ، وهي جراء واف لصيام الصائم ، يساوى بل يريد على ما قامه من حظ الطعام والشراب

لن شاء إذن أن يصوم عن شهر رمضان «إن فراقه عيد» ولن شاء أن يصوم «لن ختامه عيد» . .

واختلاف الحكمة هو الحكم الفاصل بين اللطيفين

من كان يحسب الصيام عذاباً يعلم صاحبه كيف يوثى للمعدين ، وحرماً يهديه إلى الرأفة بالمحرورين ، فله أن يقول «لن فراق العذاب عيد وإن الخلاص من الحرمان حظ سعيد» .

ومن كان يحسب الصيام رياضة تدله على قدرته وترصيه عن عريمه ، فله أن يقول «به ينتهي من تلك الرياضة إلى الغبطة بنفسه والطمأنينة إلى صدره ، وإنه قد بلغ بها ختامها في عامها فهو سعيد بذلك الختام

كذلك تكون الجمعة يتيمة أو سعيدة على حسب اللفظ واللاطف ، وعلى حسب الحكم والمواعظ ، حكمة الصيام وموعظة رمضان . بين الرياضة والحرمان فلتكن سعيدة بما قبلها وبما بعدها ، إن شاء الله .

الفصل الثالث
الأعياد الدينيَّة
وحكمها الخالدة

عيد سعيد

- كل عام وأنتم بخير .

- وأنتم بالصحة والسلامة .

في تحية العيد وجوابها قد جمعت بديهة الجماهير كل ما تتحقق به السعادة العامة بين الجماهير فمن كان في خير ، وفي صحة ، وفي سلامة ، فهو في عيد سعيد .
قد توحد السلامة ولا صحة ، فلا سعادة .

وقد توحد الصحة ولا سلامة ، فلا سعادة .

وقد توحد الصحة والسلامة معا ولا خير ، فلا سعادة

وإن السعادة في اجتماعها كلها معاً وعلى رأسها ، خير حسما يفهمه كل طالب من طلابه ، فما هو خير لهذا الإنسان قد يمنع به خير إنسان آخر ، ولكنه مع ذلك مطلوب لبعض الناس .

لكن ما هي السعادة؟!

هنا يهبط الصواب على بديهة الجماهير بحمل الكلام لأن البديهة تجمع ولا تصرف ، والسؤال عن كنه الأمور يستتد بالوسائل إلى التفريق والتحليل والتمييز ، وليس هذا من عمل البداة ولا من عمل الجماهير .

هل السعادة شيء «سلبى» يتحقق بامتناع الشقاء وانقطاع للكاره والأدواء؟

هل السعادة شيء «إيجابى» يتحقق بتحصيل هذا المطلب وترويض هذه العقبة والإفضاء إلى هذه الغاية؟

هل السعادة هي التوازن بين قوى النفس الداخلية ثم التوازن بين هذه القوى وبين قوى العالم الخارجية حتى لا يتبخر في واحدة منها طغيان ، ولا يرتفع في أهوائها وأصدائها نشار؟

هل السعادة على نقيض ذلك اضطراب بين قوى النفس وانعدام هي واحدة منها

حتى تستغرق سائرهما وتصوبها في ديولها كما ينطوى المجنون في حماسة الجنون ،
والدراويش في حماسة «الدروشة» ، والممثنون في حماسة الفتنة ، والمعرمون في
حماسة العوام؟

هي كل أولئك سعاده من السعادات . . . أم الـ «سعادة» بالألف واللام فليست
في شيء مفرد من هذه الأشياء ، ولعلها من أحل ذلك لا تكون ، لأنها عامة غير
متفرقة في هذه النعمة ولا في ذلك . وليس للإنسان كمال
مثل بعض الكتاب الإنجليز في الأيام الأخيرة هذا السؤال :
« ما هي السعادة؟ »

فأجابوا مختلفين . . . واستشهد كل كاتب بحكمة من الحكم المأثور ، وهذه
أمثلة من الإجابات كما يتسع لها التلخيص في هذا المجال :
استشهد بريستلي بقول أرسطو : « إن أحداً لا يمدح السعادة كما يمدح العدل مثلاً
أربع وأفدس من هذه الأشياء التي تمدحها » .
ثم قال الكاتب ما يحواه : إن السعادة شيء بين الرضى والنشوة أو ما يسميه
المتصوفون حالة الوجد والتجلي .

فالرضى هو بلوغ لأرب واستيفاء مطالب الطبيعة ، وشعور «الوحد» أو التجلي هو
شعور النفس فجأة بالامتداد والصدق ، وهو نادر لأن النفس قبيلاً ما تمتد هذا
الامتداد الفجائي الشبيه بالوصول عند الصوفيين .
فهذا حاله الرضى وهي حالة الامتلاء في حدود النفس .
وهذا حالة النشوة وهي حالة الامتداد وراء تلك الحدود .

والسعادة هي شعور متراوح بين الشعورين ، و تتقارن برجح بين الحدين ، والسعيد
عنى هذا النحو ينظر إلى الرهرة الجميلة فيراها رهرة حميلة ، ولكنه يرى لها فوق
ذلك معنى آخر ، هو معنى الرمر والإشارة إلى ما وراءها من عالم الجمال والكمال
واستشهد «مارش أرمسترانج» بقول توماس مورنج : «إن السكينة خير من
الطرب»

ثم قال : إن الناس يحنطون بين العادة والمسرة أو البدة ، وهما مختلفان ، والحقيقة

أن الناس يطيبون الددة أو امسرة حين يعقدون السعادة ، وإن السعادة هي الطمأنينة ،
أما الددة والمسرة فهما وليدتان للقلق والاضطراب

وعند الكاتب أن امسرات هي هرب من النفس وشحوبها ، وأن السعادة هي
استيلاء النفس ، فهما نقيضان ، أو كالتفصيل .

وحلاصة رأيه أن السعادة «نعمة داخلية» لا يسعم بها الإنسان ما لم يتهياً لها من
جانب السريرة لا من جانب الحياة الخارجية ، وإن كان شرحاً من شروطها ألا يقع
التناقض بينها وبين طوارئ الدنيا وأحوالها .

واستشهد برتثيث بقول بولسنى «إن سعادته للإنسان في حياته وثم حياته في العمل»
ثم قال : «إن هناك شعوراً بأن السعادة استمرار وبلادة ، وبأن الكاتب الفرنسي
«بيرف» حيا السعادة تحية بالبد اليسرى حين رار أسرة من المستورين ورأى ما هم
«فيه من عبطة وقباعة» . فوصفهم بأنهم «سعداء» .

وقال إن الذين يكتنون قصص الحياة يهللون السعادة لأنها على جلالة شأنها
تم تكرر في جميع الأحوال تلك القوة المسيطرة والشهوة العائنة على أعمال الناس
وإن كثير من الناس ينعموا انعطمة لأنهم فقدوا السعادة . . من الكتاب العبقريين
من لا يكتب إلا وهو في أزمة فشل وحرمان .

ثم قال إنهم يرعمون أسا سحدث اليوم عن السعادة كثير "لأن أشقياء ، وأب
أشقياء لأسا قد صيغوا الإلحاد والعقيدة بالخير ، فليدكروا أن العقائد الستة قد تقع
أصحابها ورصصهم وتحصرهم كم يحدون حداف والنصرى والمداعة في العقيدة
الخشنة ، وإنما السعادة حق السعادة هي سنيعات الحياه وحبوها من النافر بينها
وبين ضرورات البيئة والوجود .

وستشهد برتراند راس بقول سدي سميث «إذا كان من حظي أن أرحف
في راحتي وفانح ، وإذا كان من حظي أن أظبر فاني لصائر ومسرور ، ولكن من أكون
شقياً ما استطعت أن احتلب هذا وذلك»

ثم قال أن السعادة تعتمد على توفيق بين أسباب داخلية وأسباب خارجية .
وإن انقياسين والمحامين وعباقرة لا يقدس عليهم في هذا الأمر لأنهم قد يشعرون
بالسعادة والعالم من حولهم موجب للشقاء

أما سواد الناس فمساداتهم ميسورة لهم بعض التدبير فيما يتعلق بالعداء والمأوى وسلامة النية .

إلا أن السعادة التي لها غور ولها ثبات ودوام لا بد لها من حياة قائمة حول عرص مرسوم يدعو إلى المثابرة ويتقدم في طريق النصح .

نعم . . إن بعض الناس يشبهون القطط التي يقبعها النوم في الشمس فإذا هي مبعيدة ، ونكسهم قليلون أو حكمهم في الحياة حكم الشذوذ ، أما العالب على العالم فهو امتناع السعادة « السلبية » كلما غما العقل واتسع أفق التفكير .

وعند الفيلسوف الكبير أن أحق الناس بالسعادة في عصرنا الحاضر هم رجال العوم ، لأن عملهم شائق وثاق ، ولكنه غير مفرط في المشقة ، ولأنهم يشعرون بجلالة شأنه ويرافقهم العالم على هذا الشعور ، ولأنهم على الرغم من تسخير مخترعاتهم في الحروب مؤمنون بأن العاقبة من هذه المخترعات للسمع والصلاح على مدى الزمان .

و سنشهد السير هيوخ والنوب بقول صامويل جونسون : « إن السعادة لا شيء إذا هي لم تعرف ، وهي شيء صغير جداً إذا هي لم تحسد » .

ثم قال : إن من يسعى السعادة لا عنى له من العمل ، وأن يكون عمله مهما يحب ويختار . وهو يقر الصحة الحمدية بالعمل ، ولكنه يعود فيقول ، إنه ليس في هذا على يقين ، لأن كثيراً من أسعد من عرف بين الناس كانوا ذوي أدواء وتوى عاهات

واسنشهد جون هيلتون بقول جون ميبتون : « إن العقل مكانه العقل ، وفي وسعه ثمة أن يخلق نعيماً من الحميم وجحيماً من النعيم »

ثم قال : إن السعادة هي رول الألم الذي يشعر به حتى يرول

وعرض لأراء بعض الحكماء في أسباب السعادة فعقب عليها برود قصيرة ، قائلاً : « يقولون : احسب خبراتك ، وتقول : صحيح ! ولكنها قلما تصيب شيئاً . . »

ويقولون : عش عيشة الحق والقداسة والاعتدال ، وتقول : صحيح ! ولكن أناساً ممن عاشوا هذه العيشة قد ماتوا بقلب كبير .

ويقولون : احترس نفسك ركني كعب أنت ، وتقول : صحيح ! ولكن البحث عن النفس قد يعطل ويصعب ، ولست من النتيجة على ضمان ، فكثير من الدحش من أنفسهم قد ضاعوا في نهاية الطريق .

ويقولون . اعتقد هذا ورد هذا واعمل هذا ، وتقول : صحيح ! ولكن تعرف من يعرفون نجاحهم إلى أمثال هذه الوصايا تعرف أنها تعويذه يعالجون بها السأم والخيبة ، وليسو هم من نجاحهم الراهن على قرار وطيد .

ثم يقولون كما قال جيمس فيرير ،

«عيشك ألا ما تركنا تفكيرك وشأنه» .

وربما كن في هذا القول بعض الصواب ، فلا تفكر أبداً في فكرك وامض على سنئك ولا تتعقب السعادة فهي لا تدرك بالتعقب ، وإذا لم يكن لك ماض من تعقب شيء فاقف أثر الحياة المستوعبة الوافية ، ودع السعادة والشقاء يجيشان حيث يجيشان . . فإن صادفتك الشقاء فأطرده ، وإن صادفتك السعادة فأحمد الله !

واستشهد هملوك أليس يقول الشاعر الأمريكي والت ويتمان : «هناك عندي . لا أدري إد ليس له اسم وإنما هو كلمة لم يقلها قائل . إنها ليست في معجم من المعاجم ولا في منطق من المنطق ولا في مثل من الأمثال . . إنها شيء يحوم ولا كالأرض التي أحوم عليها . وجميع الخليفة لديها صديق رؤوم يحيى ويوقظني مساسه . . وما هي بقوضي ولا بقاء ، ولكنها نظام ووحدة واتساق وحياء باقية ، وسعادة» .

ثم ذكر أن لوقريطس قد تحدث عن سعادة الراجين على الشاطئ إذ يبصرون الغرقى يغوصون في الأعماق ، فقال : إن الذين يسمعون بأهوال المصيبة ويلاء لأشقياء وهم ناجون من بلائهم ليسوا بأقوم من سعداء لوقريطس ولا بأرجح في موازين الإنسان

وحلاصة رأيه أن جيتي شاعر الأمان الأكبر قال بعد حياة طويلة قضائها في العمل والفكر والمتعة ، إنه ربما طفر في حياته كلها سعادة أسبوعين !

وهو على هذا النحو يقول إنه ربما رجع إلى ماضي حياته فبدا له منها ما يلوح كأنه سعادة صافية . . ولكنه عني يقين أنه لو مرث يومئذ قليلاً ليمتحن تلك السعادة لألفاها تدوب وتصمحل من بين يديه

«وانا نستمسك بتعريف السعادة ، ولكن اللحظات التي نقاربها فيها - على أقرب المسافات منها - هي اللحظات التي لا نفي فيها بتعريفها» .

هذه زبدة الأقوال التي جمعت زبدة التحارب في حياة أداس هم زبدة الكتاب .
فهل ردتك تعريف بالسعادة؟ وهل زادتك محصيلاً لها واقترباً منها؟ وهل رادت
وهدة فيها واستعناء عنها؟

أما أنا فالذي أعلمه عن السعادة بعد ما احتبرت وقرأت أنها سمادات هي شئون
الحياة المألوفة وليست بسعادة واحدة ، فهي أصناف ويست يصنف واحد ، وهناك
السعادة النفيسة غير الرخيصة التي أنت في حاجة إليها ، كما تدخل المتحر الكبير
فلا تعينك النفيسة عن الرخيصة التي أنت في حاجة إليها ، كما تدخل المتجر
الكبير فلا تعينك أنفس السلع فيه عن سقط المتاع إذا كنت أنت في حاجة يومذاك
إلى سقط المتاع .

ولا تنال السعادة غالية كنت أو رخيصة بالتقسيط! بل لابد أن تنال جملة
واحدة

فالذي يشرب بجرأ من الأكدار لا يقول أنه شرب فحماً واحداً من الماء الصافي ،
وإن كان في ذلك البحر من الأكدار أقذار وأقذار صافيات .
وكذلك الذي يأخذ السعادة مخلوطة بأوشاب الشقاء لا يسمى سعيداً ولا حراً
من سعيد لأن السعادة شراب لا يقبل المزيج .

هذا عن السمادات في شئون الحياة المألوفة ، أما الـ «سعادة» بالأنف واللام فهي
أقصى ما يناله الإنسان .

والسعادة الكبرى فوق مطالب العيش وقوايين الدنيا وشئون الحياة فهي سمة
يوسفها كما قال برتراند رسل واحد من ثلاثة ، قديس ، أو عبقرى ، أو مجنون ، ولا
يوسفها إلا في قليل من اللحظات .

وبعد فحسبها من السعادة في هذا اليوم عيد سعيد .

عيدُ الفطر (١)

من حكمة الأديان أن لأعياد الدينية الكبرى تأتي بعد فترة يتمتع فيها الإنسان في فصلتين من ألزم الفصائل له في حياته الخاصة وحياته العامة ، وهما الصحة وصيبت النفس ، ولعلهما ترجعان في مصدرهما إلى أصل واحد ، وهو حرية الإرادة أو حرية الاختيار .

فالأعياد كما نريدها هي موسم أفراح ، وما من شيء يحق للإنسان أن يغبط به وينطوي من أجله على العرج ، كما يعتبط بارتضاعه عن المرتبة الآلية وارتقائه عن العريضة الحيوانية وبلوغه مرتبة الكرامة التي لا تكون لعبير الإنسان ، وهي كرامة الحرية والقدرة على مقاومة الطبيعة وتغليب العميدة على شح النفس ، فهالك يحق له أن يفرح فرح الإنسان لأنه وجد نفسه الحرة المرينة ، وهي أعز موحود ومفقود .

والعيدان الكبيران في الإسلام هما عيد الأضحى ، وعيد الفطر ، وأكبرهما هو الذي يأتي بعد مشقة الحج والتقرب إلى الله بالقربان المفروض ، وثانيهما هو الذي يأتي بعد شهر الصيام ويحمل به الصائم وقد راض نفسه على معاملة الجوع والظمأ ومخالفة العادات التي جرى عليها في سائر الشهور وكلاهما رمزا واضح إلى فضيلة الصحبة وفضيلة ضبط النفس ، أو إلى الفضيلة الإنسانية الجامعة لكل المصائل ، وهي حرية الاختيار والقدرة على مغالبة الغرائز والأهواء والعادات

وعديماً قال الفاتلون ، إن الصيام صرب من إنكار الذات ، ونعتقد أنهم أخطأوا فيما قالوه ، لأن الصيام أقوى الوسائل لتقرير الذات لا لإنكارها ، ومن وجد إرادته لا يقال عنه بمعنى من المعاني الصحيحة أنه أنكر ذاته وفقد نفسه ، وإنما يقال عنه أنه أثبت ذاته وقرر لها وجودها على أحسن الصور ، وتلك هي الصورة الإنسانية الحرة التي يملك رمام صميرها وعيرتها ، وتستطيع أن تصبر على الشدة التي تريدها لأنها تستطيع أن تريد .

إن إرسال المرء مع الغرائز الحيوانية والشهوات العمياء هو الصباغ الذي يررب بصاحبه ، لأنه يحرب به محرب لألة المندفعة إلى حيث تدفع ، أو لأنه على أحسن ما يكون يحرب محرب الحيوان الذي لا يعرف له ضميراً يعالب العريرة والشهوة ، ولكن المصيلة الإنسانية تولد وتوحد وتشت وتتقرر حين توحد القدرة على الامتناع وتوجد المشيئة التي توارن بين ما تحجم عنه وتسترسل فيه ، والصيام رمز محسوس لهذه القدرة على سلطان الطعام والسراب و سلطان العادة ، المألوفة ، وهما ضربان إلى القدرة على غيرهما ، لأن غيرهما شبيه بهما في مكفحة العريرة أو مكافحة العادة ، ولما احتاج الإنسان إلى ضبط النفس وتعليب الإرادة إلا ليحصع عريرة من العرثر ويخرج على عادة من العادات

إن العيد بعد الصيام عيد له معناه ، ولم يكن مجرد تقليد من التقاليد التي تتكرر بغير معنى ، وربما كان في عصر الحديث كأحوج ما يكون الإنسان إلى المرح بهذا المعنى الخالد ، فإنه عصر قد كثر فيه الانطلاق واستباحة المموعات حتى أوشك ضبط النفس أن يحسب من الرذائل المدمومة ، وحتى حيل إلى بعضهم إن مقياس «العصرية» هو مقياس التحلل من المحظورات والاحترء على المكدرات ، وقد كانت لهذه الثورة الحارمة أعمارها يوم كان الحجر على الناس استبداداً مطبقاً من فوقهم وظلماً لهم بغير حكمة معهومة ، أو يوم كان الإنسان يتمتع بحكم غيره ويتحلل بحكم غيره ، أم أن يطلق بطلافة الجامع لأنه لا يستطيع الامتناع ولا يقرب عنه فمن يكون فصيلة عصرية ولا فصيلة رجعية ، من هو على حقيقته عحر وبكسة و انقلاب بالمثل الأعلى للإنسانية إلى عصور الهمجية ومن قنبها عصور الوحشية ، وما كانت الإباحة المطلقة بحاجة قط إلى تقدم وارتقاء ، وما كان التمرد المطلق عسراً قط على الجماد فضلاً عن الحيوان وفصلاً عن الإنسان ، فإن الفوضى لا عسر فيها على أحد كائناً ما كان ، وإي العسير هو أن نمثك رماماً ونحتفظ بإرادتنا ، ونقر لنوجود الإنسانية صبة تعبر على الألة وصعه الحيوان



سعيد من تلقى المهنة بعيد العطر لأنه يتلقى التهئة بضبط نفسه وتعليب إرادته ، وأسعد ما يكون العالم ، إنساني كله إذا نح بهذه المصيلة العذب من الشقاء

الذي جره إليه بقيصها : وهو العجز عن ضبط النفس والصلال عن معنى الحرية الصحيحة ، وأنها يمكن أن تعني كل شيء إلا القوضى والتمرد والاطلاق بغير وازع من الإرادة ولا حسيب من الصمير

وبحسب أن الالتفات إلى معنى الإرادة والتصححية وضبط النفس له أكثر من جانب واحد في هذه المسألة المحيية حيثما نوجه إلى العالم الإسلامي بالتهئية والتثريك ، وليس للعالم الإسلامي مهمة في مستقبله أهم من استكمال إرادته واستخدامها في وجوهها ، وليس هالك من لسن عليه بين أفضل الطريقتين وأقوم الخطتين ، وإنما هي حطة واحدة لا صلال عنها بين منات الخطط وألوفها ، إن كانت هالك منات من الخطط أو ألوف ، بحيث تكون التصحيحية ومكافحة الشهوات ولأهواء فهالك الحاجة .

وفي وسعنا أن نقول أن نصيب العالم الإسلامي من الحرية يزداد ويتسع ، وإن حاجته إلى صدق الإرادة تزداد بهذه الريادة وتتسع مع هذا الاتساع .

في وسعت أن نقول هذا وفي وسعنا أن نتفاءل به وتطلع إلى ما هو خير منه وثقرب إلى الرحاء ، بل علينا أن نتفاءل وتطلع على الدوام إلى عد خير من اليوم وخير من أمس ، وأن نثق من أعياد المستقبل على طوال أيامه وأعوامه ، ما دعا على ثقة من القدرة على ضبط النفس ومصحاء الإرادة واحتمال العناء .

قل : لسن العبد لمن لسن الحديد ، ونقول : بل العبد لمن لسن الحديد إذا كان الحديد حنة من الحرية لا يلبسها المستضعفون ولا يلبسها العبيد ، ومهما تساورنا الشكوك في حريتنا فلاشك في رجحان نصيب اليوم على نصيب الأمس ، ولا في صلاح هذه الحرية لتتقدم بنا عداً إلى نصيب أوفى من النصيبين ، وأجدر بالتحويل عليه ونص العرائم إليه من حصاة هذين الحيلين المتعاقبين ، ولا بد من صيام أصعب من صيام رمضان ، ومن قرابين أعلى من قرابين عرفات ويوم عرذات ، ومن جهاد أشق من جهاد لجوع والظمأ ، لأن حلة الحرية والكرامة أنفس من حلل الحرير والكتان .

وحس نظر إلى العبد السيد ، بل إلى العبد القريب متمائلين ، ولا يعسر علينا أن نذكر السبب إذا سألنا عنه سائل مستريب ، فهذه أم الشرق أقرب إلى حريتها وكرامتها ما كانت قبل عشر سنين وقبل عشرين سنة ، وحالتها اليوم أدنى إلى

التعاؤ من حالتها قبل سبعين سنة في مطلع القرن الرابع عشر للهجرة المحمدية ،
فماذا لا نتخذ من ماضيها القريب سبباً للرجاء في مستقبلها القريب؟ على أن
الرجاء غنى عن الأسباب كلما سلمت طبيعة الحياة ، فماذا عند الطفل الوليد من
أسباب الرجاء أو أسباب التفاؤل وهو عار صئيل مفتقر إلى الكثير والقليل؟ عنده
طبيعة الحياة وحسبه ما عنده . وعندنا ، ولا نعلو في الادعاء ، قيس من هذه
الطبيعة مرجو البقاء ، ويحق لنا بهذا الأمل أن نستقبل العيد مهنيين ، وأن نتعمى
للعالم الإسلامي ، وللعالم الإسلامي كله ، سنة من أسعد السنين .

العيد الكبير

عيد الأضاحي والقرايين^(١)

إلى هذا اليوم تذهب القروية الساذجة إلى عراف القرية تشكو مرضها أو عقمها أو هجران زوجها أو عشرة حطها ، فيقول لها : « عمل ساحر » ، وإيه قادر على إحباط ذلك العمل وتحويله عنها إلى صحية نمندی بها نفسها .

وكثيراً ما تكون تلك الصحية دجاجة سوداء فاحمة السود ، أو روجاً من حمام الأسود لا شية فيه من بياض أو احتلاف ، وهكذا ينبغي أن يكون لون الصحية السحرية التي يرتضيها الجان ويتقلها الشيطان !

ويتلو العراف تلاوته ويطلق بحوره فيستقل السحر من المرأة الشاككة نساكية إلى الدحاجة السوداء ، وتبرأ المرأة من الداء والشكوى ، بعد اختفاء الدحاجة حيث قدر لها أن تحتفى ، وعالماً ما يكون احتفاؤها في مكان واحد ، هو خوف العراف المظلم الشبيه بها في السوداء !

قبل آلاف السنين كانت الصحية من قبيل هذه الصحية ، وكان الغرض الأكبر منها دفع السوء عن نساء من الناس ، على يد ساحر أو كاهن عراف

وكن هناك نوع آخر من الصحايا التي يدفع بها السوء عمن يحاقونه ويوحسون شراً منه ، وتلك هي الصحايا التي تقدم إلى أرواح الموتى يوم كان الناس يعبدون تلك الأرواح ويذللون لها الطعام ، ويحسبون أنها تجوع وتظمأ وأنها تسكل بهم إذا رأتهم يأكلون ويشربون وهي تنظر إليهم ولا سبيل لها إلى الطعام والشراب

فقد كانوا يومئذ يدحون لها الدبائح ويتقربون إليها بالقرايين دفعاً لسوء ونقمة للحسد والبغمة ، وكذلك كانت قرايين الأرواح على مثال قريين السحر ، وكان العرافون الأقدمون مريجين من السحرة والكهنة .

(١) الهلال سبتمبر ١٩٥٢

ثم ترقى شعور الناس بالضحية وفهمهم لمعناها مع ارتقائهم في التدوين واستعدادهم لطبقة أخرى من الاعتقاد الدينى أرقى من تلك الطبقة الهمجية .

فأصبحت الضحية تحمل الخطيئة عن صاحبها ، وكان مجرد فهم الخطيئة تقدماً في الفهم والشعور بالعقيدة الدينية ، لأن إدراك معنى الخطيئة يستدعى إدراك معنى الضمير والحاسبة على الذنوب ، ومن ثم كان الخلاص من الخطايا أرفع طبقة من دفع السوء الذى يصيب الأبدان ولا يسعدها إلى الضعائر ، وكان كذلك أرفع طبقة من دفع السوء نسب آخر ، وهو أن دفع السوء بما كان يطلب من الشياطين والأرواح الشريرة ، أما تكفير الخطايا فإنما يطلب من رب الخير والصلاح الذى يهبى صاعده عن مقارفة الذنوب .

وارتقى الناس في فهم التصحية بمقدار ارتقائهم في فهم العقيدة الدينية ، فعاء الرمن الذى كان فيه أسياء سى إسرائيل كاشعياء وأرمياء يكتنون الشعب لأنه يعلق رجاءه في الخلاص والغفران على الدنائح والقرايين ، ثم ارتفع السيد المسيح بعقيدة التصحية فوق هذا المرتفع ، فقدم الرحمة والشكر على فديه الأنعام والأموال ، وأوصى ببذل النفس في سبيل الهداية .

أما التصحية في الإسلام فهي شكر وصدقة وإحسان : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾ . ﴿ فَإِذَا وَجِيتُ جَنْبَهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ لى يال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم . . . ﴾ .

فالتصحية الكبرى هي التقوى ، وإنما هذه الصحايا وسيلة من وسائل الشكر والإحسان . وليس من عقائد الإسلام أن الضحية تكفر عن الذنوب ولا أنها ترد القضاء ، ولكنها عطية واجبة تؤدي جانباً من جوانب السر ، وترمز إلى جانب الأكبر منها وهو تصحية الإنسان بنفسه في سبيل الله ، ولهذا قرئت آيات الصحايا بآيات تال دعاء للظلم وبقاء للشعائر والأحكام : ﴿ وَلَوْ لَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْجَمْتُ صَوَامِعُ وَبِيعَ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَبْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَبْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

لقد ارتفعت التصحية من السحر إلى العبادة ، ومن دفع السوء إلى بذل لإحسان
ولا تزال ترتفع مع كل مؤمن بها قادر عليها ، ولا يتحدر من الإيمان بها إنسان له حلاق
وعليه تعويل في شئون قومه أو شئون نوعه الإنساني في حاضره وعقباه .



ويسد لنا أن الأدب الإنساني تتلخص من هذه الناحية في كلمات ثلاث
تجمعها كلها ولا تحتاج إلى مزيد عليها من خارجها وهي كلمات الحق والواجب
والتصحية .

أقلها الحق وأعظمها التصحية ، وبسبهما الواجب وسط معتدل بين طرفين .

من يطلب حقه بطلب شيئاً قصارى ما يقال فيه أنه لا يلام عليه ، ومن
يعمل وجباً مفك بعمل ما هو مطلوب منه محاسب على تركه ، وأما من
يتبرع بالتصحية فهو الذي يرتفع بعمله فوق الحق والواجب ، ويعلو نفسه
فوق مرتبة الحياء والحساب ، أو العمل الذي يحق له والعمل الذي يجب عليه .

وكل تصحية واجبة ، أو تصحية مفروضة ، فهي في الواقع رمر إلى التصحية
العليا التي هي أرفع من الواجبات والمفروض ، لأنها لا تطلب ولا نستوجب ، ولا
يفرضها على الإنسان غير ضميره وشعوره ، إن شاء قام بها وإن لم يشأ لم يعلم أحد
أنه قصر في فصيلة من الفصائل ، إذ كانت التصحية درجة فوق درجات العمل
المطلوب أو العمل الذي يشعر به الآخرون .

وبحسب أن «الإنسانية» قد سمعت كثيراً عن حقوقها وواجباتها في هذه
العصور التي تسمى بالعصور الحديثة أو عصور العلم والحرية .

بل ربما كانت أفة العصر الحديث أو أفة العصر الأحدث ، أنه مشغول باحقوق
دون الواجبات والضحايا ، ولهذا تصبح حقوقه وتسقط واجباته ويذهب ضحية لا
فصل له فيها ، لأنها ضحية المضطر غير المختار .



ويمكن أن يقال إن العصر الذي يشغله حقوقه دون غيرها لا حق له في شيء ،
ولا يصل إلى حق وإن جهد في طلبه ، إذ كان طلب الحقوق وحده دليلاً على ضياع

الحقوق بين الجميع ، وأن الناس قد أسقطوا واحبهم عنهم فأصبح هذا الواجب مطلوباً منهم ، أو أصبحوا جميعاً طالبين مطلوبين .

فيل قديماً : «اطلب الموت توهب لك الحياة» .

وعلى هذا القياس مع بعض الفارق يقل لطلاب الحقوق : «افعلوا الواجب عليكم تجدوا حقوقكم لديكم بغير طلب ، لأن الحقوق لاتضيع حيث تؤدي الواجبات»

خطوة وراء هذه الخطوة ، أو على الأصح أمام هذه الخطوة ، فيصح أن يقال : «صحوا وضحوا فإذا الوجبت مضمون وزيادة ، وإذا الحق من باب أولى مضمون وزيادة . . .» .

والعصر الحديث يسمع هذه الوصية فيستخر منها لأنه يدين بشيء واحد : وهو طلب الحقوق ، ولا يفهم بعد كل ما أصابه أن الإجماع على طلب الحقوق هو الإجماع على ضياع الحقوق!

ولما بحمد الله من المؤمنين بالوصايا التي يركع الموصى بها تحت أقدام المستمعين إليها ، ويترسل إليهم أن يصدقوها ويتقبلوها

كلا ، لا تؤمن بهذه الوصايا لأنها أصبح الوصايا وأرلاها ألا تسمع ولا تنفع ، وإنما الوصية التي تؤمن بها هي الوصية التي لامحيد عنها ، ووصية العصر الذي جرب الحزن بالحقوق فضيعها جميعها هي التصحية ثم التصحية ، فماذا يجرى في الدنيا إن لم تسمع هذه الوصية؟

يجرى شيء «بسيط» لاشك فيه ، فمن لا يصحح باختياره يصحح صحبة للحوادث بغير اختياره ، ولا شكران لصحاب الضرورة ولا ثواب لهم من صمائرهم ولا من التاريخ .

وهنيئاً بعد هذا بالعيد الكبير : عيد الأصحى والقرايين ، فنعنه بشير يغنى عن التذكير ، والبشرى كالذكرى تنفع للمؤمنين .

الصحیة فی مقارنة الأديان (١)

كلمة النصحية بمعناه الحديث كلمة إسلامية لم تعرف بهذا المعنى ، معنى
الفداء ، قبل نزول المرآة الكريمة .

وإنما أخذ معناها الأصيل من «الصحى» موعد تقديم ذبيحة العيد بعد صلاته ،
وظن بعض المتعجلين من المستشرقين المشتغلين بعلم المقارنة بين الأديان أنها من
أجل ذلك تشير إلى أصل قديم لعبادة الشمس في عصر الجاهلية ، وهو - كما يرى
القارئ العارف بالعربية - ظن عاجل من ظنون القشور الواهية ، لأن النصحية كلمة
من كلمات كثيرة تعيد معنى الطعام أو تقديم الدائع في مواعيده من اليوم ، بين
السحور والغداء والعشاء . على حسب أسمائها القديمة التي شاعت من قبل وتشيع
اليوم على كل لسان .

ولكن لمقارنة المتلدة بين الأديان تسفر في أمر «النصحية» عن حقيقة مطردة
نتهى إليها من جميع المقارنات في جميع الشعائر والمعتقدات بين الدين
الإسلامي وسائر الأديان الكبرى المعروفة في أمم الحضارة

وتلك الحقيقة المطردة - كما يعرفها كل مصنف من المسلمين وغير المسلمين - هي
ارتفاع الإسلام شأواً بعيداً فوق أرفع الأفاق التي بلغتها أطوار الدين مع ارتقاء السوء
الإنساني وصلاحه شيئاً فشيئاً للنقدم في شئون العبادة وما يقترن بها من شئون
المعرفة والأخلاق والتربية الاجتماعية .

والمتعجلون من المقارنين بين الأديان لم يسلّموا من الخطأ الدريع فيما انساقوا
إليه - مع لإشاعة - من تقديم الديانات الكتابية على الديانة الإسلامية في معاني
الإيمان وشعائره لأنها متقدمة عليها بتاريخ الدعوة . ولو استقام بهم الرأي لأدركوا
بغير عباد أن اعتبار التطور هنا أولى من اعتبار الأرقام والتقويم ، لأن الزمن لا يسمح

(١) صبر الإسلام مايو ١٩٦٤ .

بظهور دين وانتشاره بعد دين آخر ما لم يكن فيه فصيلة يجدها المقلون على الدين الجديد لم يجدوها قس ذلك فيما تقدم من الأديان .

وهذه الحقيقة المطردة تظهر - كما أسلفنا غير عذ كير - من كل مقارنة بين العقائد الإسلامية وما تقدمها من العقائد في أمهات شعائر الدين وأصوله .

وقد تلخص هذه الأصول في العقيدة الإلهية وعقيدة النبوة وعقيدة الصلاح في النفس الإنسانية بين يدي الله وأنبيائه .

فإن الله في الإسلام كائن سرمدى منزه عن شوائب المادة يدين المسلم بأنه هو رب العالمين أحسن وليس رب لهذه القبيلة أو تلك تختارها ويختاره غير سب بين الأمم كافة ، وليس الإله كذلك رباً لطائفة من الناس ، يرتبط خلاصها بحادث من حوادث التاريخ في بقعة من الأرض ، بين بقاعها التي تبعد أو تقترب منها فيما سبق أو فيما يلحق من الأزمنة .

والنبي في الإسلام دافع إلى الهدى بحجة العقل والضمير ، وليس مجسماً لاستطلاع الغيب ولا وسيطاً لدفع الكورث وحلب المدفع بين الخالق ومخلوقاته .

والنفس البشرية نفس رشيدة مسئولة عن صلاحها وعن خلاصها بما تعمله وتتهص بشعائره في تجارب ديبها أينما كانت وكان مصيرها ومثواها

وهذه الأصول الثلاثة في عقائد الإلهية والنبوة والنفس البشرية هي أهم أركان العبادة في كل ديانة قديمة أو حديثة ، ولا يمتري المنتصف في مكان الفضل والتقدم منها عند المقارنة بها بين الإسلام وسائر الأديان .

ولكن المقارنة بين هذه الأديان في المروع تنتهي كذلك إلى تمييز الإسلام بمثل هذا الفصل ، أو هذا التقدم ، من وجهة البرهة في التفكير والاستقامة على هداية الضمير

ومن هذه الفروع عقيدته «التصحية» أو القربان في الدين الإسلامي وعيما تقدمه من الأديان الكتابية وغير الكتابية

فالدين يعموا أن الإسلام بسحبه محرفه ، أو مشوّهه ، من اليهودية يدركون خطاهم سريعا إذا قارنوا بين معنى التصحية في اليهودية ومعنى التصحية في الدين الخفيف ، لأن القربان والتصحيا كما وردت أحكامها في كتب التوراة والتلمود

تعمل في أطوائها كل بقايا التصحية للأرب ، هي الأديان التي قامت على عبادة الظواهر الطبيعية ، ولا سيما ظواهر الفصول ومواسم الزراعة .

فالقربان عندهم يكون تارة من بواكير الررع وتارة من بواكير الحيوان في مواسم الحصاد أو الإنتاج .

ويكون بالإضافة إلى هذا ، تارة أخرى ، ثمناً للعقران من الله أو « رشوة » لتسكين العصب واستجلاب الرضى والرعية .

بل يكون القربان الأكبر أحياناً طعاماً مقدماً إلى الله لأنه يستسيغه ويشعر بالسرور لاشتغاله ، ويكون في كل حال هدية منتقاة من أطايب الذبيحة لكهان الهيكل وخدامه والمتسبين إليه .

وهي كتب التكوين والخروج والأخبار تفصيل لأبوع هذه القربان لا حاجة بنا إلى استقصائه ، ولكن الكتب الذي حصوه بمواسم الهيكل والذبايح وحقوق الأخبار والكهان حافل بالتفصيلات التي تعرض لبيل أغراض القربان وأجراء الذبيحة التي يرتضيها الرب ومقادير اللحم والشحم التي تفضل على غيرها ولا تحمل لأحد غير الكهنة أو غير الإله الذي يتوسط الكهنة في تقديمها إليه . وهذه فقرات من الإصحاح الأول من كتاب اللاويين قد تستجمع ما يأتي بعدها في سائر الإصحاحات في تلك التفاصيل .

حاء في مطع الإصحاح الأول : « ورعا الرب موسى وكلمه من حيمة الاجتماع قائلاً : كلم نبي إسرائيل وقل لهم إذا قرب إنسان منكم قرباناً للرب من البهائم فمن البقر والعسم تقربون قرابينكم . إن كان قربانه محرقة من البقر فذكراً صحيحاً يقربه إلى باب خيمة الاجتماع ، يقدمه للرضا عنه أمام الرب ويضع يده على رأس المحرقة فيرضى عليه للكفير عنه ، ويذبح العجل أمام الرب ويقرب به هرون أدم وبرشون مستديراً على المذبح الذي لدى باب خيمة الاجتماع ، ويسلح المحرقة ويقطعها إلى قطعها ويحمر به هرون الكاهن داراً على المذبح ويرتبون قطعاً على النار ، ويرتب به هرون الكهنة القطع مع الرأس والشحم فوق الحطب الذي على النار التي على المذبح ، وأما أحشاؤه وأكارعه فيغسلها بماء ويرقد الكاهن الحميم على المذبح رائحة سرور للرب . » إلح إلح .

ومعنى القربان - البدنى - طاهر من هذه المراسم وهذه الخصائص التي ترتبط بالكهانة وبقايا الوثنية .

فإذا قوربت هذه المراسم عما يقابلها من مراسم التصحية الإسلامية تبين منها كل ما هنالك من الفوارق الشاسعة بين صفة القربان ومعناه في الديانتين .

فليس القربان في الإسلام ثمناً للعصران متعلقاً بوساطة الهيكل وكهّانه .

وليس القربان الإسلامى طعاماً لذوّب ولا طعاماً لأحد من الوسطاء بين العبد وربّه باسم الدين .

وليس هذا القربان مرحاً بمظفر الدم واحتفالاً برشه وعمس الأيدي فيه مرصاة للمد أو لربه

وليس فيه معنى من معانى التقريب لنظواهر الطبيعية في مواسمها المعروفة للحصاد أو النتائج .

وآيات القرآن الكريم صريحة في بيان أعراض التقريب ومراسمه وتربيته الإله عن النيل منه طعاماً أو شميماً يرتاح إليه سبحانه وتعالى ، وقد جمعتها آيات من سورة «الحج» في قوله جل وعلا :

﴿ وَلَبَدَنُ جَعَلَهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صِرَافًا وَّإِذَا وَجِيتُ جَنُوبَهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْقَائِمَ وَالْمُعْتَرِّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنْ يَبْأَلُ التَّقْوَى مَكُم كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَيُبَشِّرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

فالقربان الإسلامى بعيد غاية البعد من مراسم الوثنية وشعائر الكهانة ، وليس على المسلم أن يقربه إلى الله ثمناً للعصرن ، ولكنه شكر لله وإحسان إلى الخياص والمحرومين وبرهان على التقوى والصلاح وهما كل ما يطلبه الإله من عبده ، تهره سبحانه وتعالى أن يطلبه سروراً برأئحته أو مرحاً بمظفر الدبائح في دمائها واستئثاراً بالطيبات منها لمن يدعون الوساطة عنده والشفاعة لديه .

وأمام كل صورة من تلك الصور «الجسمية الدموية» صورة يصلحها ونهذها في

شعائر الإسلام تتحقق بها فصيلة التطور في كل رسم من مراسم العبادة فروعها وأصولها ، ويتضح بها ما ذكرناه من عمر هذه السنة الإلهية في تهيئة الإنسان لتقدم من عقيدة إلى عقيدة تمصلها وتعلوها ، ومن شؤء الدين بعد الدين تكمله له وزيادة عليه ، لا سحاً ولا تشويهاً لجواهره وأعرصه ، إذ ليس مما يستقيم به فهم التاريخ ولا فهم الماديات أن يُفسر ظهور الإسلام بعد ظهور الأديان التي سبقتة بغير هذا التفسير .

خواطر العيد بين ألقاظه ومعانيه

كلمة العيد باللغة العربية أصدق الكلمات دلالة عليه . وقيمة هذه الدلالة تتجاوز الأهمية في اللغة إلى الأهمية في علم الإنسان المعروف بالأنثروبولوجي من «أنثروبوس» بمعنى الإنسان في اللغة اليونانية .

فالعيد يستلزم «أولاً» أن يعد في موعد معلوم من كل سنة أو كل موسم ، وعودته مع السنين والمواسم تستلزم وجود مجتمع قد استقر ، واستقرت له علاقته بالأرض والسماء أو بالمكان والزمان ، فهو يعرف مواعيت الررع وقد يعرف التقويم الفلكي الذي يجعل للزرعة ميقاتاً ثابتاً يوافق أوان الررع ، والحصاد بالشهر واليوم ، أو ينخاله قليلاً مع تعافف الأعوام .

وتدل على العيد كلمات كثيرة في اللغات الأخرى ، يدور معناها أحياناً على الموائد والأطعمة ، فإذا قل القائل في تلك اللغات إنه «عيد» فمعنى ذلك أنه شبع من الطعام ونال نهمة من الثمرات والخيرات .

وهي سورة المائدة من القرآن الكريم آيات تلخص هذه المعاني ، وتجمع خصائص العيد بعودته ووفرة مأكوله ومشروبه ، وتحدده بين الأجيال السابقة واللاحقة ، ومعنى بها قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ الْخَوَارِجُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِذْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَدَّ قَدْ صَدَقْنَا وَنَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ . قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾

أصل الأعياد

وتكاد الأعياد جميعاً ترجع بأصولها إلى مواسم الزراعة والرق ، ولكن الأديان

ترتقى بها من أصولها المادية إلى المعاني الإلهية والروحانية وتصمى عليها صفة من المقاصد العليا تناسب تقدم الإنسان

فسو إسرائيل مثلاً قد تعودوا أن يحتفلوا بعيد الفصح ، وعيد لمظال وغيرهما من أعياد النواكبر والمخضولات ، وقد كان عيد الفصح يوافق موعد الاعتدال الربيعي من شهر نيسان الذى يتوسط بين شهرى مارس وإبريل موعد الربيع ، وكان عيد المظال يوافق ليلة السر من شهر تشرى ، أى الشهر العاشر الذى يتوسط بين شهرى سبتمبر وأكتوبر موعد الحصاد ، ثم تطور الاحتفال بهذين العيدين فأصبح لهما معنى الخلاص ، ومعنى النعمة لإنهية حسب موقعهما من حوادث التاريخ التى بهم بنى إسرائيل .

وكانوا يحتفلون بعيد النور فى نحو الخامس والعشرين من شهر ديسمبر كل سنة ، لأنه الموعد الذى يقصر فيه الليل ويطول النهار ويعتبرونه آية على انتصار النور وبتحار الظلام ، ثم احتفوا به لأنه وافق تريح إقامة الهيكل ومجدد العبادة فيه بعد تعطيله فى زمن أنطيوخس أيفس من سنة ١٦٨ إلى سنة ١٦٥ قبل الميلاد ، ولا يزالون إذا احتفوا به يحتفلون من هداياه عاقد العتب وأوراق الكرم

ولم يزل هذا العيد مرعياً بين الأمم القديمة من غير سى إسرائيل ، وكان الاحتفال به مصحوباً ببعض العادات التى لا يقرها الدين ، فلما دان الوثنيون بالمسيحية ثبتوا على عاداتهم الأولى فى الاحتفال بهذا اليوم كل عام ، وحولهم آباء الكنيسة عنه إلى الاحتفال بذكرى مولد السيد المسيح .

عيد الفطر وعيد الأضحى

والعيدان الإسلاميان - وهما عيد الفطر وعيد الأضحى - كان لهما أصل قديم قبل الإسلام ، فكان العرب يصومون من أسوع إلى أسوعين فى موعد الانقلاب الصيفى الذى يوافق شهر القيط أو شهر رمضان ، وكانوا يحجون إلى الكعبة ويقدمون القرابين إلى أربابهم عند مصرفهم من الطواف ، وكانوا يؤدون شعائر الحج عراة إلا من الكساء الذى يخصصه البدن للحج فى جو مكة ، فلما جاء الإسلام هذب هذين العيدين وأزال عنهما بقايا الصفة المادية وحولهما إلى العبادة الإلهية ، وساعد على زوال الأثر المادى منهما أن الإسلام حرم النفس

وهو زيادة شهور على السنة كل بضعة أعوام لإعادة التاريخ القمري إلى الحساب الشمسي الذي تنتظم عليه مواسم الزراعة والتجارة ، ولم يحرم الإسلام الناس لأنه يمنع تنظيم التقويم على الحساب الصحيح ، فإنه بخلاف ذلك بوجب على الإنسان أن يعلم عدد السنين والحساب ، ولكنه حرمه لأن المحمين الذين كانوا يتولونه جعلوه تجارة على حسب الهوى ، وعبثوا بالريادة والنقص في الأيام لإساحة القتال المحرم في بعض الشهور ، وطمعوا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً كما جاء في القرآن الكريم ، فلم يطل السوء الذي كان متبعاً في الجاهلية ، أصبح شهر رمضان يأتي في غير أوان الرمضاء ، ويعود في كل فصل من فصول السنة ، ويعالج الصائم فيه طول النهار كما يعالج قصره كما دار من الصيف إلى الشتاء ، وانفصل ما بينه وبين مواسم الزراعة ومواعيد النتاج ، ومنها قد استمد اسمه القديم ، وربما وصفوه قديماً فقالوا إنه هو الشهر الباطل والشهر الباقى ، وكلاهما يدل على كيل السوائل والألبان وعلى وفرة السائج في الأبل ، من قولهم باقة متاق أو باقى أى كثيرة الولادة ، حسنة الساج .

الأعياد في الشرق الأقصى

ويوشك أن يكون تاريخ الأعياد على هذا النحو عاماً في بلاد الشرق الأوسط والبلاد التي استمدت منها العلم بالملك وحساب التقاويم ، وأهمها أعياد النيرور والكهارة عند الفرس والبابليين .

أما بلاد الشرق الأقصى فلها مواعيدها ومواسمها ، ولها كذلك أعيادها الطبيعية ، تصاف إليها أعياد الأنهار والتطهير وزيارة الهيب كل على حسب الأقاليم ، ويعرف أهل الهند نوعاً من الأعياد غير هذا النوع الذي يرتبط بمواسم الزرع والحصاد ، وتلك هي أعياد السلامة أو الشفاء من الآفات والشرور ، ويسمى العيد من هذه الأعياد بالميلاد وتزدى فيه فرائض الشكر على نجاة الأعطال خاصة من آفات الجدري والحصبة وسائر الأمراض التي ينحش منها على الصغار فالت السيدة سنكلر ستيفنسن في كتابها عن شعائر الولادة المزدوجة : «إن عيد السلامة من الجدري أحب الأعياد . . .» وترافبه كاتبة هذه السطور ، فترى إلى جانب الشهر سوقاً منظمة تزدهم هنا وهناك بالمناظر المرحية ، وتدللاً فيها المربا

والألاعيب وألوان المأكهة ، وتشاهد على الطريق التى تؤدى إلى المحراب جموع الأسر اللطاف من الأمهات والأطفال فى أحسن ثيابهم التى تتلاقى فيها الألوان الرقراء ، والخضراء ، والحمراء . وعدد محراب تتقدم الأمهات السعيدات اللائى نجا أبنائهن من الآفات فيضعن تحت أقدام الربة الحارسة قرايين المأكهة أو الزهر ، أو الحسوب ، أو الملح ، أو الزيت ، أو العسل ، أو الورد النقى ، ومنهم من تزيد هتتقرب إلى الربة بتمثال صغير مطلة جميلة رمز الربوبية والسيادة ، إذ كل رب يحب المطلة ومنهم من تقدم للربة تمثال عين من المضة شكراً لحياة الطفل من الرمد ، وقد ترى هنالك طملاً يورن بالسكر أو التمر وهاء لندى فى أثناء المرض ، والطريف فى الأمر أن سادن المحراب يأخذ شطر القربان ويوزع الشطر الآخر على الأطفال الحاضرين .

وفى الشرق الأوسط

هذه المواسم لها بطائر فى الشرق الأوسط عند توبييت لأولياء الدين يحرسون الأطفال خاصة فى اعتقاد أباء الأقدم . وقد رأينا بعضهم يؤجر حلقة شعر الطفل إلى أن يحلق فى مقام الوصى المقصود ، ويملاً راحتى الطفل الصغير حسب اقتداره سكرًا ، أو تمرًا ، أو حبوبًا ، أو ما شاكل ذلك من الهدايا والألطف ، وبعضها يكال بهذا الكيل مرتين : مرة لشيوخ التابوت ومرة للمقرء والمتسولين .

الأعياد فى الهند

ومن الأعياد التى يحتفل بها أهل الهند عيد الأداة أو الآلة التى يستخدمها الصانع فى صناعته ، وتحسب أن ابهاتما الكبير قد استطاع الاعتماد على هذه العادة القديمة لتقديس المعول ، فأصبح بفضل علماء من أعلام البلاد .

ولا يظن أحد أن أعياد السلامة مقصورة على أهل الهند وعلى السلامة من الأوبئة والآفات ، فإننا إذا رجعنا إلى تسميه العيد فى العرب باليوم المقدس - Holiday علمنا أن الكلمة مأخوذة من يوم السلامة بمعناها الحرفى الأصيل ، فإن كلمة «هولى» مشتقة من الصحة والتمام ، ويقال صححه أى جبر كسره وأعادته سيمًا كما كان . وما هو معنى السلام نفسه إن لم يكن مرجعه إلى مثل هذا المعنى .

الطبيعة البشرية والأعياد

لقد صدق من قل : إن الإنسان إنسان حيث كان وزن الطبيعة البشرية واحدة
في كل مكان و زمان فإذا حمد الناس السلامة والسلام في بلد بعيد أو قريب ،
فكن على ثقة أنهم يحمّدونها في كل بلد متصل به أو متصل عنه ، وإذا كانت
الأديان قد حولت الخيرات المحتفل بها في الأعياد من خير الخوف والجلد إلى خير
النفس والتصميم فكذلك قد تحول معنى السلامة من تمام الحسد إلى تمام الروح
وخير تهئة في العيد ، كيما كان العيد ، أن تسمى للناس الخير والسلامة
بمعناها معا - خير الأبدان وخير الأرواح والأذهان
وكل عام وأنتم بخير وسلام .

خواطر في رأس السنة الهجرية

وضعت التقويمات الملكية لضبط الزمن وتقييد مواعيده وتطويعه للحساب الذي تجري عليه الشهور والسنوات ، ولا بد أن تجري عليه الأحقاب والدهور
ثم يأبى الزمن إلا أن ينفى عبرته على كل معتبر ويأبى إلا أن تكون التقويمات نفسها مظهراً لهذه العرة الخالدة التي لا حدود لعره سواها .
وعبرته الدائمة ألا دوام!

وكذلك تحدثنا التقويمات التي وضعت «لضبط» الزمن المعبر المتغير ، وتقييده بوقت وإجاءه بلجام .

فما من تقويم من تلك التقويمات الملكية بقي اليوم على الحساب الذي وضع عليه .

ومن شاء تمام العرة فتمامها العجيب أن التقويم الذي بقي كما كان يوم وضعه هو التقويم الذي يقال إنه غير صالح للقاء ، لأنه لا يصلح لحساب أعمال المعيشة ومواسم الزرع والحصاد .

ودلك هو تقويم السنة الهجرية!

فممد وضع هذا التقويم لم يتغير له نظام ، وقد تغير بعده نظام كل تقويم قديم

الشمس بعد القمر

كان مدار التقاويم جميعاً على السنة القمرية ، وكان اسم الشهر في أكثر اللغات مشتقاً من القمر ، وكان تقسيم الأسابيع مأخوذاً من التربيعات القمرية ، ثم جاء تقسيم الأيام على حسب أيام الأسبوع ، ثم جاء الأسبوع جامعاً لكواكب السماء الكبرى في تقدير الأقدمين ، فكان منه يوم لزحل ويوم للشمس ويوم للقمر ويوم للمريخ ويوم لعطارد ويوم للمشتري ويوم للزهرة ، وانتظم للأقدمين بذلك حساب السبعات وحساب الأربعات ، وهما العددان المقدسان في الأرض والسماء .

ثم كسر النوع الإنساني من أفق وتطلع من فوقه إلى أفق الشمس الكبرى ، ولكنه حاول أن يفرص عليها المسير كما يريد أو كما أرادته العقيدة التي يؤمن بها في ترتيب مواسمه وأعياده وتوقيت عباداته وشعائره فلم يزل مع الشمس في خلاف إلى هذه الساعة ، وقد يبلغ به الغرور أن يرقب منها التحول على هواه ، لولا أنها لا تستطيع ذلك وإن صلب عريتها عليه لأنه هو نفسه لا يسبق على هواه ، فإن سمعت الشمس لأصحاب هذا المذهب غصب عليها أصحاب مذهبين أو ثلاثة مذاهب تنكره وتحكم عليه بالكفر والجحود ، وسبيلها إذن أن تصطحب الصمم عن نداء الجميع ، وتطلع حيث تطلع أو تدور حيث تدور إلى يوم يتفقون ، ولعله قريب من يوم يبعثون!

ومد ستة عشر قرناً لم يتقدم بنو آدم وحواء خطوة واحدة في طريق الاتفاق .
ففي القرن الثالث للميلاد حاول أحبار الدين أن يوفقوا بين مواعيد الأرض والسما فلم يفلحوا .

وفي هذا القرن العشرين يستقل السلطان من أحبار الدين إلى مجالس النواب أو إلى المجالس الدوية ، فيحبط القرار الذي أصدره أقدم المجالس البرلمانية في العالم ، كما حبط القرار الذي أصدرته عصبة الأمم رحمها الله ، وتظل الأرض في ناحية والسما في ناحية كلما وقع الخلاف على مواعيد الأعياد .

خلاف وأشكال

وحسباً صبح الدييون والديويون الذين أعرضوا عن القرارات في العصر الحديث كما أعرض أسلافهم عن قرارات العصر القديم ، فإنهم لو قبلوها واتبعوها لم يستعنوا بعدسة أو ستين عن إعادة البحث في تعديدها لأسباب غير الأسباب التي كانت تدعو الفلكيين ولأحبار ورجال السياسة إلى تعديل التقويمات في العصور العابرة .

فقد كان الأقدمون يعلمون التقويمات ليجبروا كسر الساعات الماقصة ويمنعوا رحف القصول مع الأرملة المتطاولة ، ولكنهم اليوم يظرون في تعديل السنة الشمسية خلل في تركيبها وتصميم أحرانها لايسهل التعاضى عنه في عصر تحسب فيه جداول الطيران بالدقيقة والثانية ، وتنقسم فيه المواسم على حسب الإحصاءات الشهرية والأسبوعية ، وينشأ من فرق يوم فيه حلل حظير يصعب تداركه على أصحاب الأعمال .

فإذا حسينا السنة شهرين فعندنا من أشهر الشتاء شهران عدة أيامهما تسعة وحمسون يوماً في بعض السنوات وستون يوماً في سنوات أخرى وهما يناير وفبراير ، وعندنا من أشهر الصيف شهران عدة أيامهما اثنان وستون يوماً في جميع السنين هما يوليو وأغسطس .

وإذا حسبا السنة نصفين ، فنصفها الأول مائة وواحد وثمانون يوماً تارة ، ومائة واثنان وثمانون يوماً تارة أخرى ، ونصفها لأحبر مائة وأربعة وثمانون يوماً في جميع السنين .

ومثل هذه التفاوت لا يتظم عليه الحساب الدقيق في عصر السرعة وعصر الإحصاءات

تقويم عالمي

ولهذا أشعت منذ أربع وعشرين سنة جماعة كبرى تسمى جماعة التقويم العالمية تلخ فروعها بين أقطار الأرض نحو الأربعين ، وتقترح تقويمياً يبدأ في كل سنة بيوم الأحد ويمكن تطبيقه في سنة يبدأ على التقويم الجريجوري أيضاً بهذا اليوم ، وأقرب هذه السنوات سنة ١٩٥٦ ، ثم سنة ١٩٦١ وهي عند الجماعة أصلح للابتداء بها ريثما تستعد المطابع والهيئات المختلفة للعمل بالتعديدين الجديد

وحلاصة التعديدين الجديد أن يوضع بعد اليوم الثلاثين من شهر ديسمبر يوم يسمى اليوم العالمي وأن تنتهي كل سنة بيوم سبت وتبدأ كل سنة بيوم أحد ويضاف يوم عالمي آخر بعد آخر شهر يونيو في السنوات الكبيسة ، ثم يأتي تقسيم الشهور بحيث يشتمل كل شهر على سنة وعشرين يوماً ، تصاف إليها أيام الأحاد ، وتصح السنة على هذا مقسمة إلى أربعة أقسام كل قسم منها واحد وتسعون يوماً بلا اختلاف في مواعيد عودة الأيام .

فقد شاعت فكرة هذا التقويم من الآن إلى سنة ١٩٦١ ، فلا طن أن ابتداء السنوات بيوم الأحد يحول دون قبول التعديل عند الأمم التي لاتدين بالمسيحية ، فإن يوم الأحد لم يكن يوم المسيحية من قديم لرمس ، وإنما كان يوم الشمس على التقويم البابلي قبل موسى ومولد المسيح عليهما السلام .

السنة الهجرية في أمان

وبين هذه المقترحات والمشاررات تدرج السنة الهجرية خطواتها الأولى في سلام وأمان وتقضى عبدة الزمن - أبى العبر - أن يحيثها السلام والأمان من حيث حيف عليها الروال لأنها لاتسلط مع الناس مسلطهم فى مواعيد الرراع وجناة الأموال .
فالسنة الهجرية تأمن اليوم التعديل والتبديل لأنها سنة روحانية لاترتبط بمواسم المعيشة وأوقات الدواوين .

فالناس لا يرتقبون اليوم ربيعاً الأول وربيعاً الثانى ، لأنهما موسم الربيع ، ولا يرتقبون حمادى ، لأولى وجمادى الثانية لأنهما موسم القر الذى يجمد فيه الماء ، ولا يرتقبون رمضان لأنه يجىء بالرمضاء أو شوالاً لأنه شهر تشيل فيه الإبل أو تشال فيه الخيام .

كلا . بل هم يرتقبون شهرها التاسع لأنه شهر الصيام ويرتقبون شهرها العاشر لأنهم يحجون فيه ويعيدون فيه عيدهم الكبير .

عبدة وتذكرة

وما دام فى الدنيا أناس يصومون ويحجون فيها سنة هجرية لا تبالى شيئاً بنظام التقويم ، ولا تحناح إلى اختراع قمر تدور عيه لأن هذا القمر القديم متبقى له مطالعه ومعاربه ، وتبقى له علاقاته بالمد والجزر ، ورحلات البر والبحر والهواء ، ولن يستعنى عن أسماء شهور تدور معه حيث يدور .

وقد اعتصمت التقاويم بضرورات المعاش فلم تعصمها من التعديل والتبديل بين حبل وحبل .

فإذا بقيت السنة الهجرية بعير تعديل ولا تسديل فعلها تذكر الناس من جيل إلى جيل أن الفلك الروحاني أثبت من أفلاك الأحساد والأموال .

شعبان وتصف شعبان (١)

كان شعبان يسمى في الجاهلية «عادلاً» من العذل أى الحرية ، لأنه كان يأتى على الدوام بعد الربيع وفى أوائل الصيف ، ومادة «عذل» كمادة «لدع» تعيد معنى الحرارة فى اللغة العربية .

ثم علب عليه اسم شعبان قبل الإسلام بحومائى سنة ، وقيل فى سبب هذه التسمية إن القبائل تشعب فيه طلباً للماء والغارة ، لأن شهر رجب الذى قبله شهر حرام يتمتع فيه القتال والحركة ، فإذا انتهى خفت القبائل إلى حيث تجد الماء والغنيمة وفين إنه سمي شعبان لأن أعواد البسات تشعب فيه ، فهو موسم الرعى والارتعاد ، ولهذا زعم الزاعمون أن شجرة الحياة تتجدد فى وسطه ، فيسقط منها الورق الدابل وينمو الورق الأخضر ويردهر ، وتنقضى أعمار وتبتدى أعمار .

وقد كان شعبان يعود فى موعده من فصول السنة كل عام ، لأن عرب الجاهلية كانوا يضيفون تسعة شهور إلى كل أربع وعشرين سنة فتبقى الشهور فى مواعيدها من الفصول ، وتصبح السنة قمرية شمسية بهذا التقويم .

وكانوا يعتمدون أول الأمر على أحبار اليهود فى حساب أيام الكيس ، ثم تولى هذه الحسية بنو مالك بن كنانة ، وجعلوا يتصرفون على هواهم فى التأخير والتقديم لبسأو الأشهر الحرام إلى ما بعدها ، أى ليؤجلوا الأشهر التى يحرم فيها القتال ويستريحوا الحرب متى طابت لهم ، وفى هذا يقول عمرو بن قيس :

ألسن الناشئين إلى معد شهور الحن نجعلها حراما

وهذا خطأ من الشاعر ، لأنهم كانوا يؤجلون شهور الحن كثيراً لتطول أيام القتال وتقصّر أيام السلام ، وقد يرجثون القتال فى موسم التجارة ثم يعودون إليه كرتين .

ولهذا حرم الإسلام السىء معاً لتصرف الأهواء فى مواقيت الشهور ، ومبها مواقيت الحج والصيام .

إلا أننا ينبغي أن نذكر في تاريخ شهر شعبان حقيقتين لا رمثين لتفسير بعض ما قيل عن خصائصه وكرامته ، وهاتان الحقيقتان هما
أولاً - أنه كان شهر السمو والإيراق .

ثانياً - أن اليهود كانوا يتولون أمر السبيء قديماً في الجاهلية ، وكانوا يحلطون بين حصنن الشهر في السنة العربية والسنة العبرية ، عامدين أو عبر عامدين



كنت القارئ لمفصل لدعاء نصف شعبان قبل العاشرة من عمري ، وكان العرف الشائع أن دعاء الصبي أقرب إلى القبول ، لأنه يرى القلب لم تتمرس طبيعته بشروق الطمع وردائل الشهوات .

وكانت معرفة القراءة مادرة فيمن لم يلعو العاشرة ، فكان طلاب الدعاء يتسابقون إلى دعوتي لتلاوته عليهم وقيدتهم في ترديده ، فحفظته لأنني كنت أتله وأعيد تلاوته مرات .

وقد كان عجبى يرداد كلما سمعت القوم يتحدثون عن بركات نصف شعبان ، وكنت مع العجب الذي يردد سنة بعد سنة أشفاق أن أعرف الحقيقة القاطعة في هذه الأقاويل الشائعة ، فراعني أن أسمع من أستاذنا الحدوى - عالم أسوان وفقهه في ذلك العصر - أن كل ما يقال بدعة مكروهة وطهر تفسير جزء «عم» للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، فقرأت فيه تأييداً لذلك ووجدته يقول : «وأما ما يفعله الكثير من الناس من أن الليلة المباركة التي يفرق فيها كل أمر حكيم هي ليلة النصف من شعبان وأن الأمور التي تفرق فيها هي الأرزاق والأعمار . . فهو من الجرأة على الكلام في العيب بعير حجة قاطعة ، وليس من الجائز لنا أن نعتقد بشيء من ذلك ما لم يرد به خبر متواتر عن المعصوم عليه السلام ، ومثل ذلك لم يرد لاضطراب الروايات وضعف أغصانها وكذب الكثير منها» .

وفتوى لأستاذ الإمام هي القول الراجع بين الفقهاء ، فمن المنفق عليه أن الأحاديث التي أشار إليها ضعيفة أو مكذوبة ، وأن أصحاب مالك وأبى حنيفة كرهوا تلك البدعة التي أحاطت بأخبار ليلة نصف شعبان وأعرضوا عنها ، ولم يقل عنها أحد من أصحاب الأئمة الآخرين

وخشي عن القول أن الدعاء إلى الله في كل وقت أو كل ليلة أمر لا بدعة فيه ولا عيار عليه ، وإنما يكره الفقهاء ما يقال عن شجرة الحياة وكتاتة الأرزاق والأعمار وتعلق ذلك بموعده محدود وشعائره مرسومة ، ثم يؤثر منها شيء عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه والتابعين .

أما الاحتفال «الرسمي» باليلة فقد شاع واشتهر في أيام الدولة الماطمية ، وهي كما يعلم القراء عطيمة العناية بالمواسم والأعياد ، وإن لم يكن للدعاء المحفوظ شأن معلود في ذلك الاحتفال .

وكان من عاداتهم إذا اقترب النصف من شهر شعبان أن تحمل إلى دار القاصي ستون شمعة من حواصل الخليفة ، زنة كل شمعة منها سدن قطر ، ليركب بها في موكبه إلى مطرة الخليفة ، ويحرح بين صفين من الخاصة في كل صف منهما ثلاثون شمعة ، وفي ركابه المؤدبون يعلنون الذكر والدعاء ، ومن حاشيته كبار رجال الدولة وأمامهم الشموع والشارات ، حتى ينتهوا إلى الباب المعروف بباب الرمدة من أبواب قصر الخلافة ، فتفتح فيه طاعة يرى منها وجه الخليفة ويده وهو يومئ بالسلام ، ويتقدم للخطبة أمام الجامع الأنور «باب البحر» ثم يختم خطبته بالدعاء للخليفة ، ويعقبه خطباء من الجامع لأرهر وجامع المحاكم ، ثم يعود القاصي في موكبه إلى دار الوزير ، وتضاء لمصابيح ويوقد التنور وفيه ألف وخمسمائة براق . وبأسفله نحو مائة قديل .

وكنوا يصنعون مثل ذلك في أول رجب ونصفه وأول شعبان ، وكله من المراكب التي يركب فيها القاصي ولا يحضرها الخليفة بموكبه ، بل يحسن فيها للتحية كما تقدم .

ما أقرب التاريخ وما أبعد!

قلما يحظر على السال أن قصة الشجرة التي أضفها الرواة إلى أخبار نصف شعبان قد مضى عليها أكثر من ثلاثين قرناً قبل أن تصل إلينا وتشيع بيننا .

وقلم يحظر على البال أن تلك الشجرة ست في ظلال الأقدمين من أهل بابل قبل أن يسمع بها اليهود ، وقبل أن ينقلها رواة «الإسرائيليات» إلى العامة من أهل البلاد الإسلامية .

فما أقرب التاريخ وما أبعد ، وما أصدق القائلين إنه يعيد نفسه ، وإننا نعيد في أعياد وغير أعياد!

كان البابليون يحتفلون برأس السنة الزراعية ، وكانوا يتحولون للحياة شجرة تدل وتردهر كل عام على السنة المعهودة في الأشجار ، وكانوا يحسبون أن الأعمار قرعة نصيب من يتعرب إلى الأرباب ، وتخطئ من ينسى القربان ونوميلة .

ودخل الاحتفال بعيد القرعة في عداد المواسم الإسرائيلية ، وسمى بعيد «الفورم» أي النصيب ، وقيل في سبب الاحتمال به إنه ذكرى لنحة اليهود من كيد هامان بشفاعة إستير ومردحاي .

ومن الثابت أن هذا العيد طارئ على التقاليد الإسرائيلية ، وأنه أضيف إلى الأعياد على أيام المكابيين ، وجاء في كتاب «المجلة» التي تشرح التلمود كلام عن التقاليد امرعية في الفصل الرابع عشر منها فحواء : إن المأثورات كلها قد تمت على أيدي ثمانية وأربعين نبياً منهم «الأباء الأولون» وسع نيات منهم إستير . . وإنها لم يزد عليها بعد هؤلاء الأنبياء والسيات إلا ثلاثة قصة إستير في عيد الفورم ولا تخفى المشاهدة بين إستير ومردحاي ، وبين الربيع عشتار ومردوح في تاريخ البابليين الأقدمين .

ولقد شاع الكلام على تحديد المقادير والأرزاق في جميع الأعياد اليهودية ، وهي عيد الفصح ، وعيد العصرة ، وعيد المظال ، وعيد رأس السنة «روش ها شه» بعد أن كان ذلك مقصوراً على العيد الأخير

وإنما رجعا إلى الأقاويل عن نصف شعبان في بعض كتبها التي لا يحب أن يذكرها وجدناهم يقولون : ومن أسمائها ليلة الحياة كما رواه إسحاق بن راهويه بسنده عن وهب بن منبه رحمه الله تعالى قال : «كانت ليلة النصف من شعبان لم يمض أحد بين العرب والعشاء لا اشتعال ملك الموت بقبض الصكاك من رب العالمين» .

وقال غيره . «ومن أسمائها ليلة التكفير» . . وهذا خلط بين هذا اليوم ويوم «الكبوري» أي التكفير عند الإسرائيليين .

ومثل هذا الخلط كثير في الروايات التي ينتهي سندها إلى أصحاب الإسرائيليات ، وأجمع الثقات على أنه سند ضعيف أو مكذوب

وعند التصفية يرجع بنا طائفة من قصص شعبان إلى فترة الجاهلية ، وترجع بنا طائفة غيرها إلى نراث إسرائيل ، وترجع بنا الطائفة الأخرى مرحلة أسبق وأغرق إلى قحوم المجاهل البابلية .

والخلال بين ، والحرام بين .

وأما الحلال الذي لا اعتراض عليه من هذا كله فهو التوجه إلى الله بدعاء خالص لا يشوبه حساب القوعة ولا حساب الصكاك!

في الحرم (١)

ركبنا البحر ونحن لا نعلم على التحقيق أين نلحق صاحب الجلالة الملك عبدالعزيز آل سعود ، لأن برنامج الرحلة لا يشير إلى المكان .

ومن الجائز أن يكون في حدة ، لأنها المباءة الذي ينتقل منه جلالته إلى يثرب ، وعروسة ، وبلالته قصر منيف في أرباضها هو القصر المعروف بقصر حزام ومن الجائز أن يكون في مكة المكرمة ، لأن ليثرب يصل إلى حدة قبل سفر جلالته بيومين

فإذا كان استقبال البعثة الملكية في حدة فلا عمرة ولا إحرام ، وإذا كان الاستقبال في مكة المكرمة ، فقد وجبت العمرة ووجب الإحرام .

ولكن كيف السبيل إلى الإحرام؟ وكيف السبيل إلى حلق المحيط في الشتاء ، وإن كان الجو في مكة أدفاً من جو القاهرة بدرجات؟

، نني ألس الصوف شتاءً وصيفاً منذ خمس وعشرين سنة . إذا صح أن «الصوفي» منسوب إلى الصوف ، فليس على طهر الأرض رجل أحق مني بهذه الصفة ، فكيف السبيل إلى التحلل من هذه الصفة التي لصقت بالموصوف ، فلا فكك منها ولا فرار؟

جاءنا النبأ في عرض البحر بأن صاحب لخاللة عاهل الحرية العربية يستقبنا في قصره العامر مكة المكرمة ، فويها العديّة ، ووي أصحاب الإحرام ، وم يبق معي بملايسه عير لأسناد عوض السحراوي بك وزير مصر المفاوض في المملكة السعودية ، لأن الإحرام لا يلزمه ، وإنما يلزمه أب يطوف بالكعبة عند معادرة مكة طواف الوداع .

وقد حصصت الحكومة السعودية قصر «الكندرة» بجدة لتعديل الملابس قبل المسير إلى الحرم الشريف . وتولى الإشراف على راحه لبعثه ومن معها صاحب

(١) الهامش من ١٢٢ .

المعالى الشيخ يوسف ياسين وزير الدولة ، وصاحب العرة الأستاذ فؤاد شاكر مدير المطبوعات فلما تهيأ أصحابنا للسفر تحرك الراكب بالسيارات ، فكان من نصيبى الركوب فى سيارة الوزير الموضى عوض السحراوى بك ، وهو رجل عاضل عرف أهل البلاد كما عرفه أهلها ، فاتفقت بينه وبينهم صلات المودة والرمالة ، وارتفعت بينهم الكلفة كل الارتفاع فيما عدا المراسم التى تفصى بها المعاملات الدولية ، وقد عبر الطريق مرات فعلمت منه كل ما احتجت إلى علمه من معاملها وأحوالها ، ووصلت إلى مكة براد غير قليل من المعرفة العملية بالحجاز .

هذه جبال مكة .

وهذا جبل حراء .

بلغناه بعد ساعة ونصف ساعة من السير المعتدل فى السيارة ، ومررنا إليه بمناظر شيرة يرى أمثالها فى بلادنا ، ولا سيما بلدى الذى نشأت فيه ، وأعنى به أموان .
سأل ويطاح ومراع يتخللها العشب فى الأودية والسهوح ، وبعض الجبال يليح لنا بالوان المعدن التى يحتويها ، وبعض البطاح يسم على مجرى الماء فى بطنه القريب

كل ذلك مأثور يرى أمثاله حيث نشأنا على مقربة من صحراء أسون ، أما حديد كل ابضة على السطر وعلى النفس فهو عر حراء .

هو قمة مرتفعة فى جبل ، كأنما يبب بناء على شكل القبة المستطيلة إلى الأعلى ، ولكنها عسيرة المرتقى لا يبلغها المصعد فيها إلا من شعاب وراء شعاب

أخبرنى من صعوده أنهم كانوا يعانون شديد العناء من وعورة مرتقه وأن القليل من الناس يصعد فى صعوده إلى نهايته العليا ، حيث كان الرسول ﷺ يتنسك ويستهل إلى الله .

والحق أن الرؤية غير السماع .

والحق أن ما يلمحه السطر فى نظرة خاطفة قد يعيا الكاتب بوصفه فى الصحف والأسفار .

والحق أنا قرأنا ما قرأنا عن الحبل وعن العار ، ثم نظرنا إليهم ، فعلمنا أن القراءة قد تركت الكثير من فراع النفس لتملأه هذه النظرة العابرة فى الطريق .

مرربا به عابرين كما كان سكان اللاد يرون به غادين رائحين فى غمة من ذلك
الرحل المرء الذى يأوى إليه ويسكن إلى عاره .

كانوا فى عمله عن ذلك الرجل المتوحد فى سبل التوحيد ، كما كان العالم كله
فى مثل تلك العلة وفى مثل تلك الظلمات .

ولكنها كانت ساعات يرتبط بها تاريخ أحقاب ودهور ، فلما انقصت مدتها لم
يبق فى لأرض المعمورة غافل عن صيف ذلك العار ، أو جاهل بأثار تلك الساعات
التي كان يقصها فيه بالليل والنهار .

وحسبك نظرة واحدة إلى الجبل ومرتفعه لتحيط بعص الإحاطة بتلك النوازع
المرهونة التي كانت تهص بالرسول ﷺ فى صباه إلى ذروة تلك القمة مرات بعد
مرات وأياماً بعد أيام .

كل مرة فى تلك المرات تترجم لنا عن قوة تلك البواعث المحتدمة فى نفسه
الشريفة ، وترينا كيف بلغت هذه البواعث المحتدمة أن تدفع بالعالم كله فى طريق
غير طريقه ، وإلى غاية لم تكن له من قبل فى حساب ، فلولا لاعح من الشوق
الإلهى يهص بالروح والجسد نهضة لا تصر عليها طبيعة البشر لما توالى تلك
المساعد ولا تماق ذلك العكوف .

إن النوازع التي حملت الرسول ﷺ إلى مرتقى الغار هى السر الروحانى الذى
استجاش العالم كله بعد ذلك فى حركة دافقة تقحم السدود وتحرق الأسوار
واحدود

وكل أولئك كان فى نشأته الأولى حاطراً فى قلب رجل وحيد يصرد فى سبل
التوحيد .

وكل ذلك السبل الحارف إنما تجمع قطرات قطرات عند هذه القمة حالية
كل ذلك كان فى هذا المكان

وعبرنا خاشعين مطرقين ، وسكتنا لأن مهبط الوحي هنالك قد ألهمنا السرب ،
مكان آخر عند الكعبة كان له فى قلوبنا مثل هذا الخشوع ومثل هذا الرجوع مع
الزم إلى أيام الرسالة وأيام الجهاد .

ذلك هو موقف الدعاء الذي كان الرسول ﷺ يحسار الوقوف فيه كلما طاف بالكعبة ودعا إلى الله .

أنت هنا لا ريب في مقام قام فيه ذلك الرسول الكريم ، ذلك السر السرمدي الذي تتعلق به مقادير التاريخ ومصائر الأمم وصمائر بني الإنسان ، ذلك الإنسان الذي يقترن اسمه في صوات الألوف بعد الألوف باسم خالق الكون العظيم .

أنت هنا تقف حيث وقف وتدعو حيث دعا وتسطر حيث تطر وتحمم بعفسك حيث حام في البيقة لا في الماس .

قيل لنا . هنا يستجاب الدعاء

قلنا نعم . ها أخلق مكان أن يستجاب فيه دعاء ، وألهم الله كلا من الواقفين معاً أن يدعو دعاءه وأن يستجمع في الدنوب والآخرة رجاءه ، وساق إلى ساس هذه الدعوات فدعوت : اللهم أولس ما أريد لى وللتاس ، واحمل الخير كل الخير فيما أريد لى وللدس ، وما بى من حاجة في الحياة إذا استجيب هذا الدعاء .

مظر ثالث أحدي بحمائه في جوار البيت الحرام ، وهو منظر الحمام الأمن الرادع في ذلك المقام .

لا يخشى ولا يفرع ، بل بطل طوال نهاره في طواف على الأرض وطواف على الهواء .

وأعجب ما سمعت ورأيت أنه يطوف حول الكعبة ولا يعلو عليها فرادى ولا جماعات .

وقد سمعت بهذه الخاصة في حمام البيت قبل أن أراه ، فلما رأيته في طواف العمرة وطواف الوداع تحريت أن أتعقبه في كل مذهب من مذاهب مطاره ، فإذا هو كما سمعت يطوف ولا يتعدى المطاف إلى العور .

أدب الناس في هذا المقام المهيب تعرف سره ونعرف مصدر الوحي منه إلى القلوب الأدمية

أما أدب الطير في هذا المقام فسرره عند الله .

وأمن الحمام يذكرني بأمن السائيل في حوار الكعبة وحوار المسجد الحرام

إنهم ليتدفعون حور الراتريس ولا يتحملون كما يتحمل الطير فيقطع بعضهم ررق
نعص ، ولا يدعون لمن يريد أن يعطى صييل العطاء .

وهم في أمان لا يهابون ولا يصيبهم الأذى من الشرطه في حور البيت الذي
يأمن فيه الخائفون .

وحسن هذا وإيم الله .

وحسن أن يأمن المساكين كل سطوة في حرم الأمان ، وأحسن منه أن يجيئهم
الوارع من القلوب والعقول لا من العصي والسياط .

فإن كان في تهافت السائلين على صفائر الدنيا عصاصة فإن في هذا الأمان
لقداسة البيت العتيق ، وإنه لمن القداسة أن يتعلم الإنسان كيف يجلس من
يسألونه ، وهو يدعو الله ويرجو أن يستجاب .

الفصل الرابع الإسلام والمسلمون

الإسلام والعرب

كتاب الإسلام والعرب Islam and The Arabs تأليف الأستاذ روم لاندو Rome Landau واحد من هذه الكتب التي تصدر في اللغات الأوربية بالعشرات عن الإسلام والعرب منذ الحرب العالمية الثانية ، ويسلك مؤلفوها في الوصف والتعليق مسلكاً يخالف المسلك الذي درج عليه سيطرة التبشير والمطامع السياسية منذ أوائل القرن التاسع عشر ، ولن تزال له بقية تتردد من حير إلى حير ، في بعض الكتب «الرسمية» والشبهية بالرسمية .

فكتب التبشير والسياسة وغيرها تتعمد التشهير والبحث عن مساوئ في رويئها عن أحوال الأمم الإسلامية والعربية ، وقرأوها يتطلبون منها هذا التشهير ويستريحون إليه على سة التقليد التي توارثوها من القرون الوسطى .

وعلى غير هذا النمط يكتب الرحالون ولعلقون من المحدثين الذين نلصح في مصنفاتهم بروعاً إلى الإيصاد وعراضاً عن التلقيق ، فيهم يحاسنون أنفسهم ويشعرون بمحاسبة قرائهم الذين شأوا بعد الحرب العالمية متشككين في كن تقليد قديم ، ومنه تقليد الطعن في الأمم الأخرى ، وبخاصة أبناء الأمم الشرقية والغرباء عن أوربة على التعميم .

وبعري هذا التحول إلى أسباب متنوعة ، كما ذكرنا في مقال سابق : منها شوء تلك الطبقة الحديثة من القراء المتحررين من سلطان رعمائهم لأقدمين ، ولتشككين في كن عرف موروث يمليه أولئك الرعماء .

ومن أسباب التحول عبء لأسلوب العلمى وما يلزمه من مباحج التقرير والتحقيق في عقول الكتاب والقراء على السراء . فإن هذه المناهج طبيعتها تفضع من يصطعبها ولا يتعري الأمانة في اتاعها ، وقد يحرض الناشرون كما يحرض الكتاب على سمعة بصاعتهم بين حمهرة القراء العصريين وهم يطلون غير ما يطلبه قراء لتبشير وسماصرة الاستعمار .

ومن أهم أسباب التحول سهولة الانتقال بين الأقطار والاختلاط بين الأمم ، وصعوبة الإصرار على الأكاذيب في عالم تتردد عليه أخبار الإذاعة والصحافة من كل طرف وعلى كل صيغة ، ويوجد فيه المروحون والمفندون لكل دعوة يتنازعها الأضداد المخلصون وغير المخلصين ، ومثل هذا العالم يفرض على روائه ومؤرخيه أسلوباً لم يكن بمفروض على الرواة والمؤرخين في العصور الغابرة ، إذ كان الراوية يلقى الخبر وتمضى عليه الشهور والأعوام قبل أن يسعه من يؤيده أو ينفيه ، وربما قيل يومئذ عند تكذيب الخبر أن الأمور خليقة أن تتبدل في مدى الشهور والأعوام فلا يشهد المؤرخ في هذه السنة ما كان يشهده سابقوه قبل نضع سنوات .

وأهم أسباب التحول في أسلوب الرواة والمعلقين على أنباء الشرق والإسلام أو الأمم الشرقية والإسلامية قد أصبحت في عداد القوى العالمية التي يحسب لها حسابها ويتحرج المسئولون وأصحاب الآراء من إعصابها والإساءة إليها . وقد يكون الإنصاف ثمحيصاً علمياً ومصلحة سياسية في وقت واحد ، فلا يعدم من الناشرين والقراء من يقبلون عليه ، ولا يعدم من الساسة ودوى الآراء من يشجعونه ويميلون إليه .

إلا أن هذا التحول يوشك أن يحدد عن الحقيقة كلها إن لم نعرف دلالة غير مبالغ في قيمته وأثره .

فليس قراء العرب جمعاً منصعين ، وليس كل المصنفين منهم مشغولين بأمور الشرق والإسلام وقد يكون في عالم الشر والتأليف عندهم من يعصبهم أنصاف المسلمين والعرب على التحصيص دون أساء الأمم الشرقية الأخرى ، الذين يدينون بغير الإسلام ويتكلمون بغير العربية ، وقد يعتمد هؤلاء المعرضون إلى الإنكار الصامت إذا أنسوا بين القراء نفوراً من الإنكار الصريح والافتراء المكشوف .

وينبغي أن نذكر جيداً أن الصهيونية بالمرصاد ، وأنها هي ميادين الشر والإعلان الخطبوط لانسلم من أيديه للطاهرة والخفية شعبية من شعب الثقافة ، أو الدعوة هي القارات الأوربية والآسيوية والأفريقية ، ولا يخال أن هذا العدو اللثيم يرى خبراً واحداً مرصياً عن العرب والإسلام ثم يتركه للشر ولإذاعة إذا تمكن من طمسه وإحفاء معالمه ، وهذا هو الإنكار الصامت الذي يعيه وبحسبه ميسراً للصهيونية

العالمية وأدائها في دور الشر والإعلان إذ هو ولا ريب أيسر عليها من الحملة الصريحة التي لا تتيسر في جميع الأوقات حيث تقصى السياسة أحياناً بحاملة العرب وأصدقائهم في المعاملات الدولية .

وبين أيدينا مراجع شتى نلمس فيها أصابع هذا العدو اللثيم بيعة واضحة تنم على أصحابها ، ولا يعقل أن تحدث عفو ولا أن تنسب إلى مصدر غير المصادر الصهيونية

فمن المراجع التي ظهرت حديثاً موسوعه شامله لأصول الأدب والبلاغة في اللغة الفرنسية ، تتوسع في الكلام عن حركات الثقافة ومدرس الشعر بين القرن الخامس للميلاد ومتصف هذه القرن العشرين ، ولكنها تقتصب القول فجأة كلم انتهى بها البحث إلى فضل الأدب الأندلسي على مدارس الشعر والنماء في أقاليم فرنسا الجنوبية ، فتسكت عن كل إشارة إلى هذه الفصل ولو من قبل الإمام بمختلف الأقاويل ، وتذكر كن أثر مظهر أو مفهوم لا ما كان فيه اعتراف بوجود العرب لأندلسيين ، أو المشابهة بين منظوماتهم وأعنيهم وبين منظومات الفرسيين الجوبيين ، وقد اتفقت الآراء مع هذا على تأثير الأدب العربي في الأوزان والموضوعات ، بل في الأزياء والتساريت التي شاعت بين طائفة «التربادور» المشهورين ، ولم تكن لهم شهرة قبل ظهور الآداب الأندلسية ، وشيوع طرائفها في العزل والتشبيب .

ويشعر القارئ بمثل هذا الاقتصاب ، كلما وصل البحث إلى أثر الفلسفة أو الفقه أو مقتضات الحضارة وفنونها ، مع إقحام أسماء اليهود لغير مناسبة هنا وهناك كما تفحم الرقعة المستعارة ، وربما كان منهم تلاميذ معترفون بتلمذتهم لأساتذتهم الأندلسيين المسلمين .

وإذا احتاجت هذه العداوة الملبسوسة وأمثالها من العداوات الصامتة إلى كشف وتبويه فلا حاجة بالحملات الصريحة إلى من يكشفها ويته إلىها ، وكل ما يصح أن يقال عنها في هذا الصدد ، أنها اليوم أقل وأهون من نظائرها قبل الجيوش الحاصر ، وأنها عرصة للاتهام والريبة بين نخبة القراء

ولا يحفى أن معرفتنا بالعالم لانعسيا عن معرفة العالم بها ، وأما كنما أحسنا بأعائن فى مشتبك العلاقات العالمية وجب علينا ان نثبت من مكانا بين الأمم ، على أساس الصهم والإنصاف ، وبخاصة فى تلك المسائل التى يرتبط بها كيان الأمة كمسائل العقيدة والثقافة ، ومسائل التراث السلفى والعابة التى نناق إليها على هدايته فى مسجيا إلى المصير المتطور .

فإذا نظرنا إلى كتابات الأقوام العربية عافقصارى ما يفهمه من برعة الإنصاف عند بعضهم أن هالك استعداداً لقبول صورته صحيحة عن الإسلام يؤديها بحى ولا يملك أحد عيبره أن يحسن أدءها ، وأما لابران مطالبين بالعمل الحثيث لدفع مكائد الصامتين والناطقين من أعدائنا ، وقد صنعوا كثيراً ولم نكد نحن نصنع شيئاً يحبط مكائدهم ، كأنما تلقى العبء كله على أولئك الكتاب العرباء الذين نزعوا منزع الإنصاف .

ونعود إلى الكتاب موضوع هذا المقاد ، فنوهيه كل حقه من التفريط من وجهة النظر الإسلامية إذ نقول : إنه على مثال الكتب التى يؤلفها العرباء عن الإسلام وتنوب عن كتابة أهله فى إبراز محاسنه ونقصية تاريخه من شوائب المسخ والتشويه ، لو جاز للمسلم أن يقعوا بالإمانة دون لأصالة فى هذا المقصد على التحصيص ، وهو لا يجوز ولا ترصيه لنفسها أمة تألف أن تكون عالة على العرباء فى أمر من الأمور ، ويدفع منها أمر الدفاع عن العقيدة والتاريخ .

فالاستاذ «روم لاندو» مثل صالح للمستشرقين الذين يقيمون فى البلاد الإسلامية ويدكرون لها عهد الوفاء بحقوق الصلبة والأصيافة ، وهو فى هذه الخصلة عسى نفيض أولئك الطرأق المسحرين للاستعمار والتشهير الذين يرزرون بلادنا ويعيشون فيها كأنهم يطيلون الإقامة فيها ليجثوا من شىء واحد - وهو أسباب التشهير - لا انتقاص وحمايا الميوب والمثائب ، يبالعون فيما يجدونه منها ويختلقون ما لم يجدوه ، ومهما تكن من حسنة لهذه البلاد هى مستترة عنهم أو هم يسترونها بأبديهم ، ولا يدكرونها - إن دكروها - ، لا ليحملوها سبيلاً للمدمة وحجة مومة لدعوى الإنصاف والاستقلال .

والأستاذ «لاندو» جولة رحالة يطوف حول حواص لارض ويجعل الله قبلة له في مطافه ، كما قال في كتابه الذي أودعه خلاصة رحلاته وزياراته وسماه «الله وجهة مطافى» God is my Adventure ولم يدع فيه معتقداً من معتقدات الأمم يوصل إلى الله إلا اتبعه ومضى معه سيلخ به غاية مداه .

وهذا الكتاب عن الإسلام والعرب ثمرة السنوات التى قصاها رائراً أو مقيماً فى البلاد الأفريقية الإسلامية وأحصها بلاد المغرب الأقصى حيث أطال المقام وكافاه ملكها بوسام العلويين تنويهاً بموقعه من التاريخ الإسلامى والقضايا الإسلامية ، وأوحز ما يقال عن هذا الموقف أنه شمل الماصى والحاضر فى عرض القضايا والمشكلات ، وأنه يعرض منها وجهة النظر الإسلامية على أوقاها فإن لم تكن وجهة نظره تفصيلاتها فهو يبدى تلك التفاصيل ولا يخفى شيئاً منها .

ولقد ألم فى هذا الكتاب بعجالة حسنة عن شأة الإسلام وسيرة النبى وبلاعة القرآن ووسائل نشر الإسلام ومشكلات العالم الإسلامى السياسية والفكرية ، ومنها مشكلة الفلسفة اليونانية والعرق الدينية وحروب الدول ثم حروب الصليبيين وغزوات الاستعمار والصهيوية ، وقد ندل على منهج الكتاب بنقل طائفة من آرائه نكتفى بترجمتها عن التعليق عليها ، لأنها نكاد أن تكون تردداً لأراء المسلمين فى مناقشة حصوم الإسلام ، وقل فيها ما يلحق القارئ المسلم إلى تصحيح أو استدراك .

قال عن إخلص النبى ﷺ فى دعوته : «كان محمد مقطوراً على التدبى مستعداً بطبيعته لرسالة الإصلاح التى تلقاها فى رؤاه ومشاهداته الخفية ، وكان مع هذه الفطرة الروحانية رجلاً عملياً يقطن بهد يهته لما انطوى عليه المزاج العربى من قوة وضعف ، ويدرك أن الأمانة واحدة فى تلقىهم آداب الإصلاح سواء منهم أهل المدن والوبر من الحاضرة والبدية ، وقد تأصل فى روعه إيمان بالتوحيد لا يشقى اليهود ولا المصابعة ، وعريمة صادقة على استئصال كل أثر للوثنية التى فشت فى الأمة العربية ، وقد كانت رسالة محمد مهمة هائلة جسيمة لا يقدم عليها إنسان يصدر فى أعماله عن بواعث المنفعة والأنانية ، ويرجو أن يحققها بمجهوداته أو بمساعده الداتية ، ولا شك الشئ فى بطلان تلك الأكاذيب الشى ترعم أن الآيات

المواعدة إليه وببينة بواب من الصريح كانت تساه بين آونة وأخرى ، إذ ليس في وسع المصائب بتلك البوابات أن يتلقى فيها نسقاً من الكلام له ما للقرآن من العمق وانتظام التركيب وإن الإحلاص الذي أدى به رسالته ، واليقين الراسخ في نفوس أتباعه بصدقه ، والامتحان الذي أحسرت به رسالته مدى السنين والأجيال ، لهن من الدلائل على أن محمداً - ﷺ - براء من شبهه الخداع والادعاء ، وما حدث قط أن حادعاً مدعياً - ولو كان من أصحاب العقيدة - بعيت له رسالة بعد دهاه ، وهذا هو الإسلام باق بعد ثلاثة عشر قرناً يحدث إليه المؤمنين عاماً بعد عام ، وقد حلا التاريخ من مثل واحد على دعوى من دعاوى الخداع أفلحت في إقامة دولة شامخة وحضارة من أنبل الحضارات الإنسانية .

وقال المؤلف يعلل للقراء العربيين حيرتهم في فهم بلاغة القرآن وسر ذلك السلطان العجيب الذي يملك به قلوب المسلمين ، فكانت خلاصة تعليله : إن الغربيين يجهلون مناسبات النزول وإن ترتيب الآيات على حسب مواقعها سبب من أسباب حيرة القارئ العربي عند تلاوة القرآن ، وأن السور المطوية تنزلت في أحرى أيام النسي وفيها بيان الأصول الشرعية وقواعد الحكم وتدبير الشئون العامة ، مما تتسعه القارئ العربي فلا ينشط لقراءته وإنما يدرك هذا القارئ بلاغة الكتب في قصار السور التي تنزلت بمكة وحتوت من حماسة الروح ما هو جدير بالانتباه والتوقير .

وقال عن الحروب الصليبية : «إن أوربة كانت بحاجة إلى منقش لما أصابها من الفقر والمرض وجاءتها الدفعة إلى الهجرة من المغرب إلى المشرق من قبل شعوب السورمان والفرنجية ، ويبدو أن الوحدة الأوربية إنما كانت حركة من حركات الاستعمار تفضي فيها البواعث الاقتصادية إلى جانب البواعث الدينية ، وهذا قيل ، إن الحروب الصليبية كانت لها أثرها في ترويح التجارة بين المشرق والمغرب فالتجارة قد كانت حلقة أن تروح بغير هذه الوسيلة .

إن الصليبيين وجدوا في المشرق حضارة مادية وثقافية أروع مما كانوا يعهدونه في معيشتهم ، وعادوا إلى بلادهم بثمرات شتى من الحصار المادية كالسكر والخير والعطور والأبارير والأصباغ ، كما أخذوا من المشرق تأسيس نظام العملة الذهبية ،

ومعاملات المصارف ، واستفاد العرب والشرق معاً من تبادل الخطط في المسائل
الحربية

على أن العرب لم يستفيدوا كثيراً من اتصالهم بالصلبيين ، وكل ما عرفوه من
معاملتهم أنهم جشعون متعصبون مهوسون بحون القتال والندمير .

وقال عن فضل المسلمين في حياة الفلسفة : «إن قصة كشف المسلمين عن
الفلسفة اليونانية ونقشها إلى العرب لها فصل من أجمل فصول التقدم الإنساني
من الجهالة إلى المعرفة ، وما كانت المخطوطات اليونانية بالشئ السادر في أرجاء
القارة الأوربية قبل ذلك ، ولكن تلك المخطوطات كانت - أو معظمها - مدفونة مسية
يحلبها العار في الأديرة ، ويقول لنا روجر باكون إن حفظ تلك الودائع بلع بهم
الجهل وقلة الاكتراث ألا يلتفتوا إليها ولم تكرر لها ترجمات لاتبنيه ، وقد امتازت
القسطنطينية على رومة بوفرة هذه المخطوطات ومنها - ومن بلاد فارس - عرف العرب
ما عرفوه عن الإغريق .

وقال عن مسألة العرب واليهود : «إن العرب - وهم ساميون - قد عاشوا في سلام
مع اليهود الساميين وعطفوا عليهم لما ابتلوا به من مظالم النازية ، ولكنهم لا يفهمون
لماذا يقصى عليهم وهم شعب فقير أن يحملو وحدهم أعباء الغيرة الإنشائية التي
يصطنعها الغرب لرعاية اليهود» .

هذه أمثلة من نظرة الكاتب إلى العالم الإسلامي في مسائل متعددة تستدئ من
تاريخه منذ صدر الإسلام إلى تاريخه الحاضر عند منتصف القرن العشرين ، ولسنا
نوليها قيمة فوق قيمتها حين نقول : إنها دليل من أدلة الاستعداد لاستماع القوم
عن الإسلام من مصادر غير مصادر التشهير والاستعمار ، وإن أحق المصادر أن
يستمع إليه العالم شرقاً وغرباً هو المصدر الإسلامي بكفالة أهله وذويه ، فليس من
إنصاف المسلمين لأنفسهم أن يجوع إنصافهم كله عند القوم معاملة من الغرباء .

فهم الإسلام (١)

اسم هذا الكتاب يدل على المقصود منه وهو فهم الإسلام وفهمه للعربيين ،
وهم كما يرى المؤلف لأحوج إلى فهم هذا الدين منهم إلى فهم الأديان الأخرى ،
لأن الأسباب التاريخية والسياسية معاً قد تضاعفت على تحريفه وتشويه صورته فيما
نقل إليهم عنه قديماً وحديثاً ، ولأنه على خلاف غيره من الديانات الشرقية يشتمل
على مزيج من العقائد السماوية والديوية لا تتمحور هذا الأمر في تلك الديانات .

والكتاب الذي بين أيدي منقول إلى الإنجليزية من اللغة الفرنسية لمؤلفه فريثيوف
شويون Frithjof Schuon الذي تخصص لشرح العقائد الشرقية في غير هذا الكتاب .
ويقول الحكيم الهندي (أناندا كومار سوامي) أنه واحد من فئة قليلة بين الأوروبيين قادر
على نقل العقائد الشرقية إلى العربيين نقلاً صحيحاً غير مشوب بالعرض وسوء
الفهم ويقول الشاعر الإنجليزي المعاصر (إليوت) بعد اطلاعه على كتابه الأول إنه لم
يصادف قبله كتاباً مثله في علم المقارنة بين الديانات الشرقية والغربية .

وبرى من مطالعة هذا الكتاب أن الحكيم الهندي والشاعر الإنجليزي على صواب
فيما وصفاه المؤلف من القدرة على شرح العقائد الشرقية بغير انحراف مقصود ،
ولكننا لانحاله يشرحها لعامة القراء ولا لطلاب المعلومات والمادة «المدرسية» من
تلك الشروح ، فإنه يكتب بأسلوب الفيلسوف المتصوف حين يكتب للفلاسفة
المتصوفين ، ولا يهمه إحصاء الآراء والأقوال والوقائع كما يهمه المقادير منها إلى
«روح العقيدة» كما يبحث عنها طلاب الدراسات فيما وراء الطسعة ، أو طلاب
النأمل في العلوم للترقي من إلى «المجهول» الذي يستعان عليه بالسطر المحرد
ولا يستعان عليه بالمطلق والمعرفة العلمية .

وتظهر طريقته في الشرح من تفرقة الجملة بين نظرة المسيحية ونظرة الإسلام
إلى الإنسان

(١) لأهر نوفمبر ١٩٦٣

فالمسيحية صمد تقدم الإرادة على العقل ، والإسلام عنده يقدم العقل على الإرادة .

ويأتى كل فارق جوهري بعد ذلك من هذا الفارق «الأساسى» بين العقيدتين .
فإرادة الإنسان تسقطه وتحوجه إلى غفران الخطيئة بالفداء
وعقل الإنسان يوجب عليه أن يدرك عمله ويدرك التسعة التى تلزمه بين يدي
ربه ، ثم يلهمه كيف يلتمس الهداية بالطريق الذى حوله وكيف يلتصقها بمعونة الله
وعقيدة المسلم والمسيحى فى المعجزات تابعة لهذا الاختلاف بين تقدم الإرادة
على العقل وتقدم العقل على الإرادة

فالمعجزة هى الوسيلة الكبرى لتقرير إرادة الله أمام إرادة الإنسان
ولكن الاعتماد على العقل كان للعلم بإرادة الله من طريق غير طريق المعجزات ،
وإن كان لا يعلق الباب على هذه الطريق .

والمشهور عن المسلم أنه «قدرى» وإن بالغ أثناء الغرب فى الخلط بين إيمان المسلم
بالمقدر وبين سلب الإرادة وتجريد الإنسان من صفة الحرية

أما رأى الأمثل فى «القدرية الإسلامية» فهو أن هذه القدرية هى النتيجة
«المعقولة» لإدراك المسلم أنه «غير إله» وبعبارة من فكرة الحول أو المزج بين الوجود
الإنسانى والوجود الإلهى ، ومن لم يكن إليها فليس هو المقدر لمقاديره ، ولا افتراق
عنده بين الإيمان بالقدر والإيمان بالقدر الإلهية وإحدى لوزمها القدرة على العلم بما
يكون والقدرة على العلم بما سيعمله الإنسان قبل أن يعلمه ، وقبل أن يعمل .

ومن لوازم تقدم العقل على الإرادة أن تكون معجزة الإسلام هى المعجزة التى
تناسب المخلوق الذى يوصف بالحيوان الساطق وهى معجزة الخطاب بالكلم الإلهى
البلغ ، وهو القرآن

ولا بد لمقارئ ، إذا أراد أن يفهم رسالة القرآن أن يذكر أنه كتاب فرائض وكتاب
إنقاذ وكتاب هداية ، وأن الإعجاز فيه لا يرجع إلى فصاحة اللفظ وحدها ولا إلى
سوى البيان وحده ، ولكنه يرجع إلى إيجاز اللفظ وإيجاز البيان بما يعجز كل كلام
«غير إلهى» عن الإيجاز بمثله .

ثم يلخص المؤلف رسالة انقرآن من الوجهة الفلسفية بأنها رسالة الإيمان والإسلام والإحسان ، وهيها - مع حطاب العقل بالمعنى المكرية - مصامين تعطوى فى تلك المعانى ولكن المحاطب بها يفهمها كما يسعى أن يفهم المحارب والرموز الخفية ، وهو باب للاجتهاد فى فهم الحقائق العبية على نهج المتصوفة وأصحاب الإشارات والتقاليد .

ومن تصحيحات المؤلف لما يفهم العربيون عن المصائب «الشخصية» التى اتصف بها النبى ﷺ أن مصدر الخطأ فى هذا الفهم تصورهم للرسول الدينى على صورة واحدة هى صورة بود والسيد المسيح ، وهى صورة تحيط بها هالة من غير هذا العالم الإنسانى لما فيها من محو الذات ومحو العلاقات الدنيوية .

لكن «محمداً» ﷺ لم تكرر تحتوبه هذه الهالة من غير العالم الإنسانى ، لأنه رسول شريعة وصاحب جهاد فى هذه الحياة وفى الحياة الأخرى ، ومثاله من صور الرسالة الدينية ، إنما هى صورة إبراهيم وموسى عليهما السلام ، مع تفاوت الأفق والمجال .

وللمؤلف تفسير «فلسفى» بعظمة النبى ﷺ كما توحى بها العقيدة الإسلامية .

فهو صلوات الله عليه مثال «الإنسان الكامل» الذى لا يرتقى بعده للدرجات الكمال فى بنى الإنسان ، إلا أنه ليس بمثال الإنسان الكامل وحسب على هذا الاعتبار ، بل هو كذلك مثال الإنسان القديم أو الإنسان الخالد على صورة الله .

وهذا كان كمال الإنسان جامعاً له بين الفصائل السماوية والفصائل الأرضية فالقدم أو الخلود منط الفصائل منذ الأزل قبل أن تنفصل السماء ولأرض وقبل أن تعرف للكائنات فكرة سماوية مقابلة للفكرة الأرضية ، أو فكرة أرضية مقابلة للفكرة السماوية .

وبين هاتين الصورتين ، صورة الإنسان الكامل وصورة الإنسان القديم يقيم المسند عظمة سبه صلوات الله عليه ، ويتحله مثلاً للإنسانية فى صميمها على صورة غير الصورة التى يتمثلها العربيون ببودا أو للسيد المسيح

يقول المؤلف بعد سطور فى مفتح كلامه عن النبى ﷺ «إن الذى يطبع

اطلاعه وأهيب على سيرة محمد من مصادرها ،بأنثورة ترتفع أمامه ثلاثة عناصر قد
تندحص في هذه الأصنام الثلاث : التقوى ،وإخهاد والمرءة ، ومفهوم تقوه أنها حب
الله بكل قلبه شعوراً به بما يعلو على الوجود وبالصدق المحض والإحلاص السليم ،
وهي صفة عامة معروضة في جميع الرسل الإلهيين ، تذكر بصفة خاصة لأنها في
الإسلام عنوان مقدم على الجواروحاسي فيه

«وهالك عزوات جهته ، وهي إذا عزلناها عن صورة العف في أخروب تدب
على عظمه روحانية فوق درع الإنسانية ، ثم العلاقات الزوجية وهي منعقد مقرر إلى
الحياة ، لأرضية الاجتماعية ولا نريد أن نقول الديوية العالمية ولم تخل هذه
العلاقات من ناحيتها السياسية التي يريد بها معناها المقدس عند النظر إلى إقامة
مدينة الله على الأرض ، وقد برزت في حياة محمد دلالات كافية على العفة
والرأفة بخاصة في أيام الشباب حين يشتد جماح الشهوات»

ثم يقول «ويصحح أن يقال إن روح النبي قد جنت من السبل والصفاء ، وأولهما
يجمع القوة والكرم ، وثانيهما يجمع القناعة والاستقامة ، وقد كان مسلك السى في
طعامه ومأكله مسلك القانع القويم ، ومسلكه مع النساء مسلك الكرم والمرءة» .

والكتاب يذور على فصول أربعة بعد المقدمة ، أولها عن الإسلام ،
وثانيها عن القرآن ، وثالثها عن السى ، ورابعها عن الطريق ، وهو عنوان شامل
لكلامه عن التصوف الإسلامى مع المقارنة به وبين تصوف اليهود وتصوف
المسيحيين .

ونحسب أن القارئ قد ألمح معاً أن مؤلف الكتاب ينتهى بالمصطلح الأخير عن
التصوف إلى مجاله الراسع الذى ينطلق فيه قلعه على مدى عده ولائحة كثيراً
عن فهمه عن طريقته في فهم الإسلام إذ قل إن بتكلم في التصوف كما يتكلم
في مذهب يؤيده ويجمع إليه ، وبه - إن لم يكن مزيداً به حاسحاً إليه - فليس له
تأييد لغيره من المذاهب أكبر من هذا التأييد .

فالتصوف الذى يشرحه المؤلف في قصه الأخير هو التصوف الذى يتمير بالنظر
إلى الحياة الإنسانية بصره «الإيجاب» والثبوت ولا يطمح بالعائد المتصوف إلى غاية
بهايتها القناء وفقدان وعى الوجود .

والله - جن وعلا - هو في هذه التصوف حقيقة الحقائق التي يطل ما عداها بطلان الوهم الرائل ، وبكن البطلان ها عبر البطل الرائف الذي ينمى إليه نقيص الملكوت الإلهي في مملكة الشيطان .

فالكائنات الموحدة في عالم المادة تزول وتتولد من معدن الزوال ، ولكنها ليست ندس ولا زيف ولا هي بالبطلان الممسوخ في أصل التكوين ، لأن العابد المتصوف ينبغي أن يرى فيها معرضاً لجمال الله وبقدرة الله ولشبهة الله ، وينبغي أن تكون عده صورة لتحلي الخالق حيث لا مطمع للمخلوق إلى ما فوقها من آيات الجلال والجمال ، فإن يطمع وراء هذا المطمح ، من عرف في كل شيء آية تدل على الواحد لأحد الذي لا تدركه الأبصار .

ولا ينسى الكاتب تفرقه بين الإرادة والعقل حين يعرض لنفوارق بين تصوف المسيحية وتصوف الإسلام ، فإن كلماته في هذا الباب هي أجمع ما عرص له في كتابه من وجوه المقارنة بين الديانتين ، مع احترامه لكل منهما احترام السماحة والإصاف .

وهذه هي عبارته التي حتم بها هذه الخلاصة لبحثه الشائق

«إذا كان الإنسان إرادة فالله محبة» .

«وإذا كان الإنسان عقلاً فالله حق» .

«وحين يكون الإنسان إرادة يسقط بلا قوة ولا ناصر ، تكون محبة الله هي الخلاص» .

«وحين يكون الإنسان عقلاً يصل ويتحبط في الظلمات ، والله هو نور الحق الذي بهديه ، لأنه من شأن المعرفة أن نهض بالعقل إلى دروة الحق الذي يفيض عليها الصفاء والحرية» .

«إن الحب الإلهي يحقق ، بقاذه بأن يتربل إليها ليرفعها»

أما الحق الإلهي فإنما يحقق إبقاده بأن يعيد عقلنا الطبيعي إلى مصدره فوق الطبيعة ، وهو عائد من ثم إلى صفائه الأول ، وإلى الأفق الذي يترك فيه أن الحقيقة المطلقة هي كل شيء وأن العوارض دونه ليسب بشيء

الإسلام بين أديان الأهم^(١)

يقول مؤلف هذا الكتاب^(٢) في مقدمته إنه يود لو استطاع الناس أحياناً أن يطوروا إلى جلائل الأمور ودقائقها بأعين غيرهم فإنهم يصححون بسلث آرائهم وآراء غيرهم ، ويرون تلك الأمور من جوانبها المتعددة فلا يقفون منها عند جانب واحد .

ويقول في تلث المقدمة إن بعض القراء المحبين قد تعودوا أن يصطنعوا قلة الاكتراث للديانة في أفكارهم وفي أعمال حياتهم ، وهؤلاء خليقون أن يعطوا الديانة حقها من الاكتراث إذا عرفوا مبلغها من الخلد ومبلغ العناية بها والعيرة عليها عند أصحاب الديانات الأخرى

وعلى هذه الخطة التي تمناها لقراءه حري في تأليف كتابه هذا عن ديانات العالم الكبرى ، وهي البرهمية والبوذية ومذهب كنفشيوس ومذهب الطاوية في الصين ، والإسلام واليهودية والمسيحية .

وقد حاول جهده في الخلق أن ينظر إلى الإسلام ، وهو الذي يعيبنا في هذا المقال ، نظرة كاتب لا يحسر في عقيدته ولا يتعصب عليه لخالفته إياه بتفكيره أو بديانته ، فسار على منهج المؤلفين العدميين الذين يتعجلون أمام قرائهم من تشويه الحقائق وتبديل الوقائع محذرة لذوى الجهل في تعصبهم الأعمى ، أو لذوى الطمع في سياستهم التي لا ترمى عن مصالحها ولكنها تفتح عيوبها جميعاً لشيء واحد لا ترى سواه ، وهو اقتصاص المزية واغنام الأسلاب

وهذا هو الكتاب الثالث من كتب المؤلفين التي ذكرها في هذا الباب على هذه الخطة من «الحيدة العلمية» في مسائل الأديان ، ويعتينا من هذه الخطة أنها تدس على استعداد في العقول بين قراء اللغات الغربية تحقيق بالتعات المسلمين إليه ، لأنهم - دون غيرهم - أقدر على البلاغ والإبلاغ في أمر الإسلام ، وعندهم من الدراية به ومحصنه ما ليس عند أحد من كتاب الغرب ، قصاره أن يشجب في شرحه وتبليغه أن يفتري عليهم التهم والعيوب

(١) الأهر ماير ١٩٥٩

(٢) «ديانات الإنسان» ، للدكتور هستون سميت

اسم الكتاب باللغة الإنجليزية «ديانات الإنسان» The Religions of Man ومؤلفه الدكتور هستون سميث Huston Smith أستاذ الفلسفة بالجامعات الأمريكية ومحرر أبوابها في المجلات الأدبية ، ولد في الصين وعاش في الشرق ، وعاش في بلاد الأم التي درس أديانها وكتب عنها في هذا الكتاب .

بدأ كلامه عن الإسلام بصحيح الآراء عن معنى اسمه كما يفهم المعيون بالإسلاميات من الدارسين وعامة القراء ، فقال إن اسم «المحمدية» الذي يطلقه العربيون على الإسلام يعصب المسمين إذا أريد به سمة الدين إلى محمد عليه السلام ، فإن تسمية «المسيحية» بهذا الاسم معقولة عند أتباعها الذين يديون بإلهية المسيح وصدور العفائد من قلبه ، ولكن «المحمدية» يمثل هذا المعنى سم لا صفة المسلم وهو يؤمن بأن «محمدًا» بشر يوحى إليه ، وأنه لا يملك مع الله شيئاً في دينه ولا دنياه .

وليس فهم الإسلام بمعنى الاستسلام أو خضوع المقاتل لمن يستمر عليه صحيحاً في مدلوله ، وإنما أصل الكلمة من السلام والإجابة إليه ، ومدلول الإسلام على هذا هو «سلام الروح لشامل بتسليم حياة الإنسان جميعاً إلى الله» .

قال : إن محمدًا قد ظهر في زمان تحسب فيه العجرات بضاعة لارمة لا يعجز عنها أصحاب الولاية فضلاً عن أصحاب النبوة والرسالة .

ولكن أبى لدعوته أن يجعلها تجارة بهذه البضاعة ، وبادى غير مرة أنه يشتر ويتنر ولا يتوسل إلى الهداية بأية معجزة غير آيات الكتاب المبين : ﴿ قل لا أقول لكم عندى خرائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك إن اتع إلا ما يوحى إلى ، قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أفلا تتفكرون ﴾

قال : وإن أثر دعوته أنه من آيات التاريخ لا يعرف لها مثيل فيما وعاه من أطوار الأمم قبل الدعوات الدينية وبعدها ، إذ لم يسبق فيما عرف من هذه الأطوار أن دعوة نقلت الأمم من حال إلى حال كما نقل الإسلام قسائل الجزيرة العربية إلى تلك الحضارة التي ارتقى إليها أنواع الإسلام خلال سنوات معدودات .

وقد حكم النبي قومه في جزيرتهم وقام بالأمر زمنًا في المدينة «فهو هنا ملك - لا على قلوب فئة من المحبين المخلصين وحسب ، بل على حياة مدنية مجتمعة ، هو

قاصيها وقائده ، وهو كذلك معلمها وهاديا ، وإن أعداءه أنفسهم ليعترفون باضطراره بهذا العمل الحديدي في براعة وكفاية ، وقد واجهته خطوب معقدة نادرة فإنما هو يواحيها بمقدرة نادرة على التدبير والإدارة ، وقد أصبح قاصيها الأعلى ولكنه ما يرح كما كان أيام حفاء أمره سحرة من الرهو والسدخ ، وكان في وسعه أن يملك الدور والقصور ولكنه ارتضى له ولأهله بيتاً من الطين يحلب فيه معراته بيديه ويستقل من شاء من صغار أتباعه لين بهار ، وكثيراً ما كان يُرى وهو يصلح ثيابه ..

وقد حفظت عنه ماثورات أخبره أنه كان في حكمه يجمع بين العدل والرحمة ، يعاقب من حنى ويعفو لمن أساء إليه .. ويرى فيه أهل المدينة ولياً لا يملك من يتولاه إلا أن يدين به بالحب والطاعة»

يقول الدكتور سميث : «إن الخاصة المميزة للإسلام لا تقوم على الأمثلة العليا التي يرفعها أمام أتباعه بمقدار قيامها على الوسائل العملية التي يرشد بها المسم إلى إدراك تلك الأمثلة العليا «ولو كان هو الإنسان قد بلغوا في عهد المسيح درجة من الارتقاء فكيف من الفطنة لمزيد من التهديد لجعل أفكاره كما قال «أمير على» قائمة على نظم مفصلة ، ولكنه في الحالة التي وجد العالم عيها قد أنقى ذلك - على قول «أمير على» ليتولى تنظيم القوانين الأخلاقية» .

وقد أورد المؤلف هذه العبارات من أقوال الكاتب الهندي في سياق شرحه كأنه يصدر بها فكرة لا يعترض عليها ولا يناقشها ، ولكن يعبر عن رأيه حين يصف الوسائل العملية التي توصل بها الإسلام لإصلاح الأحوال الاجتماعية ورياضة لأم على قوتين لأخلاق والمروءة ، ويؤلف بالزكاة منها إلى مقدارها بالنسبة لثوية لثروة المملوكة ، فليست هذه النسبة محسوبة بمقدار المرح والمورد المتجدد ، ولكنها هي حملتها تصل إلى جزء من أربعين جزءاً من الثروة المملوكة على اختلاف انتع وسخطم ، وهو مقدار كاف لسداد نخلة المجتمع في هذا الباب ، ولا يقل عن الزكاة شأناً في سياسة المجتمع ورياضة على الأخلاق انصالحاً أن الإسلام يقر الملكية بالعمل ويحرم الربا الذي كان يؤحد أيام الجاهلية أضعاها مصاعفة بغير عمل يعمل صاحب الدين ، وشيئ بهذ الحكم في سياسة المجتمع توصية الإسلام

تداول الثروة وكراهته محصرها واحتكارها ، وإيحائه على المسلم أن يعمل للأمة عملاً يستحق به لقمته من الطعام ، فلا يعر عليه أن يحبس إذا سئل وهو يتناول غداءه . «هل صنع للناس شيئاً يستحق عليه أن يأكل ما بين يديه؟»

ويعصى المؤلف على أسلوب كهذا الأسلوب في شرح معوماته عن الديانة الإسلامية ، ولكنه يكاد ينتقل من الشرح - على مثل هذه الخيطة - إلى الدفاع الحرس عن قضية المرأة في الإسلام . فإن في هذه القصيدة امتداداً عسيراً لانصاف الكتاب من العربيين كما عرصو للشبهات الشائعة عن الآداب الإسلامية ، فمن كان منهم ميسر السيرة لم يعسر عليه أن يحارى نيتة السيئة في كلامه عن هذه القصيدة دون أن يتورط في الادعاء المخلوق والافتراء المكشوف ، وقد يصططع الانصاف الصاهر إذ كانت هذه المسوعات تحصى على كثير من قراء العرب الذين يحفلون حالة العالم قبل الإسلام في بلاد العرب وفي غيرها من البلاد الشرقية ، وكل ما يعلمونه أن هذا الدين قد أباح تعدد الزوجات وأمر بالحر على النساء ، وأن شرائع العهد اخذت عندهم تحريم هذا وذاك ، فمن شاء أن يسيئ السيرة ذكر الأحكام ولم يكلف نفسه أن يقابل بينها وبين ما كان من قبل وما يكون الآن حيث لا تسرى تلت الأحكام ، وهذا هو الصمت الذي يشبه الاختلاق الصريح مع السيرة السيئة ، وإن لم تظهر فيه دلائل الاختلاق المقصود .

لقد كان للدكتور سميت فصله في اختيار موقف غير هذا الموقف الرب أو الموقف الصامت من قضية المرأة في الإسلام ، فإنه بدأ بتقرير الواقع عن روح الجاهلية فقال إن المسألة هنا لا تدور على الكثرة والقلة في عدد الزوجات ، لأن الزواج لم تكن له قداسة ولم يكن في الحقيقة روحاً مرعى الحقوق ، بل كان ملكاً كملك الرقيق وكان للرجل بعد الفرجة الأولى والثانية أن يتصل بمن شاء من النساء ، وإنما تدور المسألة هنا على مكان المرأة في الاعتبار والكرامة وعلى حقوقها في بيتها وبين أهلها وقومها ، وهذه هي المسألة التي يظهر فيها فصل للإسلام لا يتهن به ولا يقل الإنكر

قال الدكتور سميت . «إن الإسلام - مجرد كونه أباح تعدد الزوجات - قد تهم بتحقيق المرأة ، فإذا نحن نظرنا إلى المسألة بحكمة الرمن الواحية مقابلين من مبرلة

المرأة قبل النسي وبعده هالتهمة باطلة ، إذ كان عقد الزواج أيام الجاهلية من الوهي والوهن بحيث يكاد لا يعترف به ، وكانت الاتفاقات المؤثرة تبرم وتنقض كل يوم ، والنساء محسوبات في حكم الماشية يحور للأناء والأرواح أن يتصرفوا بأمورهن كما يحبون ، ولم يكن للنساء وراثه ولا حق من الحقوق ، وكثيراً ما كانت الست الوليدة تدفن في طفولها ، وعلى هذه الحالة التي كانت ولادة الأنثى فيها نكسة من النكبات العبيصة ، جاء الإصلاح الاجتماعي على يد محمد صدوات الله عليه فرغ من شأن المرأة كنيراً ، وامتدع وأد الست ، وأعطين حقاً من الميراث لا يساوى حق الأساء - نعم ولكنهن إزاء ذلك معصيات من تكاليف البيت ، وذلك من فصاء العدل عنده ، عليه السلام

«أما حقوق المرأة المدنية في التعليم والانتخاب والعمل فالقرآن يفتح لها أبواب المساواة التي تنالها كلما تقدمت لأم الإسلامية في عاداتها ومعاملاتها ، فإن كانت المرأة المسلمة لم تل تلك الحقوق بعد قرن أو بضعة قرون كما نالتها المرأة الأوروبية فهذه أيضاً لم تتل حقاً منها قبل عصر الصناعة الحديثة ، وإنما نالت هذه الحقوق من الديمقراطية لا من الدين ، فلم يجرز - كما يقول المسلم - أن يكون الإسلام مسئولاً عن هذه الخان .

«ويأتى الإسلام في نظام الزواج بأكثر مساهمة له في قضية المرأة ، فإنه أحاط عقد الزواج بقدمسته إذ جعله دون غيره رابطاً للعلاقة المشروعة بين الجنسين في دينة تعاقب الزاني بالرحم ، ولا يزال الفتى حتى اليوم يراقص فتاته مواجهة ولا لمس جسدها لأنه ممنوع بغير زواج ، وليس لاتهام الإسلام بين بعض الغربيين بأنه دين سهولة في علاقات الجنس موقع صواب في السمع ولا مرأه ، والمساهمة الأخرى في الإسلام في قضية المرأة أنه يعطيها حق موافقة على زواجها ، فلا يستطيع حتى السلطان ، أن يبنى بها كرهاً على غير قبول منها ، ثم يأتى الإسلام بميثاق مكن للرابطة الزوجية وإن لم يمنع الطلاق منعاً باتاً ، إذ هو حلال بغيض في أدب النبي صلوات الله عليه ، وإنما يلجأ إليه كما يلجأ إلى آخر الحلول فما من شيء يغيضه الله كما يبعث التفرقة بين الزوجين ، وقد أوجب من التدبير الشرعى ما يصون عقد الزوجية ، إذ أوجب على الأرواح قبل الزواج أن يدخروا حصه كافية

بسم المرأة تؤول إليها عند الطلاق ، ويحصل الطلاق بعد الاحتكام إلى الأهل والمصالحة على الوفاق وهتبرات من المهلة والإبطار ، ى يراد به الإقلال من دوى المصل بين المرأة وروحها جهد المستطاع ، ويحق للمرأة كما يحق للرجل أن تعتمد إلى هذه الوسائل للتوفيق .

«وتبقى بعد ذلك مسألة التعدد ، فيسمح للمسلم بعدد من الزوجات تختلف الأحوال فى حالات جوازه ، وإن كان لا خلاف على حالة الفصلى وهى الاكتفاء بالروجة الواحدة استناداً إلى نص القرآن على وجوب العدل بين الزوجات وصعوبته مع الحرص عليه ، ولما كان العدل فى القرآن لا يقصر مساواة على الأمور المادية بل يشمل المودة والعطف والرعاية فمن الواضح أن القرآن يفصل الاكتفاء بالروجة الواحدة فى عموم الأحوال ، كما كان مفهوماً منذ القرن الثالث للهجرة ويرداد الأخذ به مع الزمن ، وقد بص على ذلك فى العقد احتتاماً للخلاف وتعهداً من الزوج بقاءه على شرطه ، أما الآيات الأخر التى تحيز للمسلم أن يجمع بين اثنتين إلى أربع ولا يريد - والسبب قد عدد روحانه - فإنها إذا أباح بها بعضهم أن يجمع بين عدد من الزوجات فى جميع الأحوال لغير ضرورة فالجمهرة المترايدة من المسلمين ترى فيها مثلاً لمرونة الإسلام واحتياطه لمختلف العوارض والضرورات ، إذ لا تخلو هذه الدنيا على ما هى عليه من نقص وحلل من حالات شتى يكون فيها تعدد الزوجات خيراً وأسلم من الحالات الأخرى ، وقد يحدث أن تصاب الروجة بمرض يفعلها ويعطلها عن واجباتها البيتية ، كما يحدث فى أعقاب الحروب أن يربى عند الأيتام على عدد الذكور ، وربما أشار المثاليون فى أمثال هذه الظروف بحل من حصول الطولة العالية يحتصم بها الرجال ، إلا أن الطولة العالية ليست من الشرائع التى تعم بين الألوف من العامة والخاصة ، ولما الخبار فى المسألة بين رواح متعدد ينهض بتبعاته وبصور حياته وبين تعدد فى العلاقات على غير شرع وبغير نعة .»

وأعم من شبهات الغربيين على قضية المرأة فى الإسلام شبهاتهم على القدرة أو الاستسلام «للقسمة» و«المكتوب» و«المقدر» الذى يجعل المسلم فى رأيهم كالحجر الملقى أو الآلة المسخرة لا يملك لنفسه نفعا ولا ضراً ، ولا يختار لها مصيراً

إلى الصلاح أو الفساد وقد راق بعض المتعصين منهم أن يتهموا الإسلام بهذه «الآلية» العقيمة ، وأن يعيبوا عليه مع ذلك أنه الدين الذى يدعو أباعه إلى حمل السيف وبذل الحبة وهما عدية ما يقدم عليه الإنسان فى حياته من معنى وهمة ، وطالب لهم أن يجمعوا الإسلام مستولاً عن هذين التعصين لأنهم يريدونه مستولاً عنهما على أية حال .

هذه النشئة على القسرية الإسلامية مما عرض له صاحب هذا الكتاب وجاوز فيه حد «الصمت» والحيدة المربية ، فقال : إن المسلم يؤمن أشد الإيمان بعظمة الله وقدرته وسلطانه فى خفيقته ، ولكنه يحمل تبعته ويحاسب نفسه على هدايته وصلاله ويعلم من أبى كتابه الكثيرة أنه صاحب إرادة يتجه إليها الخطاب من الله «فمن اهتدى فإلى يهتدى لنفسه ومن ضل فإلى يضل عليها» .

إلا أن العثرة الكبرى أمام هذا المؤلف وأمام غيره من كتاب العرب ، من يعرف منهم العربية بعض المعرفة ومن يجهلها كل الجهل ، إنما هى عثرة الحكم على بلاغة القرآن وبلاغة العربية على عمومها فى شعرها ونثرها وهى كلامها المطول وكلمها الوحيز ، ومنه ما يرتفع فى البلاغة إلى الدروة التى لا يعلى عليها فى كلام معروف بين أبناء الحضارة .

وقد أشيرنا إلى هذه «العترة الكبرى» عند تنقيبنا لكتاب الأندلس الإسلامية ، ونعود إلى الإشارة إليها بنصد التعليق الصريح الذى أورده مؤلف هذا الكتاب بعد رواية بعض الآراء الحرة المتواترة فى هذا الموضوع ، ومنها آراء أناس يحسون القول فى رسالة النبى ﷺ ، ويودون لو استطاعوا أن ينصدوا إلى أسرار الإعجاز القرآنى كما يحسها المسلمون من المطلعين على روائع البلاغة عند الغربيين . ونحن نعتقد أن القوم معدرون فى حيرتهم لسبب غير سبب المخالفة فى الدين ، أو المخالفة فى النظر إلى مصدر الكتاب الكريم ، فإن القوم - فيما نرى - أشبه عن يقرأ الكتابة بالصورة ولا يلاحظ منها إلى مدلول تلك الصور من الحروف لأبجدية ، وكأنهم لا يراون فى عصر الصور «البيروغرافية» بعد أن أصبحت هذه الصور حروفاً تألف منها المعانى والكلمات ولا تلتفت العين إلى أشكالها وأشبهها إلا وهى عابرة مسرعة إلى الكلمة المركبة من رسوم تلك الأشكال والأشياء .

إن الحميم - مثلاً - لا تزال حافظة لشكل الرقبة التي تدل على الحمل ، ولكن القارئ العربي لا يعكر في الحمل وهو يقرأ الحميم ويضم إليها الميم واللام ، وكذلك يفعل نحن قراء العربية حين نعبر التشبيهات بالشموس والأقمار والبحار والأغصان وسائر المجازات التي تحكى لنا معيها بالإيماء والإيحاء - فنحن نفهمها بمدلولاتها - مباشرة - ولا نتوقف عند أشكالها ورسومها المحسوسة للعيون والأسماع ، أو نحن كما تقدم نمر دور الصور الهيروغليفية إلى دور الحروف والمقاطع والكلمات ، ولا نشعر من أجل هذا بالخير أو الركة العقلية والحسية كلما عرضنا تلك التشبيهات المجازية وهي تتتابع أمامنا وحده تلو الأخرى بصورها الذهبية مخردة من صورها المحسوسة للأبصار والأذن ، وعلى هذا النحو يسمع الموطف الذي يتلقى الإشارات البرقية شروطاً ونقاطاً يتبع بعضها بعضاً على عح وهو يكتب على الورق حروفاً وكلمات يفهمها على الأثر كأنه يستمع إلى متكلم في المدياع ، ولعل المراتبة صالحة في «تليغ» السلاغة العربية إلى أدهاب الغربيين ما يعيهم على تقدير الآيات المعجزة التي يحارون في تعليل إعجازها واستيلانها على شعورنا ، وإن كنت المرة وحدها لا تغنى غناء السليقة المطبوعة والنشأة الطويلة والتلقين لمسموع والموروث .



ويحتم المؤلف كتابه بظرة شامة إلى مستقبل الإسلام بين الأديان ، فيقول : إنه في هذا العصر - كما كان في العصور العابرة - أسرع لأديان إلى كسب الأتباع المصدقين ، وإنه على الرغم من قلة دعائه وكثرة الدعاة إلى المذهب المسيحية تكاد ستة الداحيين فيه بين الأفريقيين تساوى نسبة عشرة إلى واحد ممن يتحولون عن عقائدهم البدئية إلى الأديان الأخرى وبهم من تقدير المؤلف لانتشار الإسلام في الصين أنه ولد هناك واشتغل بشئون العقيدة على أوسع نطاق ، فهو أخرى أن يستمع إليه وأن نتبين من تقديره أن مصادر الإحصاء الرسمية تعتمد المسالعة في الإقلال من عدد المسلمين من أهل الصين ، وقد وضع ذلك كل الوضوح من تقديرهم كلهم بنحو عشرة ملايين كما جاء في بعض الإحصاءات المترجمة وهم يقاربون مائة مليون أو يزيدون ، فإن حسبنا المسالعة حسبها في الإحصاءين فالنوسط بينهما أقرب إلى التقدير الصحيح وأولى أن ترجحه هذه الملاحظة -

ملاحظة الريدة المطردة في عدد المسلمين يديها حبير محتص بالأمر شديد العناية
بأحوال الديانات والمتدينين

إن للمسئولين عن مستقبل الإسلام في عصرنا هذا عملاً يلحق في جلالته
وعظمه بعمل أمثالهم في عصر الدعوة الأولى ، وبحسب أنا نفيد من أقوال شراحه
لأم الغرب فائدة تساوى عاء الاطلاع على تلك الأقوال إذا تيقظنا في أولنا اليقظة
لتبئية الدعوة المقبلة .

إن الأسماع مفتحة من حولنا ، والسامعون يقبلون علينا . فهل من مسمعين؟

الإسلام دعوةٌ عالميةٌ (١)

في العدد الأخير (٢) من مجله الأهر عنيما على المقالين اللذين بشرتهما محلة «التاريخ اليوم» الإلحيرية للأستاذ سويسرس المحاصر الأول بقسم التاريخ في جامعة ميوريلاندة ، وقد جعل عنوان المقالين «لخليئة عمر المستعمر العرسي» ، وذهب فيهما إلى أن امتداء انتشار الإسلام خارج الجزيرة العربية إنما كان من عمل هذا الخليئة ولم يكن عملاً داخلياً في برنامج الدعوة اعمدية . . لأن محمداً عليه السلام لم يفكر في دعوة أحد غير العرب إلى الإسلام .

وكان موضوع التعقيب أننا أخذنا على الكاتب دعواه هذه وقدنا أنها ، مع حسن النية ، سوء تطبيق لعلم لقارئة بين الأديان ، انتماساً لوجوه الشبه التي لا وجود لها بين الدعوة إلى الموسوية والدعوة إلى المسيحية والدعوة إلى الإسلام ، فإن أتباع موسى عليه السلام قد دخلوا أرض الميعاد بعد وفاته ، وأتباع عيسى عليه السلام هم الذين قاموا بتوحيه الدعوة إلى العالم بعد حصرها في بني إسرائيل فيسعى على هذا القياس دهان مع شهوة المقارنة بين الأديان في غير موضع للمقارنة أن يكون خلطاء السى هم الذين بشروا الإسلام بين الأمم غير العربية ، ولم يكن ذلك من برنامج محمد ﷺ ولا من أصول رسالته إلى قومه .

أما إذا ساءت النيات ، وما أكثر الدواعي إلى سوء النية في كتابة تاريخ فلسطين . . فقد يصهم من كلام الكاتب أن دخول الإسلام إلى فلسطين إنما كان عملاً من أعمال لاستعمار العربي ولم يكن هداية دينية حالصة لوجه الله ، ويرد هذا على الخاطر - قسراً - إذا اطلع القارئ في العدد نفسه على مقال مسهب عن دخول اليهود إلى فلسطين ، ليتخذوها مأوى لهم وموطناً موعوداً من عهد الخليل إبراهيم .

(١) الأهر أغسطس ١٩٦٩ .

(٢) عند يوليو ١٩٦٩ ، انظر المقال السابق

وقد وصل إليها عدد شهر يونيو من المجلة الإنجليزية فقرباً فيه تصحيحاً لدعوى الأستاذ النيوريلاندى بقلم الأستاذ أحمد إبراهيم الشريف مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية ، أشار فيه إلى الأدلة الكثيرة التي تثبت دعوة الإسلام العامة ، ثم قال «إما إذا تركنا هذه الأدلة جانباً واكتفينا بالنظر في القرآن الكريم وحده فهناك أكثر من أربعين آية يُذكر فيها الله سبحانه وتعالى باسم رب العالمين ، وهذا عدا الآيات التي ذكر فيها بالنص الواضح أنه ﷺ قد أرسل إلى الناس كافة ، وأن القرآن قد نزل عليه ليقرأه على الناس » .

وقد أحالت المجلة هذا الرد إلى الأستاذ سويدرس فعاد يقول إن هناك أدلة تصيد أن محمداً «صلوات الله عليه» قد أراد بديه أن يشر على الناس ، كما أن هناك أدلة أخرى تفيد أنه لم يفعل ذلك ، فهي إذن مسألة من مسائل الشك لا يُقطع فيها بأي القولين .

قال - «أما أن محمداً قد آمن بأن الله هو إله الجميع وليس محل مناقشة ولكنه ليس بموضع البحث فيما نحن بهمهده ، ولما سدد من القرآن نصه حيث ترد الآيات التي بمكر الاستدلال بها على القولين ، فنقوله في أول سورة الفرقان . ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾ قد يقابله في سورة القصص قوله - ﴿لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يذكرون﴾ وهو يشير - كما هو واضح - إلى العرب ، ومثله قوله في سورة الشورى . ﴿وكذبت أوحينا إليك قرآناً عربياً لنندر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه﴾ فإنه ندعو إلى التساؤل عن القرآن العربي هل يحاسب به أناس غير المتكلمين بالعربية .

قال - «إن الأوربيين المتخصصين للإسلاميات ينقسمون انقساماً شديداً في هذه المسألة ، فإن موير يرى أن الدعوة من البداية إلى النهاية كانت دعوة بلعرب وحدهم ولم يُدع بها أحد غيرهم ولكن ولدكه وجلا زيهو وأرنولد - وكلهم ثقافات - يقولون أن محمداً ﷺ أراد مدسه منذ أوائل الدعوة أن يكون ديناً عالمياً ولم يرد به أن يكون مجرد عقيدة وطنية محلية ، ونقول إنه لو كان قد ثبت أنه كتب إلى هرقل وملك المرس وعمرهما من الملوك بدعوتهم إلى الإسلام لانتفى الشك بالواقع ، ولكن

رء الساحتين - مع الأسف - لا تميل إلى قبول هذه الأحبار ، ومونتغمري واب
يقول إن هذه القصة لا يمكن أن تقبل على حسب هذه الروايات»

ثم حتم جوابه على تعيق الأستاذ الشريف قائلاً «وعندنا صعوبة كهله في أمر
لمسيحيه ، فهل كان المسيح عليه السلام ينظر إلى نفسه كأنه صاحب دينة جديدة
كما جاء في متى حيث يقول اذهبوا واعدوا جميع الأمم؟ او كان ينظر إلى نفسه
كأنه مصلح لليهودية ليس إلا وأنه ما جاء إلا لهداية حراف إسرائيل الصالة؟
وأحب أسي أمام هذا الخلاف قد كنت متحرراً حيث قلت إن البرهان القاطع غير
موجود» .

والأمر البين بعد قراءة هذا الجواب أن الأستاذ لم يكن متحرراً كما قال في حمام
جوابه ولكنه - كما قدرب - قل الاطلاع على هذه لمقارنة بين الدعوة المسيحية
والدعوة المحمدية في كلامه الأخير كان مسبقاً مع إعرء المقارنة في غير موضع
للمقارنة ، فلم يظهر له الفارق الشاسع بين موقف احدهما من لدعوة المحمدية وموقف
بولس الرسول وإخوانه من الدعوة المسيحية ، فإن بولس وإخوانه لم يكن في وسعهم
أن يشيروا اليونان والرومان بمسيح مستظر في سى إسرائيل خلاصهم واستعادة
ملكهم الذي قضى عنه الرومان أنفسهم ، فلا حرم تتحول الدعوة من إسرائيلية إلى
عالمية لهذه الصلورة التي لا محيص منها ، وليست هناك شبهة قط بين الدعوة
الخاصة بى إسرائيل وبين الدعوة إلى الناس كافة كما وردت في القرآن الكريم
بذلك النصوص الذي فهمه الكاتب ولم يستطع أن يتجاهله في جوابه على اعتراض
الأستاذ الشريف

فهذه هى الشعرة التي بعد منها حصاً القياس إلى رأى الأستاذ
السيوريلاى مع تقدير حسن النية فيما قرره من حصر الدعوة لإسلامية بين
أبناء الحرية العربية

ولسا يرى دليلاً على السحرر ، ولا على الحد - فى سساد الكاتب إلى بول
الفرآب باللغة العربية لتعريب حجه على تخصيص لإسلام من يتكلمون اللغة
العربية إذ كيف كان يريد أن تكون الدعوة أن كانت عامية إنسانية ولم يكن مقصوده
على المتكلمين بلغة الرسول؟ إنه يجمع بذلك أن نوحده فى العالم دعوة عالمية

إنسانية على الإطلاق أو يعترض فيمن كان يُرسل بهذه الدعوة أن ينطق بكلمة
الناس أجمعين .

ولا بحسب قراءة الأستاذ البيوري لاندس قد استعادوا شيئاً من اليقين أو الترحيح
بما استشهد به من أقوال المختلفين على عموم الرسالة المحمدية أو خصوصها بين
رملائه المستشرقين ، بل كل ما يستعيد القارئ المطبع من وقوع هذا الخلاف أن
أساساً غير قليلين بين «جهانته المستشرقين» يقرأون الكتاب المين ولا يستبينون منه
أظهر معانيه ، بل أظهر كلماته ، التي لا تحتاج إلى مراجعة من أحرار الإسلام أو
أحبار التواريخ .

فإذا كانت كلمة الناس كافة تحتل الدبس في أذهان هؤلاء المستشرقين لسبب
من أسباب التأويل في البعة أو في المنطق فما هو اللبس في وصف العباد الدين
تكرر الخطاب بإنذارهم ودعوتهم إلى الدين؟

إننا نذكر من وصف هؤلاء العباد في الكتاب العربي مثلاً واحداً وهو قوله في
خطاب النبي بالعربية .

﴿قل لعبادي الدين أمروا يقيموا الصلاة وينفقوا بما رزقناهم سرّاً وعلانية من قبل
أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من
السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، وسخر لكم الفلك لتجري في البحر
بأمره وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر ثابتين وسخر لكم الليل
والنهار﴾ .

فمن يقرأ وصف هؤلاء العباد الدين سخر لهم البحر وسخر لهم الأنهار وسخر
لهم الليل والنهار لا يحطر له لحظة أنهم أبناء الجزيرة العربية دون غيرهم من بني
لإنسان في جميع البلدان .

وإذا كان عرب أجاهلية قوم لم يأتهم بدير من قبل هالدين الذي جاء به
صاحب الدعوة المحمدية يعم المتدينين الذين سبقوا إليهم للرسول ويقوم السبي
العربي بالدعوة إليه ليظهره على الدين كله - ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين
الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾

وأياً كان القول في اللغة التي تكلم بها النبي ، وفي صلاح هذه اللغة للدعوة

العالمية ، فإن النوع الإنساني يشمل أم القرى وما حولها ولا تعتبر هدية أهلها عزلاً لهم عن عداهم من الناس ، إذ كان خطاب الناس كافة يمع أن يكون الخطاب مقصوداً على أم القرى ومن حولها ولكن خطاب أم القرى ومن حولها لا يمنع أن يعم الناس أجمعين .

وبعد ، فكيف يسبغ العقل أن يكون صاحب الدعوة المحمدية حاتم السمين إذا كانت رسالته مقصورة على قوم لم يأنهم من قبل نذير!!

إن طائفة من المستشرقين تسبغ مالا يسبغه العقل في أمر القرآن وأمر الإسلام ، ولا نحب أن يشبع لأحد من هؤلاء قول مسموع في العصر الحاضر ، لأسأ نقرأ لغيرهم من فضلاء الأوربيين المحدثين صفوة من آراء السديلة في الإسلام وسية ﷺ ، يرهوبها عن هوى لاستعمار والتشهير ما استطاعوا ويحسون بها إلى قرائهم وقراء العربية عاية إحسان العالم الأمين على عمه ، وليس من هؤلاء - ولا ريب - من يذكر الخليفة الصروق اليوم فلا يعرف له صفة إلا أنه مستعمر قديم .

الإسلام في تاريخ العالم^(١)

من موضوعات التأليف التي كادت أن تصبح لها في اللغة الإنجليزية «دورة» كالدورة الصحفية ، موضوع الكتابة عن تاريخ العالم في محلد واحد ، يحتصر أو يصبع في الصبغات الدقيقة التي تسمى عندهم بمكنة أخيب .

ومن الواضح أن الدورة في هذه المؤلفات تحسب بعشرات السنين ؛ كل عشرين سنة هجرية ، أو كل ثلاثين سنة ، أو كل جيل من الأجيال البشرية المتعاقبة ، إذا حسنا لجيل ثلث قرن على العرف الشائع ، لأن السنين الثلاث والثلاثين يلتقي فيها على الدوام جيل قديم ، وجيل مقبل ، وجيل قائم هي إبانة

وقد ظهر في الجيل الأخير باللغة الإنجليزية ثلاثة توريخ عالمية من مطبوعات عند الواحد ، وهي «تاريخ «ولر» المصنوع الاجتماعي» ، الكاتب القصصى ، و«تاريخ فان بون الناقد الفني والكاتب الأدب» ، ثم هذا التاريخ الذي بين أيدينا يرفعه حول باول Bowie ، لمشرف على تأليف الموسوعة - - «دورة لتاريخ العالم» ، ول من مؤهلات الإحاطة بالتورخ الإنسانية ، والتورخ الشرقية على الخصوص ما لم يكن لرميديه السابقين ، وإن لم يبلغ مبلغهم من الملكة العقسة واستقلال الرأي أمام التقاليد

والخاصة التي تتميز بها التورخ العالمية في محلد واحد أنها تكتب من وجهة نظر مقدورة في موزين مؤلفيها ، فليست هي مجموعة من المتفرقات لا تربط بينها رابطة غير الاجتماع على خريطة الكرة الأرضية ، وليست هي مجموعة من الوقائع متحجرة من المغزى والدلالة على طريقة لؤرخن المسحس للحوادث العامة في كتب المطولات ، ولكنها أشبه بقصة متناسقة يعرضها شريح واحد يقدم للمضارة شريطاً من الصور المتحركة ، ويذكر لكل مرحلة منه مناسبة ملحوظة تلحقه بالمراحل التي سبقته وتصل بينه وبين المراحل التي تليه

(١) الأهر يونية ١٩٦٣

ولقد كان «ولتر» كفتاً لهذا انسيق على أساس النظرة الواسعة إلى الوحدة الإنسانية في أطوار التقدم الاجتماعي والانتقال من نظام «معيشي» إلى نظام يحلّفه ويحل في أكثر الشعوب محله ، وكذلك نظر إلى دور الصيد ودور المرحى ودور «صناعة» ، ثم دور التوسع في العلاقات الاجتماعية والأحلافية التي تقوم عليها دعائم المجتمعات والهيئات الحاكمة

وكان فان لون مقتدرًا على تسيق التاريخ العالمي في نطاق الحركة الفكرية والدلالات النفسية ، كأنما ينظر إلى الإنسانية في مراحلها المتسلسلة بطرته إلى بعنة ثقافية تشتعل بالتموير إلى جانب اشتغالها بالبحث والتحصيل .

أما المؤلف الأخير - وقد ظهر كتبه في أواخر السنة الماضية - فالمرجع الأكبر أمامه هو مرجع الجغرافي الذي استوفى أساليب الإحصاء وأبناء الصحف والإداعة ، وأخذ ينقل الأبعاد الزمانية إلى خريطة مكانية يعرض فيها مواقع الماضي كأنها تحصى في الوقت الحاضر ، ولم يتخذ له في هذا العرض موقفاً مستقلاً غير الموقف «التقليدي» الذي يضطّعه «المسجل المعاصر» حين يدين نفسه بمظاهر «الاستنارة» على حسب اصطلاح العرب الحديث

فكل تعليقاته على الحوادث التاريخية الكبرى هي تعليقات مسبقة من بقايا القرنين الثامن عشر ، والتاسع عشر ، مضافاً إليها علم الرجل العصري كما يستمدّه من مرجع الإحصاء والإداعة وبخاصة في القسم المفرد أو الأقسام الموزعة التي عرّض فيها لتاريخ الإسلام .

يبدأ بتقرير الواقع المشهور عن دور الإسلام بين أدوار الديانات العالمية ، ويفصله عن ديانات رومة وأثينا والصين والهند بأنه هو الديانة الثالثة الكبرى بين الأمم السامية ، أولاها اليهودية ثم المسيحية .

ويقارن بين النبي ﷺ وبين السيد المسيح صاحب الديانة السامية الأخرى وبين «بوذا» صاحب الأرية المهدية ، فيقول : إنه مثلهما يملك العقيدة الدينية ولكنه يمتدّ عنهما بالكياسة السياسية مع القدرة العسكرية .

فإذا تكلم عن العوامل الاجتماعية ، والنفسية ، التي يسبب إليها تمكن الإسلام في وطنه ثم انتشاره في سائر الأوطان على نحو لا نظير له من قبله ولا من بعده ،

فهالك تلعب عليه تلك المكرة «التقليدية» عن عقيدة السيف والغنيمة ، ويفوته
التعليل التاريخي الأول الذى ينشئ أن يسبق كل تعليل : وهو انتشار الإسلام لأنه
وافق فى العلم كله حاجة عامة ، بعد أن حاد أواها وتهدت الأسباب لنوفاء بها
فى عالم الفكر والضمير .

فكل ما عدا القدرة السياسية والعسكرية فى نى الإسلام فهو قابل للتفسير
بحماسة «التعصب» العنيف والرغبة فى كسب الغنائم ، وبالطبيعة البدوية التى
بنيت على تعدد الرحلات والغارات .

ويتبين قصور هذا المؤلف خاصة عن تعليل الحوادث العظمى كلف ذكرنا
أنه أعرف من زميله بنوارىح انتشاره فى كل من الهند والصين والبلاد الملاوية ،
وهى البلاد التى يوجد فيها اليوم قرابة ثلثمائة مليون مسلم دخلوا فى الديانة
الإسلامية بعد عصر الفتح بعدة قرون ، ويعبر عامل من تلك العوامل التى تفسرها
غارات البدو أو طمع الفقراء من أبناء البادية فى كسب الغنائم واعتصاب الديار .

ويتبين هذا القصور من وجهة النظر العصرية قبل كل شيء ، لأنهم تعودوا على
هذا العصر أن يعدلوا كل بحاح كبير بمقدار الحاجة له والمواقفة سه ومن أشواق
النفس ومطالب المعيشة وضرورات الحياة فماذا يفعل الطمع فى الغنائم لو لم
تكن للإسلام مزية إنسانية تتطلبها العالم ويستعد لها قبل أواها؟ ولماذا لم يفعل
هذا الطمع فعلة فى تاريخ انتشار الديانة اليهودية وهى ديانة قبائل بادية ومطامعها
فى الغنائم واعتصاب الديار تحمل عندها محل الشريعة المقررة فى مواعيد الألهة؟

وينتقل المؤلف من هذه النظرة التقليدية إلى نظرة تقليدية أخرى عند الكلام
على الحضارة الإسلامية بعد انتشارها بين الشعوب السامية والآرية ، فهو يميل هنا
تلك الدعوى المحمودة عن استعارة الثقافة العربية خاصة والإسلامية عامة من
الثقافة الإغريقية ، ولا يكلف نفسه مؤونة المقابلة بين دوائر التراث العربى
الإسلامى فى الحكمة والطب والكيمياء والجغرافية والتاريخ والأدب وبين الدوائر
التي تحللت باللغة البوذية فى جميع هذه الموضوعات ، بل لا يكلف نفسه مؤونة
البحث فى المسائل المنقولة والمسائل المستكرة التى تحتوى فىها احتوته ردوداً على
حكماء اليونان وعمائهم وريادات مستفدة فى دراسات الحكمة والطب لم تؤثر عن

مرجع يوناني وصل إلى العرب أو بقى له أثر في القارة الأوروبية ، وقد كان أولى من ذلك كله وأقرب إلى التحقيق العلمي أن يسأل المؤلف نفسه : لماذا حورت الثقافة الإغريقية عند نقلها إلى الأوربيين ولم تحارب هذه الثقافة - بمثل هذه الشدة - بين شعوب الإسلام على اختلاف الأجناس؟ وربما كان أولى من ذلك أيضاً أن ينظر المؤلف إلى الفن العربي الإسلامي في البناء ليعلم مبيع استقلال الذوق العربي عن اليونان في ناحية ثقافية من ألصق التواحي بهم وهي ناحية الصور الحميدة ، ويعلم كذلك أن الذوق العربي قد استقل بفسه بين أم شرقية كثيرة سبقت أساء الجريرة العربية إلى تشييد العمائر وابتكار أساليب البناء .

ولكن المؤلف يشهد لحصارة العربية الإسلامية شهادة تشفع له في هذه الزلة التقليدية ، لأنه يقرر بعد إسهاب الكلام عنها أنها لم تستتبع في التاريخ دوراً من أدوار الظلمات كما حدث بعد الحصار الروماني اليونانية بين أبناء القارة الأوربية ومن النظرات التقليدية التي سيق إليها المؤلف تلك المقارنة بين العقيدة الإسرائيلية والعقيدة الإسلامية كما وردت في كتب الديانتين ، ويذكر من هذه المقارنات أن القرآن يسأل الإنسان : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ . أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴾ وعنده أن هذا السؤال الإلهي كسؤال الله للنبي أيوب « آتت الذي ركب جناحي الطاووس؟ » وأن العقيدة الإلهية متفردة - إذن - بين الديانتين !!

وفي هذه المقارنة أكثر من خطأ واحد لأنها مجموعة من الأخطاء لا يتحملها صواب واحد في جهات الموازنة بين الحنين . فالخطأ الأول أن سفر أيوب ليس من الأسفار الإسرائيلية ، لأنه حلا من كلا إشارة إلى العهد ، أو إلى المسيح المنتظر لخلاص بني إسرائيل ، ولم يكتبه نبي من اليهود .

ومماثلة في الخطأ أن الإله في سفر أيوب إله الكتب الإسرائيلية «يهوه» الذي يسبح عبادته بميزان محدود ويدين سائر العباد بميزان آخر غير ذلك الميزان ويأتي بعد ذلك خطأ مقارنة بين عارة عارضة في سفر أيوب وبين العبارات

القرآنية التي تنتظم الكتاب كله ، ولا تدع في الأرض أو السماء صورة من صور الخلق لا يقام بها الدليل على وجود الخالق وعلى رحمته وعدله واستعائه بدليل العقل عن أدلة الخوارق والمعجزات .

وشفيح المؤلف في هذه الأسطورة التقليدية أن حص الإسلام بالقررة الصالحة لتوثيق الوحدة «الأحوية» بين المؤمنين وإن لم ينظر إلى فرق من فوارق لجس واليون أو فوارق العسى والمقر كأنه فارق حائل دون جامعة الإخاء بين أبناء آدم وحواء ، ولكنه على هذا التقدير منه لدعوة لأحوة الإنسانية في الإسلام لم يذكر لهذا الدين حسنته «الإسامية» الأولى في إنقاذه لبيات حواء من مثلة العبودية ، ومن مثلة الحرمان من الروح ، ذلك الحرمان الذي أوثك أن يبحقها بالخلاتق العجماء

وقد لارمه خطأ المهم إلى النهاية حين حسم فصله الخاص بانتشار الدين معيداً قوله في الفصل كله . إن الصبغة «الحربية» قد لارمت حصارة لإسلام في كل صفحة من صفحاتها التي مثلتها عواصم دمشق وبغداد والقاهرة والقسطنطينية ، وإن سر هذه الصبغة كامن في الدفعة «الديناميكية» الباقية منذ قيامه على «عصية الصخر» ويسى في هذا الختام لموحر كل ما قرره عن خاصة «الأحوة» الإنسانية التي اختص بها هذا الدين «السمح» الكريم .

مُراجعات إسلامية^(١)

هذه سلسلة من الكتب المسقفة تصدر باللغة الإنجليزية من مطبعة جامعة «أدسرة» في موضوعات متنوعة من مباحث التاريخ والشريعة ، تشمل فيما تشمله أحرارها التي ظهرت حتى الآن والتي ستظهر في المستقبل أبواباً من الدراسة العممية عن وجهات الإسلام في العصر الحاضر وعن الإسلام في البلاد الأتريقية وراء الصحراء الكبرى ، وعن الإسلام في الصين ، وعن صفحات التاريخ الإسلامي في دولة بني عثمان ودولة المسلمين بالأندلس ، مع الإحاطة بأبواب البحث في المذاهب الفكرية التي ذهب إليها علماء الإسلام ودعائه ، بين المتصوف والمكلمين وبعمرلة والخوارج والظاهرية وغيرهم من أهل السنة والبعمرلة والمنتشيعه ، في العصور المتتابعة .

ولا تحفى عناية العائمين على تأليف هذه السلسلة بالتحقيق العدمى والدقة التاريخيه ، ولكنها تدل من حديد على الصلة الوثيقة بين سياسة الدولة في العرب وبين دراسات العلماء للمباحث الإسلامية ، ولو كانت حلولاً من مقاصد التشير ومأرب الاستعمار الطاهره ، فلا نزال دراسة الإسلام غرضاً من أغراض الدول الكبرى التي ستطيع الإهاق عليها كلما احتاحت إلى كلمة تقصر عنها مقدرة المؤلفين والناشرين طلاب البععة البحارية ، ولا يزال الموضوع من موضوعات الدولة في العرب على مقدار اتصالها بالسياسة العالمية في البلاد الشرقية ، ولكنه قد يحتلف بالأسلوب ولهج مع اختلاف أطوار السياسة من حيل إلى جيل .

جاء في مقدمة الكتاب لأول من هذه السلسلة : إن ندر الحرب التي كانت في سنة ١٩٢٩ وشبكة أن تجر إليها شعوباً أسيوية كثره قد سهت المسئولين في بريطانيا العظمى فحاة إلى قلة المتخصصين عندما دراسة اللغات الأسيويه وثقافاتها ، ومن ها كان تأليف لجنة «سكاريرو» التي كان تقريرها أثر في توسيع نطاق الدراسات

(١) الأهر أكتوبر ١٩٦٣

الشرقية والأفريقية بعد الحرب العالمية فى بريطانيا العظمى ، وتبين من محرى الحوادث فى العقد الثالث بعد الحرب العالمية أن أفق الاطلاع الذى لا يزال فى اتساع مع الزمن يكشف لنا عن ضرورة العلم بنصيب من المعرفة يريد على تلك المعرفة السطحية بما وراء الثقافة الأوربية ، وفى مقدمة ذلك ما حدث من ازدهار بلاد كثيرة نحو الاستقلال بالقارة الأفريقية وبينهم أمم إسلامية أو أم يحكمها رؤساء مسلمون ، تدل مواقفهم على ارياد نصيب العالم للإسلامى من العلاقة بالسياسة الدولية .

فاهتمام السياسيين بالدراسات الإسلامية باق على عهده منذ نشأت هذه الدراسات فى القارة الأوربية قبل بضعة قرون ولكنها تتغير بين حيل وحيل ويجوز لنا أن نعثر هذا التعبير نفسه علامة من علامات الزمن فى تطور السياسة العالمية .

والعناية بتمحيص البحث العلمى تدل على انقضاء عهد الاستشراق لشرب دعايات التشهير أو الاستعمار بين شعوب البلاد المحكومة على العموم ، ثم تدل على حاجة السياسة المستعمرين إلى فهم الحقيقة عن المسلمين ، لأنهم لا يسيطرون عليهم اليوم بسلطان القوة التى يتساوى فيها حسن الفهم وسوءه عند من يقبض على زمام القوة الحاكمة بيديه ، وإنما يحاولون النفاذ إليهم عن علم صحيح بما يشعرون به ويذكرون فيه ، ويصيرهم أن يجهلوا الحقيقة على حليتها قبل أن يضير المسلمين ، بما يحس تاريخهم الصحيح أو شعائرهم المعتقد .

والكتاب الأول من هذه السلسلة مقصور على البحث العلمى فى الفلسفة الإسلامية وما سميته الأوربيون بعلم اللاهوت عند المسلمين ومؤلفه هو الأستاذ «مونتغمرى ووت» مدرس اللغة العربية بجامعة أديس ، وله مشاركات كثيرة فى بحوث التاريخ الإسلامى والثقافة الإسلامية غير اللغة وأدبها .

ولا يعيب عن الناظر إلى بحوث الكتاب فرط العناية بتمحيص الوقائع من مصادرها المتشعبة ، فقلما يصوت مؤلفه مصدر من المصادر الشرقية أو الغربية عن علاقة الفلسفة واللاهوت بمذاهب الفرق من قديمها فى صدور الإسلام إلى حديثها فى هذا القرن الرابع عشر للهجرة وقد عرض - بهذا الاطلاع الواسع بمذاهب المتكلمين والفقهاء والصوفية والمعتزلة والأشاعرة وغيرهم من المجتهدين والمقلدين

جهد ما اتسعت له صفحاته المحدودة في كل جزء من أجزاء السلسلة ، وهي في هذا الجزء لا تزيد على مائتين ، واقتربت تحقيقاته للمذاهب والفرق بتحقيقات مثلها لأراء المجتهدين والأئمة الفقهاء ، ولا سيما الأئمة الذين تعنتهم فرق حديثة كان لها شأن في حكومات البلاد الإسلامية ، كاس تيمية وابن قيم الجوزية ، وبعض فقهاء الشيعة والظاهرية .

وقد يدل على منهج الكتاب كنه موضوع واحد من موضوعاته عن المعتزلة ، وهم أوفر الفرق الإسلامية حظاً من دراسته واجتهاده

فالاهتمام بالجانب السياسي ظاهر من سؤاله عن العلاقة السياسية بين أراء المعتزلة وقيام الدولة العباسية بعد الدولة الأموية ، هل كان للسياسة شأن في تكوين أراء المعتزلة وتحديد موقفهم بين الدولتين ؟ وما مبلغ هذا الشأن من الأثر في أحداث السياسة وفي تدوين التاريخ

إن خلفاء العباسيين كانوا يحثارون لمناصب القضاء أناساً من علماء المعتزلة . وكان لبعض هؤلاء العلماء علاقة بأبي مسلم الخرساني قبل التكوين به على أيدي سبي العباس .

ولكن هذه الخطوة على كثرة ظواهرها لا تدل في رأى المؤلف على اصطباغ مبادئ المعتزلة بصيغة الدعاية العباسية ولا بصيغة الدعاية للفرق المتشعبة ، وكل ما بثبت منها أن الدولة لأموية قد جمعت على مقارومتها كل داع إلى التجديد في مسائل الدين والمذاهب الفكرية ، وهذه الجامعة الواسعة هي التي قربت في دولة العباسيين بين دعاء التشيع ودعاة الاعتزال ودعاة الاجتهاد في الفقه والشريعة ، ولو كان المجتهدون من أئمة السنة الذين لم يتحدوا لهم منهجاً غير منهج الجماعة

ويصحح المؤلف أخطاء الأوربيين الذين سقوا إلى أوهامهم أن المعتزلة هم فلاسفة الإسلام ، عندما اتصلت بهم حملة أحبارهم في مطلع القرن التاسع عشر .

ويأى المؤلف أن يطلق على المعتزلة لقب فلاسفة الإسلام على الخصوص بمعناه الذي يقال عند الأوربيين لقب «أحرار الفكر» وهو قريب في معنهم من لقب الزندقة .

فالمعبر لا يشير مذهبه ليصنع الإسلام بصيغة الفلسفة اليونانية أو ليدارى

ميوله الفلسفية بصورة من صور الشعائر الإسلامية ، وبكنه - على نقيض ذلك -
يدفع بالعقل حجة الفلسفة المنطقية ، ويأخذ السبيل على مناهد الطعن في قوعد
الفكر الإسلامي بحجة من حجج المطلق أو الفلسفة ، ولقد يكون المعتزل في تخرجه
من التصرف في عقيدته على حسب تفكيره أشد محافظة وأصعب مراساً من
النبي الذي لم يعتزل لجماعة ، وربما كان خصوم الفلسفة الأجنبية المعتزلة أكثر
عدداً ، وأمضى سلاحاً من خصوم هذه الفلسفة بين المحافظين المتشددين

وقد كان المعتزلة يحكمون إلى العقل في الرد على خصومهم المقلدين كما يحتكمون
إليه في الرد على أشياع الفلسفة الأجنبية وبكمهم كانوا ديبين في تفكيرهم ولم يكونوا
فلسفيين متصرفين ، وأكثر ما يسو ذلك على طبيعة تفكيرهم حين يعرضون لمسألة
الصعات ودلالاتها على وحدة الذات ، فإنهم عاجلونها بالنظرة العقلية إلى الألفاظ
ومعانيها ولم يعالجوها بتفكير الفيلسوف ولا بتصرف الشاعر فيما وراء الطبيعة .

ويشك المؤلف في سبب إطلاق اسم المعتزلة على هذه الطائفة من مفكرى
الإسلام فالمشهور أن الإمام الحسن البصري قال عن واصل بن عطاء : « به اعتزلنا »
فلصقت كلمة « الاعتزال » بواصل منذ ذلك الحين ولكن المؤلف يذكر قصة كهذه
رويت عن قتادة وعمرو بن عبيد ، ولا يرى وجهاً لترويج إحدى القصتين على
الأخرى فربما أطلق وصف الاعتزال على العابد الذي يعتزل الصفوف أو على
« المحايدين » الذي يعتزل الفتان ويمرّد بين الصعيين ، وليس من اللازم أن يكون
الاعتزال خروجاً على عقيدة الجماعة أو اعتزالاً لتقاليد الدين .

ويقسم المؤلف جماعة المعتزلة إلى مدرستين كبيرتين تتفرع عليهما سائر المدارس
الصغيرة في البلاد الإسلامية :

أحدهما مدرسة بغداد التي تدين بالإمامة لشر بن المعتز ، وأشهر ما اشتهرت
به في مسألة القدر والاختيار قولها بتولد الأعمال للعبد المكلف ، ومنه ، على رأى
المؤلف ، يقتبس الأشعريون قولهم بالكسب مع التقدير .

والمدرسة الأخرى - مدرسة البصرة - يقودها أبو الهذيل ويبرز فيها اسم تلميذه
ويتورد في أقوالها بعض مصطلحات الفسفة اليونانية كالجوهر والعرض وعلاقة
جوهر الفرد بتركيب المادة

وكنّا المدرستين لم يكن لهما أثر فيما يسميه المؤلف باللاهوت الإسلامى ، ولم يبق منهما بقية فى غير مجال الدراسة «الأكاديمية» وإنما ظهر من المسوبين إليهم محبة من كبار الفقهاء كالفاضى عبد الجبار والزمخشري وهو خاتمة الفقهاء الكبار فى تاريخ هذه المدرسة التى كان أثرها الأكرم مقصوراً على القدرة العلمية فى احتكام المسلم إلى عقله واجتهاده بعينه ودراسته للخلاص من رتبة التقليد

وقد توسع مؤلف الكتاب فى شرح تاريخ الخلاف على مسألة خلق القرآن ، وربط بينها وبين مسألة الصفات ومسألة الكلام القديم فى نسبته إلى الله ، ولم يفعل قول القائلين . إن القرآن معرفة الله وبه قديم أزلى أبدي لأن الله لم يكن ولا يكون بغير معرفة ، ولم يعش كذلك تصرف القائلين بالخلق بين كلام الله فى أزليته وكلام الإنسان فيما يلفظه بشفتيه ، أو يسمعه من انحدت إليه ، ولم يتخذ له طرفاً من الطرفين يجع إليه أو يمر به رجحان الحجة وصحة التفسير ، ولكنه لزم بين الطرفين حطة الأمانة فى العقل ولم يرد عليها . فإذا كان قد راد من عنده شيئاً فهو سرعة الإصغاء إلى الأقاويل التى لا تستحق الرواية إلا لصرفها بما هى أهل له من الإهمال . ومن ذلك نقله ما كان يشاع عن محمد بن المنفيع ببلاغة القرآن ، واقتراضه أن القائلين بخلق القرآن قد أرادوا بذلك أن يهوبوا أمر الاستقلال بالشريعة عنه ، وأن يجعلوا له منزلة دون منزلة القداسة الأبدية التى تقره فى القدم بالصمة الإلهية ، فما من مسلم قال بخلق القرآن وهو يدعو بذلك إلى الشك فى كلام الله وأنه مستحق للطاعة كما يستحقها كل كلام يأتى من عند الله

دراسة للإسلام المعاصر^(١)

على الساحل الغربى للقارة الأفريقية^(٢)

دراسة للإسلام المعاصر على الساحل الغربى للقارة لأفريقية ، موضوع كتاب ألفه الأستاذ هممرى فيشر ، وخص الكلام فيه بالطائفة الأحمدية ، التى يظهر من ثنايا فصول الكتاب أنه على حبرة واهرة يشئونها حيث يقيم المنتسبون إلى هذه الطائفة فى الهند وفى الديار الأفريقية

وقد بدأ الكتاب بمصر عن حصائص الإسلام وحصائص الوثنية التى تسلكه على رفعة واحدة من القارة الأفريقية ، وأدار مساحته على أربعة أبواب : الباب الأول منها يشرح فيه العوائد الإسلامية عامة ويتناول بالشرح نواحيها الخاصة حيث تتصل بالشعوب الوثنية مؤثرة فيها أو متأثرة بها ، على نحو يحالف بعض المحالمة مراسم العادة وأشكالها فى الأقطار الأخرى والباب الثانى يجمع تاريخ الطائفة الأحمدية منذ نشأتها بالهند فى أواخر القرن التاسع عشر ، ويتتبع أدوار نشأتها إلى أن قام بالأمر فى الطائفة «محمود أحمد» اس صاحب الدعوة غلام أحمد القادى ، فانبثقت الطائفة قسمين أحدهما المشهور باسم جماعة لاهور ، وهو يقترب شيئاً فشيئاً من عقائد أهل السنة ويفارق شيئاً فشيئاً بعض الدعوات التى خالفت عقائد أهل السنة عند نشأة الطائفة ، والقسم الآخر هو الذى تولى الدعوة بين الوثنيين من أهل أفريقية ، ورسم لتبث الدعوة خطة للنزود إلى القسائل الوثنية ، وسماها بخطة الجهاد السلمى ، محاولاً بها أن يحتنب كل عمارة طاهرة تنهر الوثنيين وتوقع فى نفوسهم أن الدين الجديد يعاديههم وينفصل عنهم كما ينفصلون عنه ، بغير أمل فى اتصافهم والتقارب بين الطرفين ، وذلك فى حدود المحافظة على جوهر العقيدة الإسلامية والترخص ببعض الشئ ، فى قشور المظاهر وأشكالها

(١) الأهر ديسمبر ١٩٦٣

A study in contemporary islam on the west african coast (٢)

والسابع الثالث والرابع يشتملان على خلاصة تاريخية للأعمال التي قام بها المبشرون بدعوة العنافة ثم قام بها ولاية الأمر لتوطيد لحكم الإسلام وتنظيم الحياة الاجتماعية بين القبائل التي تحولت عن الوثنية .

والمفهوم من جملة هذه الأبواب أن الدعوة نجحت في توحيد الشعائر الاجتماعية العامة ، وهي صلوات الجماعة والأعياد وصيام شهر رمضان وأداء فريضة الحج بالتعاون بين القادرين عليها والعاجزين عنها .

فالصلوات لجامعة يشترك في أدائها حمهرة المسلمين من الدعوة أو المتحولين عن العبادات الوثنية ، وتزدحم المساجد الكبرى بالمصلين أحياناً حتى تمتد صفوفهم إلى الطرقات والأسواق حول تلك المساجد الكبرى .

وصلوات الأعياد - خاصة - يذكر لها أثر بليغ في تهذيب الحكام وإصلاح أدة الحكومة ، لأنها المناسبة التي يقف فيها الحاكم أمام الله وأمام الشعب ، ويجدد عهوده على السر والتقوى وتوثيق عرى المودة بين الرعاة والرعايا

ويقول المؤلف بطلاً عن مصادر التشير التابعة للكنيسة الكاثوليكية : إن المبشرين الذين يقدمون إلى البلاد وهم لا يعرفون جانب القوة في الدعوة الإسلامية هناك كانوا يسألون زملاءهم : ما هو الجانب الحسن في هذه الدعوة؟ فيقال لهم : إنه الإيمان بالتوحيد ، وإقامة الصلوات العامة ، ورعاية الصيام في موعد من السنة .

ويذكر المؤلف أن رعاية شهر الصيام قد تغفلت في تقاليد الفوم حتى أصبح الوثنيون يتجنبون القتال فيما بينهم خلال شهر رمضان ويعتبرونه شهراً حراماً لا يجوز فيه حمل السلاح ضد الأعداء ، ولو لإدراك الشر ورد العدوان القديم بمثله .

وفي المسائل التي تسر التلاقي عليها بين الوثنيين والدعاة إلى الدين الجديد مسألة التراتيل الدينية في الأذكار العامة فإن الأمريقي معروف بمحبته للعناء وارتياحه إلى المحاسن التي يتروم فيها بالأحسان والأهزيح ، فاستعان الدعاة بعبادات الفوم المطبوعة في عباداتهم الموروثة على اجتذابهم إلى محافل الذكر التي يرتلون فيها الأناشيد ويذكرون فيها اسم الله وصلوات أحمد والدعاء بدلاً من عبارات السحر والطلاسم التي حطوها من كهانهم عبدة الأصنام والأرواح والشياطين .

وبرحص الدعاء مع أساء القبائل في عادات التصحية والتقدم بالقرابين من الحيوان

والشمار إلى معابد الوثنية ، ولكنهم يجتهدون في تحويلها من شعائر الوثنية إلى شعائر التقرب بها إلى الله للإحسان والصدقة أو للاشتراك بالطعام في الولائم العامة

وتعد رحله الحج من أقدس المراسم وأحبها إلى المسلمين الأفريقيين ، ينتظرون موعدها ويرحبون بالعائدين من الديار المقدسة بين أهل الغربة من أقارب الحجاج أو جمهرة العرباء عنهم ، ويحسونها فرصة اجتماعية يتعاون المؤمنون على أدائها ، فيصطحب القادرون من يستطيعون الإنفاق عليهم لزيارة بيت الله الحرام وأداء الفريضة في موعده ، ويتسرع الأغنياء الذين يحال بينهم وبين السفر لمن يريد السفر من الفقراء ولا يقدر عليه ، ويعتقدون أن ثوب المسافر من كثواب المقيم الذي أخلص النية للحج ولم يقدر عليه لمرض أو مانع لا اختيار له فيه .

وبما حرص عليه الدعاة المحدثون أن يجتهدوا غاية اجتهادهم في تبديد كل ما علق بأذهان الوثنيين من الوهم عن معنى الجهاد في الإسلام وأن المسلم لا يستبجح قتل الوثني بالسيف في كل حال ، ولا يوجب عداوة الوثني لغير مسب ما لم يقا له بالعداء ، ويحضر عنده الدعوة إلى دينه بالحكمة والموعظة الحسنة ، فإما كان ابتداء الجهاد بالسيف في تلك الأقطار بعد عودة أبي بكر بن عمر من المغرب لتتوفيق بين أمراء الموحديين وتوحيد كلمتهم في صد العدوان من أمراء الوثنيين الذين أعلقوا أبواب بلادهم في وجه الدعوة الإسلامية ، ولولا أن الأمراء الوثنيين حملوا السيف لصد الإسلام عن سبيله لما تصدى لهم أمراء المسلمين في ميادين القتال .

ولكن أصحاب السلطان في البلاد ألقوا في روع أتباعهم أن الدعوة إلى الإسلام لا تعنى شيئاً غير القتال واستباحة الخالصين من البحاريين والمسلمين وجاء المبشرون بعد القرن السابع عشر فجعلوا همهم كنه أن يؤكدوا هذا الوهم وأن يبالعوا في إظهار الفرق بين دعوة التبشير ودعوة «الجهاد» كما فهموه وتوارثوه فهمه منذ سنتين

فلما امتدأ «المجاهدون» المحدثون دعوتهم أعلنوا أنهم خرجوا لجهاد «السلمي» ولم يحملوا السيف ولا هم يعلمون بينهم وبين الوثنيين موضعاً للحلاف يصعب انتقام عليه بالموة والإقصاع ، وترخصوا في قبول العادات والنقائيد التي يألفها الوطنيون ولا يسهل تحويلهم عنها دفعة واحدة ، ولا هي مما يبعدهم عن الإسلام في جوهره أو يتعنر على العادة الحديثة أن تحل فيه محل العادة الموروثة ، لأنها قد تصطبغ بصيغة الإسلام

مع بعض التعديل ، كما حدث في مسألة الفرائض ومسألة الأذكار والتراويل

ويروى المؤلف عن الباحث الحديث في تاريخ الإسلام «ترمنحهم» أهم العقائد التي يشترك فيها جميع المتدينين في أفريقية الغربية من مسلمين أو وثنيين الذين لم يصلوا إلى الإسلام ولكنهم ماصون في طريقهم إليه ، ومنها الإيمان بالحساب واليوم الآخر ، والإيمان بعالم الغيب في حياة أخرى غير الحياة الدنيا ، وربما فصلت عقيدة الحياة الأخرى عروة العلاقة في الأسرة التي جعلت لأبناء والأسلاف أرباباً يعدها الوثني وأرواحاً يتزلف إليها ويستظر الدعوة منها ، فإن عقيدة الحياة الأخرى قد تقيم القنطرة التي تيسر للأحياء العبور إلى الأموات وتيسر للأموات العبور إلى الأحياء ، ولكنها لا توحد بين السماء والجحيم ، ولا تسمح بانتظار بعث الميت والبقاء فيه وبين دريته قبل يوم الشور ، ولكن العقيدة قد ينأى تذييلها من طريقين أحدهما أن الأسلاف لم يكونوا في جميع الأحوال عوفاً صالحاً للأحلاف ولا كانوا على أهبة الإجابة والتلبية لدعاء الأساء والأحفاد ، فلا أسف على إقصاء الكثيرين منهم عن المحارب ، والطريق الآخر أن بعض الوثنيين سبق إلى خواتمهم أن تحويل الأب عن الوثنية جأثر بعد انتهاء أحله ، فقد كان أحد الأبناء يهوى ابنه عن دخول الإسلام وطن ينهاء حتى فارق الحياة ، فلما قصي بحبه داء الفتى بالإسلام وظهر له أبوه في المنام فلم يسمع منه زجراً ولا تأييداً عني محالفة وصاياه ، بل علم منه أنه هو نفسه قد اهتدى إلى الإسلام .

وهذه السلوى التي لجأ إليها ضمير الفتى المسلم لتوفيق بين حقوق الأسلاف في عقيدته الأولى وبين عقيدة الإسلام في الروح بعد الموت مثل حتى من أمثلة البقايا التي تتحلف في ضمير الوثني المهتدى إلى الإسلام من شوائب ديانتها السلفية ، ولكنها مرحلة من مراحل الطريق لعلها قريبة الزوال ، ولعلها أهون من رفضه وارتداده وهو على أبواب الخطيرة الإسلامية .

على أننا نتساءل ونتساءل بعد الإمام بعقبة الجهود في ذلك لجهد السلمي : ألا يحور أن تصح أفريقية العربية ميداناً لتوحيد الكلمة وتقريب المقاصد بين الدعوة إلى الإسلام على هدى الكتاب والسنة ؟ غاية ما يرحى أن تطل تبت البلاد ميداناً للتقريب بين طائفة داعية وبين سائر الطوائف من المقبلين على الإسلام .

الإسلام والنظام العالمي الجديد^(١)

- ١ -

في سنة ١٨٨٩ ، ظهر في بنجاب بالهند ، ميرزا علام أحمد القادياني صاحب الطريقة القاديانية المشهورة وأخذ - وهو في الخمسين من عمره - يشر الدعوة إلى تلك الطريقة التي تشتمل على عقائد كثيرة لا يقرها الإسلام ، ولا يقبلها دين من الأديان الكتابية ، ومن ذلك أنه هو نبي الله المرسل وأنه عيسى بن مريم قد بعث إلى الأرض في جسد جديد!

وفي سنة ١٩١٤ تطورت تلك الطريقة إلى حركة إسلامية تنكر نبوة القادياني ، وتنكر الحكم بالكفر على من يؤمن بالقرآن ورسالة محمد ﷺ كائناً ما كان الخلاف بينه وبين الشيخ الدينية الأخرى ، وتحول إلى هذه الحركة كثير من أتباع القادياني وكثير من طلاب التجديد بين السنن والشيعة ، وظهرت لهم كتب كثيرة ، باللغة الأردية واللغة الإنجليزية في التبشير بالإسلام ، مع ترجمة خاصة لقرآن الكريم ، وتواريخ موجزة للنبي وحلفائه الرشدين

وليس تفسيرات هذه الجماعة لنكبات والسنة التي توافق مذاهب الفقهاء اسبق عليها ، لأنها تصرف معاني القرآن إلى تأييد أقوال لم تخطر للأولين على بال ، وليس من مقننات الدين في رأي لأقدمين أو أحدثين .

ولكن الحق الذي لا مراء فيه أن هذه الطائفة هي أوفر للمسلمين نشاطاً ، وأشدّهم دواعياً عن العقائد الإسلامية ، وأكثرهم احتشاداً في نشر فصائل الدين وأعرافهم بالأساليب التي توجه بها الدعوة إلى العقول الأوروبية ، وإلى جماهير المتعلمين في الشرق والعرب على الإجمال .

وهم يحسنون انتهاز الفرص من الحركات العالمية والدعوات الثقافية حيثما ظهرت في قطر من أقطار المعمورة ، فيدركونها في إنائها بكتاب يشبّهون فيه أن

(١) الرسالة .

الإسلام أصبح من تلك الدعوة لعلاج المشكلة التي تتصدي لعلاجها ، ويقربون ذلك دائماً بالآيات القرآنية والأحداث النبوية والشواهد التاريخية ، وإن فسروها بعض الأحيان تفسيراً لا يقرهم عليه السلفيون أو المتزمتون

فلما دعا الباريون والشيوعيون إلى «نظام عالمي جديد» لإماد العالم معصلاه الروحية والسياسية والاقتصادية بادر كاتب من أقدر كتاب هذه الجماعة إلى تفصيل موقف الإسلام من هذه النظم أو من مذاهب الفلسفة التي تعتمد عليها ، فصدر باللغة الأردنية مؤلف قيم لهذا الكاتب القدير ، وهو السيد محمد علي مترجم القرآن إلى اللغة الإنجليزية ، ثم نقله حديثاً إلى اللغة الإنجليزية فوصل إلينا عن طريق العراق .

قرر السيد محمد علي في الصفحات الأولى من كتابه أن خلاص السوء الإنساني لا يتأتى ولا يعقل أن يكون بغير عقيدة روحية عاطفية صالحة لتوحيد الناس في نظام واحد ، يتكفل بحاجات الضمائر والأجساد ، وأن تقسيم الأوراق بالأسهم والدوائق والسحاتيت قد ينشئ بين الناس - إذا نيسر - شركة من شركات التجارة وتوزيع الأرباح ، ولكنه لا يخلق في الإنسان تلك العواطف النبيلة التي تسمو به على مطالب الحسد ، وتكبح فيه نوارع الأثرة العمياء وهو معتبط قرير القواد .

قال : ولم تغلح عقائد العرب في إحياء هذه العاطفة الروحية ، لأن أوروبا قد انخرمت بالمسيحية عن سوائها ، ولأن المسيحية تُعنى بخلاص روح الإنسان في حياته الآخروية ولا تعرض عليه حلاً من الحلول التي تقلل التطبيق في الحياة الدنيا بين وحدة عالمية من جميع العناصر والأقوام ، ولو كانت مسيحية العرب علاخاً لمشكلات الإنسان في العصر الحاضر لعالجت تلك المادية الماركسية التي طغت على الروميا الحديثة وقتلعتها من أحضان الدين والإيمان بالله .

أما الشيوعية فيقول السيد محمد علي إنها شر من نظام رأس المال ، لأن شرور هذا النظام تتفاقم كلما قل أصحاب رؤوس الأموال ، ومن خطط الشيوعية أنها تحصر رؤوس الأموال في يد واحدة هي يد الدولة ، وهي نهاية شر على الإنسان من حصر رؤوس الأموال في يد فرد واحد أو جملة أفراد ، لأن الدولة تصول بالقوة التي لا تقاوم ولا يملكها الأغنياء بالغاً ما بلغ نصيبهم من الشراء . وقصاري الأمر إذا

اجتمعت الأموال في أيدي الحكومة أن يصبح الحكام عصبة مستعلة تحمل مع الرمس محل الشركات والمصارف الكبرى ، وتصول على الناس بقوة لا تملكها تلك المشآت

لكن الإسلام وسط بين نظام رأس المال ونظام الشيوعية ، يفي المستوى عن النظامين معاً ، ويأخذ بالاحتاس منهما بالقدر الصالح للجماعات .

فهو يكره للمسلم أن يكتز الذهب والفضة قناطر مقنطرة ، ويحرم عليه الربا الذي ينبع لأصحاب رؤوس الأموال أن يستغلوا جهود العاملين بغير جهد مفيد ، ثم هو يأمر بالزكاة ويسمح بالملك ، ويطلق السبيل للمنافسة المشروعة ، فلا يقتل في المموس دوحى السعى والتحصيل .

وقواعده لخلق صالحة لإنشاء الوحدة العالمية ، لأنه يسوى بين الأحتاس ، ولا يرى للأبيض على الأسود فضلاً بغير التقوى ، ويعترف للأفراد بالمساراة والحرية ، ويجعل الحاكم «إماماً» يقتدى به ولا يجعله رياً متصرفاً بمشيئته فى عباد الله .

ومن هنا يتقرر المستقبل فى العالم الحديث لمبادئ الإسلام ، لأنه يقود العلم كله إلى الخلاص بعد فشل رأس المال ، وفشل الشيوعية ، وقصور العقائد الروحية الأخرى عن تدارك أحوال المعاش وتدير الحلول للجماعات الإنسانية فى مشكلات لاجتماع والاقتصاد وما يتفرع عليها من مشكلات لأحلاق والأداب

وللإسلام يحول بين الإنسان وبين الاستغراق فى شئون المعاش ومطالب الأحساد ، لأنه يناديه إلى حصرة الله العلى الأعلى خمس مرات فى الليل والنهار ، فلا تطفى عليه البرعات المادية وهو يتردد بين عالم الروح وعالم الجسد من الصباح الباكر إلى أن يضمه النوم بين جناحيه

وقد دبر الإسلام مشكلة البيت ، كما دمر مشكلة السوق والسياسة ، لأنه فرص للمرأة حق الاكتساب ولم يجعلها سلعة تباع وتشتري لإشباع الشهوات ، وربما دبرت لها حكومات الغرب ساعات للرزق وأجوراً فى حالات البطالة ، ولكنها لا تدبر لها «البيت» الذى هو ألزم لها من القوت والكساء .

وما يؤكد السيد محمد على أن الإسلام يركى وحده الروحية ويفص هذا الروح على كل رواح إلا أن الشرائع لا توضع لحالة واحدة ، والدنيا كما تراها

عرضة لطوارئ الشذوذ والاحتلال ، ومن هذه الطوارئ ما يقصص الذكور عدة ملايين ويريد الإناث بمقدار هذا القصر في عدد الذكور ، فضلاً عن الريادة التي تشاهد في عدد النساء من كل أمة على وجه التقريب في غير أوقات الحروب وأن تعدد الزوجات في أمثال هذه الأحوال لخير من البعاء المكشوف ، فقد قبلت المرأة الأوروبية مشاركة الخليئات المعترف بهن وقبلت مشاركتهن في الخفاء ، وأصبحت هذه المشاركة نظاماً اجتماعياً مقررًا لا معنى بعد قبوله وتقريره للاعتراض على تعدد الزوجات الشرعيت ، فهو على الأقل أصول للأداب ، وأكرم للنسل ، وأجمل بمنزلة المرأة من مهانة لا بتذال ، وأصلح للاعتراف به في علاقات المجتمع وقوانين الأخلاق .

والكتاب لطيف الحجم لا ينحور مائة وخمسين صفحة من كتب اللغة الإنجليزية الصغيرة ولكنه واف بموضوعه متقن في أدائه واستدلالة ، ولا نعهده من كسب الشئير التي تراد بها الدعوة بين الأمم الأوروبية وكفى ، فقد يحتاج المسلم لقراءته والتأمل في مراميه ، ليعلم أن المذهب المادية والدعوات السياسية التي تمحصر عنها أفكار المشريرين بالإصلاح في أوروبا وأمريكا لا تحتوى من أسانيد الإقناع ما هو أقوى وأجدر بالمأكد من هذه الأسانيد .

مِن الدَّعوة الهِنْدِيَّة (١)

أُلقي منذ كتبت بالرسالة مقالتي عن الإسلام والنظام العالمي الجديد كتباً ورسائل مطبوعة وغير مطبوعة ، يتكلم المطبوع منها عن القادياني والجماعات التي ساصره أو يفصل عنه ، ويفسر الرسائل الأخرى بعض ما يؤخذ على الدعوة القاديانية أو تُحى على هذه الدعوة باللائمة وتحاسبها على التفرقة بين المسلمين وإحداث الدخ في عقائد الإسلام

ومن أعجب هذه الرسائل رسالة مؤيدة للقادياني من زاوية الخصى بلمشق طبعت في أعلاها الشهادتان والسملة ، وأن الدين عند الله الإسلام ، ثم هذه العبارة : « بحمده ونصلي على رسوله الكريم وعلى عبده المسيح الموعود ، وقال كاتبها : « إن أحمد عليه السلام ادعى النبوة حقاً ، وليس في ادعاء النبوة مخالفة للإسلام أولدين من الأديان كما تقولون ، وإن المسيحية تنكر مجيء أحد بعد المسيح عليه السلام سوى رجوعه إليها بالرغم من وجود ذكر النبي بعد المسيح في أول إصحاح من إنجيل يوحنا . وأم القرآن المجيد فأياته بيّات واضحات في بقاء الوحى وبقاء النبوة غير التشريعية ، ولا يوجد غير آية واحدة تخالف حسب تفسير الشيوخ الآيات الكثيرة المفسرة بعضها لبعض وهي قوله تعالى : « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » . ولم يتفق المفسرون على معنى لفظ خاتم النبيين بمعنى أحرمهم رسماً ، وهم لو تفقوا لنجم عن اتفاقهم تكذيب للقول بمجيء المسيح عليه السلام . فإن لفظ خاتم النبيين لا يفيد نقطاع النبوة بل على العكس يفيد ضرورة عرض كل دعوى من دعاوى النبوة على خاتم النبيين أجمعين محمد ﷺ ليحكم ويصدق على صحتها سواء كانت تلك الدعوى قبله أم بعده . . » إلى آخر ما قال في هذا المعنى .

على أن البريد قد حمل إليها رسائل أخرى تنفى عن القادياني أنه ادعى النبوة

بمعنى من معانيها فى الأديان الكتابية ، ومن تلك الرسائل رسالة مطبوعة فى لاهور أدعتها «الجماعة الأحمدية لإشاعة الإسلام» وذكرت فى صدر البيان عن هذه الجماعة أن مقاصدها هى خدمة الإسلام وتوحيد المسلمين والدفاع عن الدين وتشر الدعوة إليه ، وأن أعمالها لخدمة هذه المقاصد هى تأليف بعوث للتبشير فى أنحاء العالم وتدريب المشرين على هذا العمل ، وترجمة القرآن الكريم إلى لغات مختلفة ، واستخدام الإذاعة فى تعميم الآداب الإسلامية . ثم شققت ذلك بتلخيص عقائدها وهى :

١ - إنا نعتقد باحتتام النبوات بمحمد ، كما قال مؤسس الجماعة : إنه لا نبي من الأولين أو الآخرين يعقب نبينا المعظم ، وإن الذى يسكر حتم النبوات يعتبر خارجاً عن حظيرة الإسلام وليست له عقيدة فيه .

٢ - إنا نؤمن بأن القرآن الكريم كتاب الله الكامل والأحر ، وأنه باق لم يسخ منه جزء إلى آخر الزمان .

٣ - إنا نحسب من المسلمين كل من يشهد بأن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله كائناً ما كان المذهب الإسلامى الذى ينتمى إليه .

٤ - إنا نعد حضرة مرزا علام أحمد القادياى مؤسس الحركة الأحمدية مجدد القرن الرابع عشر ، وثبت أنه ما ادعى النبوة قط كما قال بكلامه : إبنى لا ادعى النبوة . . . وكل ما ادعاه أنى محدث ، وأن معنى المحدث هو الذى يسمع كلام الله . . . كلا ، ما أن مدع للنبوة وما مدعى النبوة عندى إلا خارج على الدين ، وإنا يكذب على الدين يحسونتى من أولئك المدعين .

وأياً كان الصديق فيجب يقال عن دعوى النبوة هذه من إثباتها أو إنكارها ومن قبولها أو رفضها فإن الصديق الذى لا شك فيه هو أن أتباع القادياى يخسرون بادعاء النبوة له ولا يكسبون ، وأن حركة التجديد فى الإسلام يقوم بها الداعون إليها دون حاجة منهم إلى أمثال هذه الدعاوى التى تعص الألبصار وتعرق المتفقيين ، ولا تستميل إليها أحداً من المؤمنين بالأديان فى المشرق أو المغرب ، إن لم تجمعهم كنهم على محاربتها وتكفير المبشرين بعقائدها .

وبعد فنقول . إنا قرأنا شيئاً من الكتب التى ألفها المجددون المسلمون فى الهند

من لا يقولون نبوة لقادياني ولا يقولون بأنه هو المسيح الموعود أو مهدي آخر الزمان ، فلم نر في أقوالهم ما يمس عقائد الإسلام وإن كانت لهم تفسيرات وتخريجات لا يقرها جميع الفقهاء ، وشأنهم في التفسير والتخريج شأن الفرق الإسلامية التي تجتهد في الدين ولا تنقص أصلاً من أصوله ، فهي في حظيرة الإسلام لا تضيق بها حرية البحث التي كفلتها للباحثين هذه الديانة السمحة في مختلف العصور والأقطار .

وبما تتميز به هذه الجماعات المجددة أمران :

أحدهما فرط النشاط في التبشير بالدعوة المحمدية وترجمة الكتب النافعة في هذا المسعى إلى اللغة الإنجليزية على الخصوص مع المثابرة على نشرها وترويجها في أمريكا ، وأوربة والحرر البريطانية ، وإسناد هذا العمل إلى فئة من الشبان المثقفين المستعدين لدفع الاعتراض العقلي أو العقلي بالعقول التي يفهمها العربيون ، أو بالصيغ التي يتوسع أولئك الشبان في تفسيرها على نحو كفيل بالإصغاء والإقناع . وقد يتصرفون في تفسيراتهم كما قدمنا ولكنهم يقتربون بها من عقول المتعلمين والمتعلمات هناك فلا يعرضون عنهم كما يعرضون عن الحامدين المتحجرين في فهم الكلمات واخرواف .

والأمر الآخر طرائفهم العجيبة في تطبيق النصوص القرآنية على الأحوال الزمانية ، لأنهم يعمدون أن أحول الزمان لا تخرج على مدلول تلك النصوص إذا اهتدى دواء البصيرة إلى فهمها وحسن تطبيقها ، وبما دام القرآن كتاباً باقياً لا يختص به عصر دون عصر ولا قبيلاً دون قبيلاً ، فهو يحتوى في مضامينه كل ما يشعل المؤمنين به في العصور الحديثة كما احتوى في مضامينه كل ما شغل المؤمنين به منذ نزل في عصر النبي ﷺ .

وهذا مثل من أمثلة كثيرة من طرائف هذه التطابقات العصرية التي ينشرونها باللغة الإنجليزية ، وهو رسالة عنونها «تسليم أوربة وأمريكا» أي تحويلهم إلى عقيدة الإسلام Islamization of Europe and America مؤلفها السيد محمد علي مترجم القرآن إلى الإنجليزية ومؤلف الرسالة التي خصناها عن نظام العالم الجديد

والسيد محمد علي يستشهد في صدر هذه الرسالة بكلمة للكاتب المشهور

برناردشو في «الروح» يتساءل فيها بأن الإمبراطورية البريطانية كلها مستدين بديانة إسلامية منقحة قبل نهاية القرن العشرين»

ويقول السيد محمد علي إن هذه السبوة قديمة في القرآن والتوراه ، ولكن الذين يقرأون الكتب السماوية لا يعطون لمعانيها ولا يفسرونها على وفاق مدلولها فإن ظهور المهدي أو المسيح بين المسلمين مقرون بظهور المسيح الدجال ، وسيادة بعض الأمم التي سميت بـ «أجوج ومأجوج»

والقرآن الكريم يقول عن «أجوج ومأجوج» إنيهم سينطلقون في اليوم الموعود «وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا» وأنهم كانوا محبوسين «حتى إذا فتحت «أجوج ومأجوج» وهم من كل حذب يسلون» .

قال السيد محمد علي : وقد ذكرتهم التوراة في سفر حرقبال حيث جاء فيه «يا ابن آدم اجعل وجهك على حوج أرض مأجوج رئيس روش ماشك وتنبأ عليه وقل : هكذا قال السيد الرب . ها أنذا عليك «أجوج رئيس روش ماشك وتوبال ، وأرجعت وأصع شكائم في فكي وأخرحك أنت وكل حيثك حيلاً وفرساناً كلهم لابسين أحمر لباس ، جماعة عظيمة مع أتراس ومجان كلهم ممسكين السيوف : فارس وكوش وفوط معهم كلهم بحن وخودة ، وجومز وكل جيوشه وبيت توخرمه من أقاصي الشمال مع كل حيثه شعباً كثيراً معك» .

أو حيث جاء فيه «ها أنذا عليك «أجوج رئيس روش ماشك وتوبال ، وأردك وأقودك وأصعدك من أقاصي الشمال .

فهل يدري القارئ ، من هم «أجوج ومأجوج هؤلاء في رأى السيد محمد علي ورأى القادياني من قبله؟

إنهم هم الروس والإنجليز ، أو السلاف والنيوترون في الشمال ، ومصديق ذلك أن «ماشك قرية من الموسكو ، وأن الروس قرية من الروس ، وأن ميشك وتوبال بهران في روسيا تنسب إليهما موسكو وتوبلسك العاصمتان المعروفتان الآن ، وأن الروس والإنجليز معاً قد جمعوا شعوب الأرض للنغالل على ملك الدنيا ، وسيقلب بعضهم على بعض ويموج بعضهم في بعض ، قبل أن يجمعهم داعي السماء إلى كلمة الحق والسلام .

وهذا مثل من أمثلة التفسيرات والتطبيقات التي قلما إلهم ينرخصون فيها ويمتدنون بها إلى حوادث الرمان الحاصر وما يليه ، ويعتقدون أنها وما سيعقبها من الحوادث العالمية مكونة في آيات الكتب السماوية تستظر من يفتح الله عليه فهمها وإدراك معانيها فيتولى تبصير الأمم بما أودرتهم به السماء وما ساقته إليهم من البشائر ، وهم لا يفقهون .

أما المتح أو الإلهام فقد جاء في كتاب من تأليف ميرزا أحمد القادياني نفسه عنوانه «تعاليم الإسلام» وموضوعه حل المشكلات الدينية من وجهة النظر الإسلامية . وفيه أن العقل والتعليل مصدران من مصادر المعرفة الإلهية ولكلها في مرتبة دون مرتبة الإلهام . وأن الإلهام درجات تبدأ بالحدس الصادق وتسمى «عين اليقين» وهو أعلى مراتب الملهمين ، وأنه من الخطأ أن يخلط بين الإلهام النفسي والإلهام الديني ، لأن الإلهام العنق قد يكون في الشر كما يكون في الخير وقد يقال إن اللص وهو يحاول سرقة المكان سححت له خاطرة ملهمة لتيسير السرقة ، ثم تيسر الهرب من الحراس ، وليس هذا من الإلهام الرباني في شيء ، وإن يكون إلهام الله في سبيل إحقاق العليا والكشف عن الأسرار الروحية والنفاد إلى لباب الخلق وبواطن الحكمة الإلهية ، وهذه مرة يرتقى إليها طلاب الوصول إلى الله ومنهم ميرزا أحمد القادياني في رأيه وأراء مريديه .

وبعد فإن الأمر الخدير بالعناية من حركة هؤلاء الدعاة أنهم يدعوب محاسن الإسلام ويحتهدون في نشره وتفسير الاعتراضات العربية التي تتجه إليه ، وهي هذه الحركة مع مشكور ، وإن لم تبلغ مرماها المقصود من «تسليم الأوربيين» والأمريكيين لأنها تزيل الشبهات ، وتدحص الأكديب ، وتقرب بين الشعوب ، وترفع المسلمين في أطار الأمم التي كانت تطن بهم الطنون .

أما التفسيرات التي ذكرنا أبعاً مثل من أمشتها فلا ضير فيها ما دامت تصون الإيمان ولا تفسد العقل بما يناقص التفكير لمستقيم . ويعود فقول إن العبورين على الدعوات المحددة على اختلافها يحسرون بالعلو في تعظيم أئمتهم ، ويكسبون لعقائدهم ولأولئك الأئمة كلما وقفوا على حد الاعتدال .

الإسلام والنظام العالمى الجديد^(١)

٢ -

هذه هى الدعوة الثابتة من الهدى فى هذا الموضوع ، وهو موضوع الإسلام وأحكامه التى تتكفّل للعالم نظام شامل يحل معصلاته ويوثق الروابط بين أممه ويسيطر فيه الطمأنينة والسلام .

وقد كتبت فى الرسالة عن الدعوة الأولى لصاحبها المولى محمد على الكاتب الهندى المشهور ومترجم القرآن إلى اللغة الإنجليزية .

وهذه الدعوة الثابتة هى خطاب ألفه ميرزا بشير الدين محمود أحمد فى الاجتماع السنوى للجماعة الأحمدية بقاديان سنة ١٩٤٢ ، ثم ترجم إلى اللغة الإنجليزية وعينت الجماعة بشره قبل بضعة شهور .

ويدو من مطالعة هذا الخطاب أن صاحبه يوجه النظام العالمى إلى حل مشكلة الفقر أو مشكلة الثروة وتوزيعها بين أمم العالم وأفراده ، وأنه يعير شتّى على اطلاع واف محيط بالأنظمة الحديثة التى عولجت بها هذه المشكلة ، وهى نظام العاشية ونظام السازية ونظام الشيوعية ، وبعض النظم الديمقراطية .

ولكنه يعتقد بحق أن المشكلة لا تحل على أيدي الساسة وزعماء الأحرار والحكومات ، وأنه لا مخلص من القوة الروحية فى حل أمثال هذه المشكلات ، لأن الحل الشامل لكل مشكلة إنسانية عامة يتناول لإنسان كله ولا يهمل فيه الباعث الأكبر على الطمأنينة وإخماسة للحير والصلاح ، وهو باعث العقيدة والإيمان .

وقد عرّض للأديان الكبرى القائمة فى الهند خاصة - والعالم عامة - من حيث علاقتها بهذه المشكلة وتدبير الحلول التى ترود العالم بنظام جديد أفضل من نظامه المعصوب عليه ، فأتى بالأدلة الكثيرة على اشتراد للإسلام بينها بمزية الإصلاح وتميمه بين جميع الأحاسيس والطبقات فيما مضى وفى هذا الزمن الحديث

(١) الرسالة ١٩٤٦/١١/٢٥

فالديانات الهدية تعلم الإنسان أن تعادى الطبقات قضاء من الأزل لا حياة منه مخلوق ، لأن الأرواح تنقل من جسد إلى جسد جراء لها على ما جنت فى حياتها السابقة من السيئات والدنوب ، فهي تخرج إلى الدنيا بنصيب محتوم لا يقبل التسديل ولا يحسن تبديله إذ استطيع - ولن يستطيع - لأنه هو سبيل التكفير والارتفاع من حياة إلى حياة . وقد جاء فى قواين مانو : «إن المرد من طبقة السودر لا يجمع الثراء ولو قدر عليه ، لأن ثراه يؤلم نفوس البرهمنين» . فإد ادحر بعض ائدان حاجاته التى تزيد على القوب والكساء حق للحكومة أن تجرده من ماله وتتركه للمعاقة والكفاف ، وهكذا تقوم المواصل بين الطبقات المختمة ، وهى طبقات البرهمن والكشاتريا والعاشيا والسودر وهم أخس الطبقات

وتقصى القوانين البرهمنية بسداد الديون بالعمل إذا كان الدائن والمدين من طبقة واحدة . فإما إذا كان لمدين من طبقة أعى من طبقه الدائن فلا سداد إلا بالسعد أو العين متى تيسر ، ولا إلزام بالسداد قبل التيسير .

وتجب التفرقة بين الإحوة فى حقوق الميراث إذا اختلفت أمهاتهم فى الطبقة الاجتماعية . فيقسم الميراث كله إلى عشر حصص متساوية ، ويعطى ابن البرهمنية أربعاً وابن الكشاترية ثلاثاً وابن العاشية اثنين وابن السودر حصّة واحدة على قدر ما يجوز له من الثراء .

ومن حق البرهمن أن يستولى على ملك حادمه من السودر لأنه وما ملك فى طاعة مولاه .

وإذا كان الإصلاح العالمى محتاجاً إلى حماسة العقيدة ، وكانت هذه عقيدة المؤمنين بالديانات الهدية فلا رجاء فيها لعلاج مشكلة الفقر وإصاف الطبقات المظلومة والتقريب بين الناس فى حظوظ الحياة

أما الإسرائيلىة فهى بأحكامها المصوص عليها فى كتاب العهد القديم تنخص اليهود ولا تعم الأمم جميعاً ، فحرام على اليهودى أن يقرص يهودياً بالرب ولا يحرم عليه أن يتقاصى الرب لمصاعف من أبناء الأمم الأخرى . ولا يجوز استرقاق اليهودى طول حياته ولا تريد مدته فى الرق على سبع سنوات ، ولكن استرقاق العبيد فى الأمم الأخرى جائز فى كل حال ولا حرج عليه . وهى لإصحاح العشرين

من سفر التثنية يقول العهد القديم لشعب إسرائيل : «حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكن الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك ، وإن لم تسالك بل عملت معك حرباً فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بسيف ، وأما النساء ولأطفال والبهاائم وكل ما في المدينة كن غنيمة فتعمرها لنفسك . . وأما مدن هذه الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستق منها نسمة ما . . . »

هذه هي حدود المعاملة بين المؤمنين بالعهد القديم وسائر بني الإنسان ، فإذا سادت هذه المبادئ فالأم كلها عبيد مسخرة وأبناء إسرائيل وحدهم هم أصحاب السيادة والثراء .

والمسيحية كما هو معلوم لم تعرض لمسائل القانون ومسائل السيامة أو الاجتماع ، ولهذا كنت دعوتها إلى السلام من الدعوات التي تصادم بالواقع وتتمحصر عن حروب لا تنقطع وحزازات بين الطبقات لا يهدأ لها أوار كما يرى في تاريخ أوروبا الحديث والقديم

لكن لإسلام يتناول مسائل الاجتماع ومسائل العلاقات بين المحاربين والمسلمين فالمسلم يقاتل إذا طُم وأُخرج من دياره ، وبأمره كتابه إذا ملك الأرض أن يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ بَصَرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٢٩) الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله وتولا دفع الله لناس بغضهم ليعتصم صوامع وبيع وصوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً وليصرون الله من بصره إن الله لقوي عزيز ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ .

ولا يحير لإسلام بلنسى أن يكون له أسرى : ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَتَّخِذَ فِي الْأَرْضِ نُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

ثم هو يستحب للمسلم أن يأخذ الفداء . ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَصَرْبُ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخَسُّوهُمْ فَشُدُّوا الرِّبَاقَ فَأَمْ مَّا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۖ ﴾ .

ومن بقى فى الأسر وطلب المكاتبه فقول طلبة واجب على مولاه . ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ بِمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۖ ﴾ .

ولا مطمع فى معاملة بين الشعوب المتعادية أعدل من هذه المعاملة وأقرب منها إلى إزالة العداء والغضب . فأب المعاملة بين المسلمين فهى كسيلة بانصاف جميع الطبقات ، لأن الناس يتفاضلون بالأعمال الصالحة ولا يتفاضلون بالمظاهر والانساب ، وسكر الإسلام الحور فى توزيع الثروة فلا يحيز لأحد أن يكتز الذهب والمفضة قناطير مقنطرة ، ومن جمع مالا وحب عليه أن يؤدي زكاته للفقراء والمساكين ومصالح الجماعة بأسرها ، وعليه أن يعين من يطلب منه العون قرصاً حسباً لا مضاعفة فيه للربا ولا تجاوز فيه لما كاسب البيع والشراء ، فلا تطيف للكيل ولا مغالاة بالربح ولا عمالة ولا خدع ، وكل يجرى بعمه وسعيه دون إثارة لأحد على أحد فى حيرات الأرض جميعاً . ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۖ ﴾ فلا يزعم إنسان أو جمع من الناس أنه أحق بالأرض من سواه

فالنظام العالمى لا يعتمد على عقيدة أصلح لتعميمه وحسن النفوس عبه من العقيدة الإسلامية ، وقد أجاز الإسلام الوصية وتب لها المسلمين فى بعض الحالات . فإن قصرت موارد الزكاة فموارد الوصية لاتضيق بما يطلب منها ، لأنها تشمل جميع الأموال والعروض ، وقد حث «الميرزا أحمد القاديانى» أتباعه على التوصية بمقدار من ثرواتهم يتراوح بين عشرة وثلثها ، للإتياف معها على الدعوة والإصلاح .

ولم يقصر المؤلف - أو صاحب الخطاب - مقارلاته ومقارناته على العقائد الدينية التى أحصل الإشارة إليها فيما أسلفناه ، ولكنه خصها بالعناية لأن العقيدة كما قال

هى أمل الإصلاح الوحيد ، ونظر معها إلى التنظيم السياسية أو الاجتماعية فإذا هى قاصرة عن بغيتها من الوجهة العملية والوجهة الروحية على السواء .

الفاشية - ومشها البارية - لا تؤسس نظاماً عالمياً مكفول الدوام لأنها تقوم على تفصيل الجنس والعصبية القومية ، هلا مكان فيها للأمم العالم غير الخاضوع والتسليم للجنس الذى يزعمون له حق السيادة والرجحان

والشيوعية تعطل المواعث الفردية ، وتسلب النفس حوافز الاجتهاد وتجعس الحياة مادة فى مادة لا يتحللها قس من عالم الروح ، وتأخذ للدولة كل ما زاد من ثمرات الأفراد ، ولم تملح مع هذا فى إصناف العاملين ، لأن السادة فى روسيا الشيوعية طبقات فوق طبقات فى الترف والمتاع . وقد روى الصحفيون أن وليمة الدولة للمستتر ويكسى مُدّت فيها ستون صحيفة من ألوان الطعام ، فهل يجعلون هذه المائدة مثلاً يقتدى به انفتدون؟ أو هى بذح مقصور على قريب من الضيوف دون قريب؟



والترجمة الإنجليزية التى اشتملت على تفصيل هذه الخلاصة تقع فى مائة صفحة من القطع المتوسط وبعض صفحات ، وحسبها صبيحة لا تذهب فى الهواء إذا انتشرت بين قراء الإنجليزية الأوربيين والأمريكيين ، بل الهنديين والشرقيين ، ولكننا نقرأ فيها أن مؤلفها يُلقب بأمرير المؤمنين وأنه الخليفة الثانى للمسيح الموعود ، ومعنى ذلك أنه من مريق القاديانية الذين يدينون برسالة «مسيحية» أو مهدية للقاديانى ولا يكتفون له بوصف الاحتهاد كما اكتفى المولى محمد على وأصحابه من اليهود المسلمين . فنعجب لهذه الألقاب التى تحيط بالدعوة بين المسلمين أنفسهم بأسباب الخبط والإنكار ، وسأل . ما هو موضع هذه المسيحية الجديدة أو هذه الخلافة إذا كانت الحجج التى ساقها المؤلف كلها من المراجع الإسلامية الأولى ، ولا زيادة عليها من وحى جديد؟

فحير للدعوة أن تقصى عنها هذه الألقاب التى لاتريدها قوة وتأخذ منها كثيراً من قوتها بين المسلمين أنفسهم ، فضلاً عن غير المسلمين

عقيدة الذات الإلهية في الإسلام^(١)

ورد البحث في عقيدة الذات الإلهية عند أم العالم خلال كتاب مطول ألفه الأستاذ نورثروب Northrop وحمل عنوانه ملتقى الشرق والغرب The meeting of East and West مسجراً فيه تقريب وجهات النظر في المسائل الجوهرية المختلف عليها بين أم الحضارة العصرية وأم الحضارات الموروثة

ويُرى من عنوان الكتاب أنه مقصور على الملاقاة بين الشرق والغرب جملة واحدة من وجهة عامة ، ولكنه عند تفرع البحث يتحقق من صعوبة هذه الملاقاة قبل الملاقاة بين أم المغرب على حدة ، وأم المشرق على حدة في أمور كثيرة تُمترح بتلك المسائل الجوهرية . فلماذا قبل الملاقاة بين الشرق والغرب من التوفيق بين الحضارتين اللاتينية والسكسونية هي المارة الأوربية ، ولماذا بعد ذلك من التوفيق بين قوى التفكير الديمقراطي وقواعد التفكير المطلق بين أم تلك القارة ، ولا عني في هذه الحالة عن التوفيق بين وجهات الاعتقاد والتفكير من الحضارات القديمة ، وبين هذه الوجهات منذ أوائل العصر الحديث ، مع التناقض بينهما من بعض جوانبها والتشابه بينهما من الجوانب الأخرى

ولكن هذه الأمور جميعاً تنتهي عند المؤلف إلى فرق أساسي واحد : وهو فارق الإيمان بالربوبية في ذات إلهية والإيمان بها في معنى غير ذات ، كالمعنى الذي يقول إنه متمثل في العقائد البرهمية الأولى .

ويحسب المؤلف أن الإيمان بالربوبية في ذات إلهية من شأنه أن يدفع الأمم إلى طلب العلية على غيرها ، وأن طلب العلة ليس بالشعور الأصيل عند المؤمنين بالربوبية في معنى ليست له ذات قائمة تريد وتنفرد بالسلطان المطلق في الوجود كنه منذ القدم ، فإن برعت الأمم إلى طلب العلية لم يكن مزعها هذا من قس العقيدة الدينية ، بل يعرض لها من قبل الدوافع الحيوية الأخرى أو البوغث السياسية .

والأهم التي تؤمن بالذات الإلهية هي عند المؤلف مجتمعة في أتماع الديانات الأربعة الكبرى ، وهي الموسوية والمسيحية والإسلامية والشنتوية Shintoism ديانة اليابان .

ويكاد المؤلف أن يجعل الإسلام قبل غيره مثلاً للديانات التي تؤمن بالربوبية في ذات إلهية ، لأن إيمان المسلم لم تتم فيه الملاءمة بالروح العلمية التي تولدت مع الزمن من إحصاع الحقائق للتحارب الحسية كما حدث في معظم الأمم الغربية ، ولا بد من تعديل هذه النظرة ليؤمن المسلم بالله على ضوء الأصول العدمية ولا يحتفظ بإيمانه كما كان في عهد النبي محمد صلوات الله عليه .

ويتساءل قائلاً : من من المعقول أن يُنظر من ثمانين مليون مسلم في الهند على هذه العقيدة أن يلاقوا جيرانهم على وفاق يطول أمده ، مجرد استقلال الهند عن سلطان الدولة البريطانية ؟ ..

نقول : إن ضلال التفكير عند هذا المؤلف على سعة اطلاعه وكثرة شواهد يتراءى من ملاحظة واحدة يخرج بها القارئ من كتابه ولا يحتاج إلى سند غير الأسابيد التي اعتمد عليها .

فلو أن المؤلف حجب التبحة التي وصل إليها عن القارئ ولم يصرح بها في بحوثه المتتبعة مرة بعد مرة لخار للقارئ أن يفهم أن صاحبنا ألف كتابه ليثبت أن العقيدة الإسلامية هي أصلح العقائد لإيمان الإنسان بالله في عصر التحارب الحسية والقوانين التي يسمونها أحياناً بالقوانين العلمية .

فلا يعرف ضلالاً في التفكير يذهب بالإنسان من مقدماته إلى تقبصها المقل لها في الطرف الآخر ، كما ذهب هذا المؤلف من مقدماته الطويلة إلى تبيجه المعكوسة

وأول ما يؤخذ عليه أنه ظن أن الإيمان بالربوبية معنى بغير ذات فكرة مستطاعة هي الضمائر الإنسانية أي كان تعبيرها عن تلك الفكرة مكنمات العبادة أو مصطلحات الفلسفة ..

فربما قال الفلاسفة الأقدمون من السراهمة إن الإله فكرة مجردة بغير ذات تقوم بها ، وبكسهم لا يبدؤون الكلام في خلق إلا ظهر من كلامهم أن هذا الإله ذات

تريد وتقدر وتنفس لأرواح الطبيعة وترفض الأرواح العاصية ، وتتجلى تارة على مثال الرب الخالق وتارة على مثال الرب الحافظ ، وتارة على مثال الرب المهلك أو المبد ، وقد نقل عنهم أبو الريحان البيروني الذي صلع على كتبهم بلعتها القديمة تفصيلات عقائدهم في الربوبية أحسن نقلها كما ظهر بعد ذلك من ترجماتها إلى اللغات لأوربية الحديثة بأقلام الثقات من علماء تلك السعات هنوداً وأوربيين ، وما نقله عنهم أنهم يؤمنون بالإله برهم ويعتقدون أنه المطلق الذي لا يوصف ولكنه يتجلى على أشكال من الآلهة والمخلوقات ، وأن فيش Vishnu جعل نفسه أرضاً وجعل نفسه ماء وجعلها ناراً وجعلها قلوياً نبض من صدر الأحياء .

فليس هناك من يرى بين أصحاب العبادات في تحقيق الذات للمعنى الإلهي إلا أن الإسلام وأصبح متفق العقائد وأن القائلين بالمعنى الإلهي الذي لا تقوم به ذات مريدة يقررون بالرأى ما يقصونه بالشرح والتفصيل .

فإذا انتهينا من الإيمان بالذات الإلهية إلى الاختلاف على صفاتها فالإسلام يعطين الصفات التي توافق حاجة الصمير إلى الدين في جميع العصور ، وأخصها عصر القوانين العلمية ، بل عصر القوانين العلمية كما انتهت إليه عند أحدث المحدثين .

إن الصمير الإنساني لا يطلب الإيمان لينحول به مع كل تجربة علمية إلى معنى من المعاني الإلهية ملق على قياسه ومنواله .

فليس من شيء يملأ العقل والصمير بالحيرة والاضطراب كما تملؤه تلك المفردات التي يلغى بعضها بعضاً أو تتوقف صحة بعضها على صحة سواه ، فكلها من المعارف المضافة أو المعارف النسبية التي لا يقوم عليها ركن ثابت من أركان الإيمان والثقة بالوحد المطلق والحياة السرمدية .

إن الصمير لم يذهب في طريقه الطويل إلى الثقة بمعنى الوجود ليسرها نارة بمذهب داروين وتارة بمذهب كوبرنيكس وحيثاً بمذهب كارل ماركس وحيثاً آخر بمذهب برجسون وسواهم من يتفلسفون أو يستخلصون القوانين العلمية والنواميس الطبيعية .

وهي هذا العصر - على التخصيص - قد نبت للعلماء أن التجربة العلمية لا تستطيع أن تقرر قانوناً يشنا عن تصرف الكهرباء كيف يكون هي اللحظة التالية .

فهذا الجزء الصغير الذي تتألف منه المادة كلها وتترتب حركاتها جميعاً على حركته داخل الذرة وخارجها مجهول الحركة كل الجهل ولا يمكن الحكم عليه إلا على وجه التقريب قياساً على إحصاء المصادفات ، وليس هناك من قانون عددي معروف غير المقابلة بين هذه المصادفات ، وأخذها بالظن عدداً كما أخذوها بالظن أمس وقبل أمس إلى نهاية الرصد المعلوم .

والعلماء القائلون بذلك أمثال إيستر وهابر سرج وشروونجر وغيرهم وغيرهم يضربون الأمثال لهذه القوابين الإحصائية ببعض المشاهدات اليومية التي تصور لنا كيف تتم المصادفة مع التحقيق .

يقولون مثلاً : إن شركة التأمين تستطيع أن تسي حسابها وتنظم عملها وتنجي أرباحها من تقدير نسبة السيوت التي ستعرض للحريق بواحد في الألف من حملة السيوت ، ويصدق حسابها على وجه التقريب فيحترق أثناء السنة مائة بيت أو نحو ذلك ، ولكن هذه الشركة لو سئلت عن بيت واحد معين بين هذه السيوت لم تستطع أن تدل عليه قبل احتراقه ، وهكذا يفعل العالم الطبيعي حين يقرر نسبة الكهارب التي ستتحوّل من جسم معوم مع لمؤثرات الطبيعة الخاصة بالرصد والإحصاء ، فبن ذلك الجسم يحتوى ملايين الملايين من الكهارب التي ترصد حركاتها على ذلك المثال فتعرف بالنتيجة النسبية ولا تعرف على التعيين والتحقيق في كل واحد منها ، وتلك هي القوابين الطبيعية كما يفهمها أساطين العلوم الطبيعية في هذا العصر الذي يظن لأستاذ بورثروب أنه جاء بالقوابين المصححة للدين .

مصادفات سجلها بموفات لإحصاء على حسب العادة ، وليس فيها حقيقة واحدة تقسم الإيمان على قرار مكس ، وأين من طبيعة الإيمان قضية تقوم على مصادفات شركات التأمين ؟

وندد القوابين الطبيعية ونسطر إلى القوابين لاجتماعية التي يدعى لها أصحابها أنها محور التقدم والجمود في حياة الشعوب

مدد خمسين سنة كان الأكثرون بين أصحاب هذه القوابين يسعون على لإسلام أنه دين جمود لأنه يعوق المعاملات الاقتصادية ولا يسمح بتنظيم المصارف

والشركات لتحريمه فروع الربا وإنكاره لكل ربا الجاهلية على كل صورة من صور البيئة أو الخمة .

فلم يرض حيل على هذه الصبغة حتى سمعنا أصحاب قوانين أخرى يصيحون بأن رأس المال كنه نكسة على الإنسانية وعائق من عوائق الحرية الكريمة والعمل النافع فماذا يسمع الناس بين هذه القوانين من إله «سبي» يتحول مع التجارب الحسية والفروض التي يسمونها بقوانين الطبيعة؟

إذا كان للناس أن يحسوا بالحاجة الخاصة إلى الإيمان بالربوبية في ذات إلهية لها كمالها لمطلق ومشيتها الساقية فحاجتهم في هذا العصر إلى تلك العقيدة أمس وأقوى من حاجتهم إليها في عصر الدعوة المحمدية ، لأن ترعرع الأساس الذي يسد قوانين العلوم الطبيعية لم يثبت - علمياً - كما ثبت في عصره هذا المرسوم بسمه بتحقيق والتقرير .

هنا يشعر الصمير الإنساني بالحاجة إلى الإيمان بالكمال المطلق والحكمة الخالدة بين أشتات من المعارف والفروض كلها مضاف إلى غيره وبعضها يقصر بعضاً في مدى عمر الإنسان .

والإسلام يأذن للمسلم أن يبدل فروضه الحسية كيفما شاء وشاءت له تجارب الحس وضرورت الحياة الموقوتة ، ولكنه لا يأذن له ولا يضطره إلى تدليل إلهه كما خرجت له تجربة جديدة من هذا العمل أو ذاك وكلما قل قائل باسم العلم أنه يثبت هذا وينكر ذاك ، وليس وراء كل ثابت ومسكر إلا قلق الصمير ثم اعتماده على الوجود المطلق بين هذه النسب والإضافات .

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾

﴿ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ .

والله الذي يحيط بكل شيء ، وبكل رمى ، هو إله الإيمان ، وطليعة الإنسان .

العالم الإسلامى والجغرافيا الدينية^(١)

تتفرع من العلوم العصرية مباحث مستقلة ، يطلق عليها بعضهم اسم العلوم لاستقلالها بموضوعاتها الخاصة ، وبكها أخرى أن تسمى بالمباحث كما سميناهم ، أو تسمى بالدراسات العلمية ، لأنها أقرب إلى التطبيقات التى تنى على العلوم المتفرقة منها إلى العلم المنفرد بقواعده وبحججه وأصوله

وعلى سبيل المثال نذكر فى هذه الدراسات ما يسمونه بعلم السياسة الجغرافية وهو غير الجغرافية السياسية ، وقد شاع شيوعاً كبيراً بعد الحرب العالمية الأولى لأن هذه الحرب قد أظهرت بالأمثلة الحية جعل الموقع جغرافى فى توجيه السياسة الدولية وتوحيد خططها وإن تبدلت حكوماتها بين ، مراطورية وجمهورية أو بين حكومة مطلقة وحكومة دستورية .

ولا يلتبس موضوع الجغرافية السياسية وموضوع السياسة الجغرافية Geopolitics فإن الجغرافية السياسية مبحث قديم يعلم الناس موضوعه المفصل منذ زمن بعيد ، ويتطرون منه ما هو من بابها بعير التباس بين أبواب المباحث المتعددة ، وكل ما ينتظره الناس من مباحث الجغرافية السياسية أن تزودهم بالمعلومات عن بقاع الأرض من جانب أحوال الدولة ونظم الحكم وعلاقات البلد بما حوله وبسائر بلدان العالم للعمور .

أما السياسة الجغرافية فالدس بدرسوها يهتمون قبل كل شىء بموقع البلد وما يعرض هذا الموقع على سكانه من خطط الدفاع والهجوم ومن أساليب الإدارة والحكومة ، ويريدون أن يثبتوا بدراسة هذا الموقع الجغرافى أنه هو الذى يلى على الدولة سياستها فى جميع أطوارها فلا تستطيع ألمانيا - مثلاً - أن تعبر قواعد سياستها ما دامت فى موقعها من أوروبا الوسطى وما دامت محدودة فى البر والبحر بحدوده المعروفة ، ولا تستطيع روسيا من عهد خانات إلى عهد بطرس الأكبر إلى

(١) لأهر سبتمبر ١٩٥٩

عهد الثورة الشيوعية أن تسلك في علاقاتها بالشرق والعرب مسلكاً يحالف مسلكها المرسوم في جوهره ، وإن اختلفت الذرائع والأسماء .

وقياساً على هذا المبحث الذي مسوقه على سبيل المثال نشأ في العهد الأخير مبحث طريف خطير يسمونه بالجغرافية الدينية أو بجغرافية الدين Geography of Religion ويدل اسمه على موضوعه بغير حاجة إلى الإسهاب في شرحه . فإن هذا الاسم يوحى بالعلاقة بين الدين ومواقع البلاد ، ويدل على اعتقاد الباحثين في هذا الموضوع أن للموقع شأناً في انتشار دين من الأديان أو في إعراس السكان عنه ، أو حاجتهم إلى وسائل الإقناع أو وسائل الإكراه في قبوله ، وإن للموقع شأناً في تقديم بعض هذه الوسائل على بعضها وتعليب الإقناع أحياناً على الإكراه أو تعليب الإكراه أحياناً أخرى على الإقناع .

وقد تأخر ظهور هذا المبحث إلى المئذنة الأخيرة من القرن العشرين ولم يكن من المستطاع أن يتقدم بالظهور قبل ذلك ولو برمس قصير ، إذ كان من اللازم قبل ظهوره أن تستوفي المعلومات الجغرافية عن بقاع الأرض وعن سكانها وعن عقائدهم من قديم عصورهم إلى حديثها ، وكان من اللازم أن تنعقد المقاربات المفصلة على حسب الإحصاءات الدقيقة بين أدوار التاريخ وأطوار العقائد ودرجات الزيادة والنقص في عدد المتدسّنين بالدين الواحد مع تقلب لأدوار والأطوار .

ولم يكن عدم ذلك كله ميسوراً قبل هذا القرن العشرين ، وإن كان بعض هذا العلم قد عرف في العهود الماضية ، وقبل على أساسه ما قيل من أن أديان التوحيد تناسب البلاد التي يقل فيها اختلاط العاصر الطبيعية ، وأن قوى الطبيعة إذا تعددت في بعض الأقاليم كان لها أثرها في اعتقاد أهلها أن لقوى الإلهية متعددة من ورائها .

من على أساس البحث في الجغرافية الدينية جرى الحوار - بين السيد جمال الدين ، وأرنست رينان - في أثر الإسلام وأثر المسيحية بين الصحراء وبلاد الخصب والعمراة

، لا أن المعروف من هذا البحث قبل القرن العشرين لم يكن يريد على اعرف يومئذ من تفاصيل الجغرافيا والتاريخ وإحصاءات الحوادث والسكان ، فلم يكن على

أوسع وأعمه كافيًا لاستقلال المبحث بموضوعه ذلك الاستقلال الذي سارع بعضهم أن يحسبه علماً بين سائر العلوم

ولا نرى أن المعارف والإحصاءات التي تعتمد عليها دراسات الجغرافية الدينية قد ختمت اليوم أو أذنت بالانحسار ، ولكنها قد وصلت - ولا ريب - إلى الحد الذي يقبعا بقيام موضوع البحث وارتفاع النتائج الصحيحة من تطبيقه ، ولو لم تثبت هذه النتائج حتى الآن كل الثبوت .

وقد توسع الباحثون في تطبيق هذه الدراسة على الديانات الكبرى وهي مقدمتها الديانة الإسلامية ، فكتب علماء الفرسيين والألمان والأسبان والإنجليز وغيرهم كتباً متنوعة منها الإسلام والحياة المدنية ، وعن خصائص الإسلام وطبائع البدن ، وعن الإدارة الإسلامية في القارات المختلفة ، وعن أثر الإسلام في الثروة والحكومة ، وعن الإسلام والبيت والحاضرة ، وعن الإسلام وثمار الثروة والزراعة ، وعن علاقة المواقع الجغرافية بكثرة الحجاج وقتلتهم وأثر هذه العريضة في الشعوب التي ينتسبون إليها . - إلى أشباه ذلك من مطارج البحث وزواياها المتشعبة ، ومن أسماؤها في ذيل كل كتاب يلم بها نتبين أنها مكتبة صافية ، لم يصل إليها في لغتنا العربية غير القليل منها .



وأخر ما اطلعنا عليه من هذه الدراسة كتاب ألفه الأستاذ إكسافيه بلان هول Xavier planhol بالفرنسية منذ سنتين وترجم إلى الإنجليزية في هذه السنة فظهر فيها باسم عالم الإسلام The World Of Islam ودار البحث فيه على موضوعين من أهم موضوعات هذه الدراسة الحديثة ، أحدهما عن التجمع وأحوال المعيشة المستمدة من الدين في الأقطار الإسلامية ، والآخر عن العوامل الجغرافية التي ساعدت على انتشار الإسلام .

وبحق لا يكتب هذا المقال عن هذا الكتاب لنيسط القول في آرائه وتقديراته فإنها - أولاً - أكثر من أن يشملها مقال واحد مع ارتباطها بقواعد البحث في جغرافية الدين كما وردت في الكتب الأخرى ، وهي - ثانياً - لا تحسب من العلوم المقررة التي بلغت نضجها وسرر بين الباحثين سريان المبادئ المتفق عليها ،

ومعظمها لا يزال في الواقع أقرب إلى التحسسات المحتملة التي قد يعدل عنها أصحابها ويعيدون تحميمها على وجه آخر في مناسبات أخرى .

وانما تذكر الكتب لتورد مثلاً من آرائه أو نظرياته ، ومثلاً من أخطائه ومعالطاته ، ومثلاً من عيوب هذه الدراسة الجديدة كيما كان تطبيقها على الإسلام أو على غيره من الأديان .

ومن أمثلة آرائه التي نستند إلى أصل صحيح في أحكام الإسلام أن الإسلام يماسك الأمصار ويطلبها ويبحث عنها لأنه يقيم فيها لأحكام ويتم فيها فريضة الصلاة الجامعة ومراسم الدين التي يتولاها الأئمة ، فهو أدنى إلى طبيعة المدن وإن كان مسبته هي الصحراء .

ومن أمثلة آرائه عن الدين الإسلامي خاصة بين لادين أنه ينتشر حيث تتوازن العوامل السياسية والعوامل الطبيعية ولا يحتاج الأمر إلى مجهود صاعى لتغليب أحدهما على الأخرى ، وقد ينتشر بالوسائل السلمية في الأقاليم التي تنص فيها المدن والمزارع والعبات كما حدث في الجزر الأندونيسية .

ولأنه نتقل هذه الآراء على أنها ملاحظات تاريخية تصف الواقع فيما مضى ولا تتعرض للأسباب والتعليقات ، ولكن مؤلف هذا الكتاب ومن يجارونه من الباحثين في هذه الدراسة الجديدة يخطئون كثيراً كلما انتقلوا من وصف الواقع إلى تعليقه وتفسيره ، ثم يقادون للخطأ هو عبة على الرغم من قدرتهم على كشفه وتصحيحه لو كلفوا أنفسهم بعض الجهد في المقارنة ، والمقابلة بين نظائر هذه الأحوال في ظل الديانات الأخرى .

يقولون مثلاً إن الإسلام قد احتل في عصر من العصور شواطئ البحر الأبيض حول البحر كله من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب ، ولكنه تراجع عن الشواطئ الأوربية لسبب يتعلق بطبيعة الدين الإسلامي ولا ينحصر في أسباب السياسة ولا في المقاومة من جانب الأمم الأوربية .

وهذا السبب الذي يتعلق في رأيهم بطبيعة الدين الإسلامي هو أن الإسلام يطر إلى الزراعة بظرة الترفع وإهمال ويكر حق الرارح في بعض مبادئه إلى حاسب حق المالك أو حق الدولة ، وأن السبب نشأ في سثة تجارة بين علة قومه

من التجار ورويت عنه أحاديث يندر فيها بالدل من يشتغلون بالسكة واغراث .
قالوا : وهذا هو سبب الفشل الذي منى به المسلمون في الشواطئ الأوربية لأنها
لا تستعنى عن الزراعة ، ونجوا منه في الشواطئ الأفريقية لأن الزراعة فيها لا تحتاج
إلى مجهود ولا تزال الصحراء من وراءها تعتمد على المطر والمرعى .

والعجيب في هذا الرأي أن ينفق عليه حملة من الباحثين في الجغرافية الديرية
مع سهولة الاهتداء إلى وجه الصواب فيه لو أنهم يشاءون أن يلبثوا إليه .

والإسلام قد بقي في وادي النيل وهو أرض زرية يعمل فيها الملاحون عملاً
مجهداً يشق على الملاحين في غيرها . ولهذا عرف عن رعاها أنهم أفوياء
الحمائم ، لظن تعرضهم لأشعة الشمس التي لا يقوى غيرها على إطالة المكث
تحتها ، وروى هيرودوت فيما رواه أنه زار ميدان المعركة بين الفرس والمصريين فوجد
بقية لحمهم الفارسية تتفتت من اللمس اليسير ، ولا ينفقت شيء من اللحم
لمصرية وإن اشتد الصعظ عليها .

وقد احتلت الزراعة في الشواطئ الأوربية بعد جلاء المسلمين عنها ، وكانت في
عهدهم أصلح حالاً بما صارت إليه بعد ذلك في عهد أمراء الإقطاع ، ثم بقصى هذا
العهد كله لاحتلال أمور الزراعة وقلة المحاصيل الزراعية في أيامه ، ثم صبحت
شئون الملاحين بعد ظهور الآلات الحديثة وتقدم انعمون الرعية وانتظم الثروة على
أسس الصناعة وتبادل انواردات والصادرات إلى البلاد الشرقية والغربية ، وقد رال
أمراء الإقطاع وزالت دولة الإقطاع كله بعد مقاومة من أساء وطهم تهون حدة إلى
جانب المقاومة التي لقيها المسلمون لأسبابها الديرية ، والوطنية ، والسياسية

وشبهه بهذا الخطأ عن الإسلام والزراعة خطأ آخر من أخطاء هؤلاء الباحثين عن
الإسلام والحضارة أو الإسلام وتنظيم المدنية .

فبعدهم أن المدنية الإسلامية في العصور الماضية ، قل اتصال المسلمين
بالخصارة الأوربية ، قد حلت من « الإدارة البلدية » Municipal وكان حلوها هذا
دليلاً على الخلو من الشعور بالتمية الواحدة والتركيب الاجتماعي ، ولم تخل المدن
الأوربية قط من المجالس البلدية وما يقوم بوظيفتها من الهيئات المعنية بأمر الحكومة
أو الهيئات المنتخبة ، وهم لا يعرفون لذلك علة غير قيام المدن الإسلامية برعاية

الوالى دون غيره وقلة الشعور فى نفوس السكان بالرابطة «المدنية» التى تربط أبناء المسكن الواحد كما يرتبط الأعضاء فى «شخصية حية» مشتركة .

والعجب فى هذا الخطأ أيضاً أنه من الأخطاء التى يسهل تصحيحها لولا اتجاه الرغبة إلى الاتهام وانصرافها عن الإنصاف .

فالمدينة الأوربية وجدت فيها «الإدارة البدنية» إلى جانب السلطة الدينية التى كانت تتولاها الكنيسة وتفرص بها مشيئتها على المجتمع فى شئون الأعراس والمآتم والرقانة على المدارس والحفلات وشعائر «التطويب» عند عقد الزواج وعند الإذن بالدفن وعند الاعتراف وسماع المواعظ وإعطاء البركة وما إليها من مراسم السلطة الدينية التى لا وجود لها فى الإسلام .

وفيما عدا هذا الإشراف من السلطة الدينية لم يخل البلد الإسلامى قط من التنظيم الذى يدل على الشعور بالرابطة المدنية فى أضيق نطاق وأوسعها على السواء ، ومن العجب أن يتحدث الجغرافيون الدينيون عن روال الرابطة المدنية فى حواضر الإسلام وهم يذكرون من خصائص هذه الحواضر أنها تقيم لكل صناعة حياً مستقلاً تآوى إليه ، وإن أحياء الحاضرة تتعدد على حسب الروابط الدينية والعصرية كما تتعدد على حسب الصناعات والقناعات ، وما كان لقوم يفقدون شعورهم بروابط المسكن أن يشعروا بروابط الحرفة أو يشعروا بروابط «الحى» الواحد حيث يقيمون .

وقد حفلت كتب الأدب العربى بمفاخر المدن وصيوبها حتى بين الفلاسفة والحكماء فضلاً عن الهجائين من الشعراء والأدباء ، وحتى بين أبناء المدن الأندلسية التى يحسبها الجغرافيون الدينيون حجة من حجج الفشل فى حضرة الإسلام ووراعة الإسلام ، وقد تفاخر ابن رشد وابن زهر يوماً بمدنيتيهما فى حضرة المصور بن عبد المؤمن من حلفاء الموحدين فقال ابن رشد لرميله الفيلسوف : «ما أدرى ما تقول غير أنه إذا مات عالم بأشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع كتبه حملت إلى أشبيلية»

ولا يقع هذا المحر بالمدينة بين فيلسوفين طبيعيين ثم يقال : إن الشعور «بالشخصية المحلية» مفقود فى تلك المدن بين عامة الناس الذين تشغفهم هذه العصبية .

بل نحن لا نحتاج إلى أكثر من نظرة سريعة في الأسماء المشهورة لنعلم أن النسبة إلى البلدة سابقاً لكل نسبة محلية في ديارنا الإسلامية ، فلم يحص رمن بعيد على اقتران كل علم من أعلام الناس بعلم من أعلام المدن ، ولا تزال بقية من تلك الأعلام تذكر ثم تذكر بعدها نسبتها إلى الإسكندرية أو طنطا أو المنصورة أو أسوط أو جرجا أو قنا أو أسوان ، وغيرها وغيرها من القرى والبلدان ، ولم ينس الناس عندما هذه النسبة إلا في العصر الذي اتصلوا فيه بالأوربيين والغربيين خلافاً لما يزعمه الجغرافيون الدينيون

والخطأ الذي نحنم به هذا المقال خطأ عام يتعرض له الباحثون في هذه الدراسة حيثما كان موضع البحث وكيفما كان تصويره للعلة العامة التي لا يختصون بها الإسلام والمسلمين .

ولذلك الخطأ العام أنهم يبالعون في الرجوع بالخصائص الروحية إلى أصول مزعومة من الخصائص الجغرافية وخصائص المدينة والبادية ، فكثيراً ما تكون الظاهرة الروحانية مناسبة للإقليمين النقيضين في جميع الأوصاع وفي الأوصاع الجغرافية والسياسية على الخصوص

إن اعتقاد «التوحيد» مثلاً يناسب أبناء البادية لأنهم يطمشون إلى إله الواحد الذي يعتصمون به في كل مكان رحلوا إليه ، ولا يلقون كل اعتمادهم على إله محدود في بقعة من البقاع يلقونه معهم إذا استطعوا ، وهم لا يستطيعون .

والدولة الإمبراطورية أبعد شيء عن نادية الصحراء ، لأنها مجموعة من مدن عمرة وأقطار متداخلة وشعوب متعددة ، ولكنها تنتهي أحر الأمر إلى الإيمان بإله واحد كما تدين بسطان واحد يحيط شعاب الحكم في جميع الشعوب .

وإذا تسارى الموقع وقيصه في قسول العقيدة فليس المرجع كله إذن إلى الخصائص الجغرافية ولا إلى هذا المكان وذاك المكان ، وإنما المرجع وراء المراجع جميعاً إلى مكان مكون لا تراء العين .
لرجع إلى أعماق الصدر .

الفصل الخامس
مباحث
في القرآن الكريم

قصص القرآن، دروس وعبر^(١)

أكثر القصص التي وردت في القرآن الكريم من قصص الأنبياء في جهادهم لتبليغ رسالتهم وبشر دعوتهم ومقاومة خصومهم من دوى السلاطان الذين أنكروهم وحالوا بينهم وبين هداية أقوامهم ، وأكثر ما جاء فيه من أخبار الدول والملوك فإنما جاء في سياق أخبار الدعوة مع سائر أخبارها إلا أن يكون الأنبياء ملوكاً كما اتفق لداود وابنه سليمان عليهما السلام . ففي هذه الحالة تروى أخبارهم لأسبابها المذكورة في قصصهم لأنهم كانوا في سلطانهم في غنى عن معاومة خصوم الدعوة كما فاقمها الأنبياء الذين ترجعوا بدعوتهم إلى الأمم فحال بينهم وبينها مذكورها وأمرأزها .

وإذ روجعت قصص القرآن الكريم مراجعة دقيقة نسين للناظر في مصاميحها أن عبرتها الأولى دروس ينتفع بها الهداة ودعاة الإصلاح . إذ كان من فرائض الإسلام الاجتماعية أن يندب من الأمة طائفة ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وكان من الأقوال الواردة في الأثر أن العلماء ورثة الأنبياء ، فلا يحلو مكان الدعوة في الأمم بعد الأنبياء ، ولا يستغنى هدايتها عن الأسوة الماثلة أمامهم في جهاد الهداية والإصلاح .

ولقد كملت دروس الدعوة في قصص الأنبياء حتى لا مريد عليها ، فلا نستخلص من دروس الدعوة في التاريخ كله درساً واحداً ليس له نظير ، أو نظائر ، في قصص الأنبياء التي جاء بها القرآن الكريم .

من تلك الدروس أن الجهلاء يفسدون للأمر والسطوة ولا يفسدون للحجة والدليل ، ويريدون من صاحب الدعوة كما جاء في قصة نوح أن يكون ملكاً أو تكون عنده حرائر الله ، ويولون له . «قد جادلنا فأكثر جداولنا فأنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين»

(١) الهلال سبتمبر ١٩٥٦ .

ومن تلك الدروس أن أصحاب السيادة في الأمة يكرهون التعبير ويتشبثون بالقديم ، ويأخذون على النسي أن يتبعه من غير دوى السيادة والجاه : فوما براك اتبعك إلا الدين هم أراذك بادی الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين» .

أو كما جاء في سورة ساء : ﴿ وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ .

ومن تلك الدروس أن الجمود على التقاليد الموروثة أكبر أفات العقل البشرى لأنها تعطل تفكيره وتتركه في حكم لآلة التي تسير على بهج واحد في آثار الآباء والأجداد مع اختلاف الزمن وتبدل الأحوال .

ومن هنا للعقائد تحالطها أوشاب الرمن فلا تزال بحاجة إلى التهذيب والتطهير كلما ابتعد العهد بينها وبين مصادرها الأولى .

ومن هنا أن الإصلاح تضحية وعناء وأن الأنبياء كانوا بين فريقين : فريق يكذبه قومه وفريق يقتلونه ، ولا مناصر من القدوة على ما فيها من خطر ومحنة ، ولو لم يكن من دليل غير ذلك على أن الدعوة إلى الإصلاح رسالة إلهية لكفى به دليلاً يعنى عن كل دليل ، فلا مشيئة لمصلح في عمله ، ولو شاء مصلح أن يعمل على ثقة من الأمان والجحاح لما قدم في الأرض مصلحون

وقد برزت بين قصص الأنبياء قصتان مسهتان في أحراء الكتاب لأهم ترويان لما بدأ الرسالة بين أعرق أم الحضارة لإسائية ، وهما أمة وادي الهرير وأمة وادي النيل . وكانت قصة إبراهيم وموسى عليهما السلام من أحل ذلك أسمى القصص بين جميع قصص الأنبياء ، وكانت الثورة فيهما على ضلال العقل في العبادة جامعة لأكثر العبادات المستنكرة في الرمن القديم ، وهي بما يتلخص في عبادة المظوك وعبادة الأجرام السماوية وعبادة عناصر الطبيعة وعبادة الأوثان وتصليل الأبصار والبصائر بالسكر والكهانة .

هذا هو الشطر الأكبر من القصص القرآنية ، يراد به تعليم المصلحين وتربية الهداه ، ولا يراد به سرد أحوال التاريخ إلا في عرض القصة حيث يقتضيه السياق .

• وإن في القرآن الكريم لقصصاً شتى من غير قصص الدعوة أو قصص الجهاد في تبليغ الرسالة ، ولكنها تراد كذلك لعبرتها ولا تراد لأخبارها التاريخية ، ومنها قصة يوسف ، ويصح أن تحسب منها قصة إسماعيل عليهما السلام

فقصة يوسف قصة إنسان قد جرس من طمولته بأفات الطوائع الشريفة ، من حسد الأحرار إلى غواية المرأه إلى ظلم السجن إلى تكاليف الولاية وتدير المصالح في إبان الشدة ومجاعة .

وقصة إسماعيل تتخللها هذه التجارب الإنسانية في عهد الطفولة كذلك ، فيصيه نظام الأسرة باختلاف مكانة الروجة السيدة والروجة المستعيلة ، ونصيبه العربية المنقطعة عن العشيرة وعن الراد والماء ، وتكتب عليه ضريبة العداء وهي في مفترق الطريق بين الهمجية التي كانت لا تتورع عن الذبائح الشريفة وبين الإنسانية المهدبة فتى لا تأبى العداء بالحياة ولكنها تتورع عن دبح الإنسان ، ثم يكتب لهذا العلامة الطريد الوحيد أن يعى إليه أمة ذات شعوب وقائل تتحول على يديها تواريخ العالم على مدى الأيام .

ويشتمل القرآن على قصص غير قصص الأنبياء في دعواتهم وغير قصص الأنبياء في تجاربهم الإنسانية ومنها قصص الملوك والفتية من أهل الكهف وما جاء على ألسنة النمل والنحل والطير ، وما ختمت به قصص الرسالة في دعوة سى الإسلام ﷺ .

وكلها ينبغي أن تقرأ كما تقرأ عظات الهداية وأمثال العبر ، وكلها مع ذلك بما يحتاج إلى الفهم والسديهة من المؤرخ الأمن قبل التهجم عليه بمقياس التاريخ الناقص الذي لا يصلح لقياس الحقائق الوجدانية وأولها حقائق الأديان .

ولمصلحة التاريخ يسفى أن ينظر المؤرخ إلى القصص الدينية في أناة وروية وعدم باختلاف النسق بين العقائد والأخبار .

فالمؤرخون الذين تهجموا في هذا انقام على غير وعى ، وبغير حذر ، لم يلبثوا أن عرفوا الخطأ منهم في حق التاريخ وفي حق العقيدة مجتمعين .

فقد أكرروا الطوفان ثم ظهر أنه كان من أثبت الأحداث في أساء جميع الأمم ، وانكروا غواشى الرحوم والزلزل فظهر أنها كانت في أماكنها وفي أرمستها حيث وصفها كتب الأديان .

ومن دواعي التفسير الوجداني للحدوث أننا نعلم من الدين وحدة الأصل بين أبناء إبراهيم قبل أن يعرف العلم الحديث شيئاً عن وحدة اللغات السامية ووحدة اللغات الهندية الحرفية ، فلو لم تكن هناك حقيقة وراء أسانيد الأديان يتهم من يكرها ، لما أمكننا أن نفهم كيف عرف الأقدمون أن العربية والعبرية والآرامية ولأدومية من أصل واحد ، وأن أبناء إسماعيل وأبناء إسحاق يتمون قلبهم إلى جلم كبير .

ويعجبنا قول بعض العلماء المحدثين في الغرب عن كتاب الوحي الديني أنه «صوت حي» ولا يصح أن يقرأ على غير هذا الاعتبار

والصوت الحي الذي تتسحارب به عصور الزمن وتتجارب به حنايا النفس البشرية - أولى بالأصغاء إليه من قصص التاريخ أو قصص الخيال .

القصة الدينية بين العلم والتاريخ

تغير موقف العلماء كثيراً بين القرن الماضي والقرن الحاضر من القصص التي وردت في الكتب الدينية .

كان ورود قصة في كتاب من الكتب الدينية كافياً عند طائفة من العلماء لإنكارها أو للشك فيها ، وكانوا يذكرون لأخبار أو يشكون فيها لأهم لا يصدقون الأسباب التي تنسب إليها ، فكانوا يحالفون التحقيق العلمي في صميمه وهم يصرحون أنهم يستندون إلى العلم لتمحيص تلك الأخبار

ولنصرب لذلك مثلاً ، إنساناً يقال أنه مات لأنه شرب أبغصه قومه واستعاثوا بساحر قدير ليقتضيه عليه فأهلكه الساحر ، سلطه عليه من الرقى والعرائم ، ونعرض أنك لا تصدق السحر ولا تؤمن بقدرة الساحر على إهلاك من يشاء ، فهذا لا يحير لك - علمياً - أن تذكر موت الرجل ولا أن تذكر أنه شرب أبغصه قومه ، فهذا أهله قد استعاثوا بالساحر ليهلكه ، وكل ما يجوز لك أن تنفيه أن الساحر لم يفعل في إهلاكه ذلك الفعل المنسوب إليه .

والعلماء الذين استندوا إلى العلم لنفي الأخبار والقصص التي وردت في الكتب الدينية كانوا يصنعون شيئاً من هذا القبيل ، لأهم كانوا يذكرون الطوفان أو الزلازل أو المعجزات التي ذهبت بالأمم الخالية ، لأهم - أي العلماء - غير متدينين بالكتب التي جاءت فيها الأخبار والقصص وذكرنا ما ذكرت من وعيد الأنبياء والرسول وعصيان القبائل أو الخبايا المتألهين

ولم نقص على هذا الموقف من بعض العلماء مرة وجيزة حتى ثبت لهم هذا الخطأ في العلم فضلاً عن الخطأ في حق الدين ، فأصبحوا اليوم أقرب إلى الأمانة والرصانة في تمحيص الحقائق وراحوا يعيدون النظر في كل ما قرروه أنفاً على ضوء حديث من أصواء الكشوف العلمية ، ومنها كشوف الأحافير وكشوف الأرصاد الملكية التي يسهل الرجوع إليها فيما حدث أو لم يحدث من مقاربات الكواكب وعوارض الكسوف .

أنكروا قصة الطوفان والسفينة ، فوجد العلماء الحفريون هذه القصة مكتوبة على
حجارة قديمة من آثار وادي النهرين ، ووجدوها مقولة متواترة على الألسنة والآثار
بين أقوام كثيرين من أم المشرق والمغرب .

وأنكروا قصة سيل العرم وقصة أبرهة الحبشي وهلاك جيشه ، فلم يمتنع زمن
حتى وجدوا آثار السد ووجدوا عليها اسم أبرهة ملقاً بالأمير «التابع لمالك الحبشة
وسبأ وريدان وحضرموت واليمامة وعرب الوعر والسهل» ووجدوا خبر الحدرى الذى
أهلك جيشه مكتوباً فى تاريخ بروكوب مؤرخاً بالرمس الذى ابتداء بعام الفيل .

وأنكروا قصة عاد وثمود وظنوا ان هذه القائل لم يكن لها وجود تاريخى لأنها لم
تذكر فى أخبار العهد القديم ، فتبين لهم من مراجعة المؤرخين الأقدمين أنها مذكورة
فى تاريخ بطليموس وأن عاد إرم هى عادراميت اليونانية Adramitae وأن أخبارها
محفوظة على آثار هيكل «مدين» التى عثر عليها المؤرخ التشيكى موزيل

وهؤلاء العلماء العصريون المتشككون لم تسلم لهم دعوى الرأى الجديد ،
فصلاً عن دعوى العلوم التحريبية التى يقيمون عليها هذه الشكوك . فبهم
مسوقون إلى عادة الإنكار الحزاف بمئات السنين ، وقد جاء فى رواية الأنصارى
عن الفيلسوف ابن رشد «إله شاع فى الشرق والأندلس على ألسنة المسجمة أن
ريحا عاتية تهب فى يوم كذا وكذا هى تلك المدة تهدت الناس ، واستماض ذلك
حتى اشتد جرع الناس منه واتخذوا الغيران والأماق تحت الأرض توقياً لهذه
الريح ، ولما انتشر الحديث بها وطبق البلاد استدعى والى قرطبة إذ ذاك طليبتها ،
وفادصهم فى ذلك وفيهم ابن رشد ، وهو القاصى بقرطبة يومئذ واس بتدود فى
شأن هذه الريح من جهة الطبيعة وتأثيرات الكواكب ، وقال شيخنا أبو محمد
عبدالكبير ، وكنت حاضراً فقلت فى أثناء المفاوضة إن صبح أمر هذه الريح هى
ثابتة الريح التى أهلك الله بها قوم عاد إذ لم تعلم ريح بعدها يعم هلاكها ،
فسرى إلى ابن رشد ولم يتمالك أن قال ' والله وجود قوم عاد ما كان حق ،
فكيف سبب هلاكهم ... » .

وهذه الكلمة لم تثبت نسبتها إلى ابن رشد لأنه بقى بعدها قاصياً لم ينك
ولم يعزل . حتى أصابه الغضب من الأمير ، فنكب وعزل ، ونسبت إليه أقوال

لمفلسفة في زمانه ، ومنها الشك في التوريج الدينية على هذا المثال ، فليس علماء
القرن التاسع عشر أول من تجسّى على العلم والدين بالإلكار الحراف والشك بعسر
دليل ، ولكر علماء القرن التاسع عشر كانوا أحق بالأمانة والتريث ممن سبقوهم إلى
المحلة بمئات السنين ، لأنهم ما كدوا يعلمون شكوكهم حتى بادرتهم الكشوف
باموعدة التي غموا عنها وكانوا في عسى عنها لو اصطعدوا الحكمة «العلمية»

ونحسب أن علماء القرن التاسع عشر إذا كانوا قد سقوا من تقدمهم إلى يوم من
الوأن هذه السقيصة الفكرية فقد سبقوهم إلى المروعة في التعحل لأنهم أوشكوا أن
يحصروا العلم كله في إلكار كل شيء وقى القول بأب كل شيء مخالف للعقل
والحقيقة ، وأنكروا وجود إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، وأنكروا الحوادث
التي رويت عن أزمانهم وأنكروا التقارب بين الشعوب السامية لأن هذا التقارب
مسوب إلى إبراهيم .

ثم مضى حين واحد ، فلا نقول إن الكشوف التاريخية أثبتت كل ما أنكروه
لأنها لا تزال في أول الطريق ولكننا نقول إن روية الكتب الدينية لم تزل هي المرجع
الوحيد في حوادث تلك الأزمنة ، وإن بعض الأحافير التي انكشفت حتى الآن
تحقق تلك الأزمنة كلما أمكنت المقارنة بين المصنوعات الصخرية والأرياء المعروفة ،
وإن الكتب الدينية قد سقت المحدثين إلى القول بالقررة بين اللغات السامية قبل
أن يدرس المصريون شيئاً من مقارنة اللغات ولأجناس .

ولعل هذه الأخطاء التي وقع فيها علماء القرن التاسع عشر تشجع الآن طائفة
من الباحثين العلميين على استخدام العلوم وجميعاً في إثبات الروايات الكتابية ،
ومن هؤلاء الباحثين من ألق الكتب المطولة في إثبات الخوارق وتعسل ما رواه
هيرودوت عن كهنة المصريين حين أسأوه أن الشمس تحولت من محرابها القديم ،
واستطرد المؤلف من ذلك إلى وقوف الشمس ليوشع بن نون ، ثم قل إن الحوادث
التي وردت في الكتب الدينية إنما تحدث علمياً إذا اصطدمت الأرض بمدنب كبير ،
فتسقط الحجارة من الجو ويصطغ الماء بلون كدود الدم وموت كل ما فيه من حيوان
ويتحول موقع القطبين إلى غير ذلك من العوارض «العلمية» في رأيه وهي في رأى
المكبرين مناقصة للمعلم والتفكير السليم .

وليس من اللازم أن يكون هؤلاء العلماء قد أصابوا التطبيق بين الخوارق
والعوارض العلمية ، فأحسن ما يستفاد من محاولاتهم أن التعجل إلى الإنكار شبيه
بالتعجل إلى التصديق ، وكلاهما برء من دعوى العلم وأمانة العلماء .

وبعد قرن مضى من المعى والإنكار يثوب العلماء إلى موقف آخر من القصص
الدينية ، فيقبلها فريق منهم على أنها عطف صادقة ، ويقبلها آخرون على أنها من
الحقائق التي تفهم بالتأويل ، ويقبلها غير هؤلاء وهؤلاء على أنها تاريخ قديم ينبغي
أن يرشد الباحثين إلى مواضع البحث وموضوعاته ، وكس لا ينبغي بحال من
الأحوال أن ترفض بحرة قلم أو يقال أن البحث فيها مفروغ منه لأنها من «أساطير
الأولين» .

موقف العلماء اليوم أمام القصص الدينية يضرب من العلم ولا يقترب من الدين
وحسب ، وأول علامات الاقتراب ألا يتعجل المتعجلون إلى النفى أو الشك بغير
دليل ، وأن يفهم الخليفة العلمية على نحوها فلا يحيط بيسها وبين حقائق العيب
وحقائق الصمير .

حَوْلَ إعْجَازِ الْقُرْآنِ وَأَوْهَامِ الْمُشْتَرِقِينَ^(١)

ذهب بعض السّاحّثين وطريق من المبتدئين إلى أن من أسباب انتشار الإسلام في أفريقيا أنه لا يمنع تعدد الزوجات وقالوا إن من أسباب انتشاره بين الهنود أنه سوى بين الطوائف المنبوذة وطوائف الأشراف . ومن ثم أقبلوا عليه زادات لأنه يسوى بينهم وبين السادة ، كذلك قالوا إنه دين بسيط في مبادئه ، سهل في أصوله وقواعده

وفي رأينا أن هذه كلها أسباب موقوفة أو أنها أسباب محلية ، وهي تصلح ولا شك لتعليل انتشار الدين في بيئة بعينها أو في زمن معين ، ولكنها أبداً لا تلازم انتشار هذا الدين في جميع البيئات والأزمان .

فالإسلام كانت له الغلبة وكان بحق قوة غالبة بفضل العقيدة الإسلامية التي وصفت بالشمول لأنها تشمل الإنسانية جمعاء .

فليس الإسلام دين أمة واحدة بعينها ، ولا هو دين طبقة خاصة بذاتها ، ولكنه دين الإنسانية كلها ودين بني البشر جميعاً من كل جنس .

والقرآن الكريم يقول :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ نَذِيرًا وَبَشِيرًا ﴾ .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جميعاً الذي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمْسُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ السُّبُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا يَفْرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَبَيْنَ لَهُ مُسْتَمُونَ ﴾

(١) البيان المسمون يناير ١٩٦٣

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ مِنَ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾
وهذا الشمول الذى يؤكد القرآن الكريم يشمل النفس أيضاً فيجمع النفس
والصمير ، ويتخاطب الإنسان روحاً وحساً وعقلاً وصميراً .
والإسلام الخفيف يسوى بين الناس جميعاً ، فلا تمييز بينهم فى حقوق الإنصاف
والمعاملة .

ولا فصل لأحد منهم على الآخر بغير عمله وخلقه ، يقول القرآن الكريم :
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ
أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ .

فالقرآن الكريم هو الذى جعل من هذه العقيدة الإسلامية قوة غالبة وجعل من
أمة الإسلام على مدار العصور واحتلاف الأقسام والأزمان قوة صامدة وقد أفرد
ذلك الإسلام بمبرته التى لم تعهد فى أى دين آخر من الأديان الكتابية .
عداوة مدسوسة -

وهناك أوهام كثيرة أشاعها المستشرقون بسبب تفسيراتهم الخاطئة لكثير من أمور
اللغة والدين . ومنها ما كتبه بعض المستشرقين تفسيراً لاسم أنى مكر رضى الله
عنه من أنه «أبو العذراء» !

ومنها ما قالوه فى تفسير لمعنى «القصيدة» من أنه المقصود !
ومنها أيضاً ما تورط فيه ذلك المستشرق من خطأ معيب فى تفسيره لقوله تعالى
﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾
بقوله : «أى بدون أحذية» !

ذلك أنهم على غير علم دقيق باللغة العربية ، وليس هذا عرياً فهم لا يفهمون
أدب أمتهم ولا يجيدون معرفة هذا الأدب فى لغتهم فمن باب أولى ألا يحسنوا
فهم الأدب العربى ! وقد كانت لهم مكانة أكثر مما يستحقون حتى وقفنا أمامهم
ووضعهم فى موضعهم !

وكما يحفظون في تفسير الكلمات والآيات يخطئون أيضاً في تفسير كثير من الروايات .

ومن ذلك ما كتبه الرهب المعروف «مير تزيو» عن «قصة ريب بنت ححش» وزواج السي (عليه السلام) منها بعد تظليفيها من زوجها

وقد قال في روايته أو على لأصح كذوبته إن «ريب» هذه كانت من أجمل نساء الأرض في زمانها . وأن محمداً عليه السلام قد سمع بجمالها الفاتن فشغف حباً بها .

وليس أسهل على كل باحث مسدق أو إنسان منصف أن يسقط هذه الأكذوبة إذا عرف هذا المستشرق أن زوجة «زيد» كانت بنت السيدة أميمة بنت عبدالمطلب عمة السي (عليه السلام) ، وأن السي هو الذي زوجها من ربيبه وعتيقه «زيد» ليرفع الرسول الكريم عن «زيد» ذلة الرق بمصاهرته والمساواة بينه وبين أكرم أهله .

هذه حقيقة يعرفها كل باحث في الإسلام وكان أخرى أن يعرفها هذا المستشرق ولكنها العداوة المدسوسة ، فإن فكرة الشير لا تخرج من عقولهم .

بلاغة القرآن

وقد كتب بعض هؤلاء الباحثين عن الإسلام مصنفين ، ومنهم المستشرق «روم لاندو» . فقد كتب عن بلاغة القرآن معللاً حيرة العربيين في فهم هذه البلاغة واستحالاتها .

وكانت خلاصة رأيه وتعليقه أن العربيين يجهلون مناسبات النزول في القرآن وترتيب الآيات على حسب موقعها ، وقال إن ذلك من أسباب حيرة القارئ الغربي عند تلاوة القرآن الكريم

وقال أيضاً : «إن السور المطلوبة تنزلت في أحزاب أيام النبي ، وفيها بيان الأصول الشرعية وقواعد الحكم وتدير الشؤون العامة بما يتتبعه القارئ الغربي فلا يشط لقراءاته ، وإنما يدرك هذا القارئ بلاغة الكتاب في قصار السور التي تنزلت بمكة واحتوت من حماسة الروح ما هو جدير بالانتباه والتوقير .

إعجاز القرآن

ولحق أن موضوع إعجاز القرآن من الأمور الهامة التي شغلت الأذهان .
وقد عنى الباحثون عوصوع البلاغة في القرآن ، وتشعست الأراء وتعددت الغايات
في هذه الدراسة .

وبعضها يقول ، إن إعجاز القرآن يرجع إلى المعاني التي تنطوي عليها الآيات
فهل هذه البلاغة منفصلة عن المعنى الذي أتت به الآية ؟ أم أنها متصلة بالآية
معناها ووقعها في ذهن القارئ ؟

إن المعنى لا يمكن أن يفصله عن اللفظ ، ولا مسيل إلى التفرقة بين حدود
الكلمات لأن حدود الكلمات متلبسة بالمعنى

وقع الآيات

ومن هذه البلاغة وقع الآيات في النفس ، ومن آياته من حيث هي لفظ
ومعنى ، ومن حيث أنه قرآن مجيد مستجاب في النفس ، يأتي التأثير .
وقد روى أن الوليد بن مغيرة قال ذات مرة لرسول الله ﷺ « اقرأ
على . » فلما قرأ النبي عليه آيات من القرآن الكريم قال له الوليد : « والله إن
له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمعدق ، وما يقر
هذا بشرا »

وقال أيضاً : « إن هذا كلام له جنود في الروح لا يجتث بسهولة »

خلود الرسالة

إن هذه البلاغة وما تنطمت عليه من القوة النبوية ليست هي التي تقطع لها
وحدتها بإعجاز القرآن الكريم .

فعندي أن روح الإعجاز في كتاب ب العالم يرجع إلى خلود الرسالة التي
حاء بها هذا الكتاب ، وما فيه من هدى ونور وصلاح وإصلاح للبشرية جمعاء في
إسعاد الفرد والجماعة

وروح الإعجاز في هذا الكتاب الكريم يرجع أيضاً إلى ما أحدثه في حياة العرب

من رقى ورفعة وإلى ما أحدثه أيضاً في حياة المسلمين من ثورة ، وأنه لم يقف في سبيل العقل الإنساني بل حثه على النظر والفكر والتدبير و ستجلاء الأسرار والعمل لما فيه خير في الدني والآخرة . وهذا الإعجاز أيضاً يرجع إلى ما أوجده من ترق للأمة العربية على عهد الرسول والأمة الإسلامية في إبان نشأتها وظهورها ، وعلى مدار العصور والأزمان .

﴿ وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ
ذَلِكَمُوصًىكُمْ بِهِ عَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ .

﴿ وَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾

معنى كلمة الأمين

نقلت صحف القاهرة عن صحيفة بيروتية أن باحثاً سمته باسمه ، قد عثر على وثيقة تاريخية ثبت لديه أنها مكتوبة بخط السبي عليه السلام ، وتعمل المتعجلون باستخلص من هذا الخبر الذى لا سند له من الواقع ولا من التاريخ أنه - صلوات الله عليه - ليس بالأمى الذى يجهل القراءة والكتابة كما جاء فى القرآن الكريم .
ونكاد نحرم باستحالة وجود هذه الوثيقة بالصفة التى وصفها بها الباحث الذى ذكرته الصحف ، إن صح ما نسبته إليه .

فإنما تثبت كتابة النبى - عليه الصلاة والسلام - لتلك الوثيقة بإحدى طريقتين : أحدهما أن يكون لدينا كتاب مخطوط كتبه - عليه الصلاة والسلام - وثبتت كتابته له فنشت نسبة الوثيقة التى اكتشفت أحبراً بالمقابلة بين الخطين .

وظاهر من اللحظة الأولى أن إثبات ذلك مستحيل ، لأن الخط الذى تحصل المعارضة عليه ليس له وجود ، وليس هناك كتاب مسوب إليه - صلوات الله عليه - ثابت النسبة إليه أو غير ثابت ولو مع الخلاف .

والطريقة الأخرى لإثبات الوثيقة المرعومة أن يشهد الشهود العدول برؤيتهم التى - عليه الصلاة والسلام - وهو يكتبها بيده الشريفة ، وذلك أيضاً مستحيل ، لأن الجاهولين من أولئك الشهود المفروضين لا سبيل إلى الشقة بهم وتوكيد روايتهم على حال من الأحوال ، فإن كان أولئك الشهود معلومين لنا فكل من يعلم الخبر اليقين عنهم يقررون أنه - صلوات الله عليه - لم يكتب قط كلام بيده ، وأنه كان يلى الوحى والرسائل على كتابه المعروفين .

إلا أن المسألة هنا مسألة تحقيق كلمة الأمين التى وردت فى القرآن الكريم لأنها كلمة من كلمات الكتاب يفرض عليها فهمها على صحتها ، ولأنها من الجهة الأخرى قد تفتح الأبواب لكثير من التسهات وكثير من اللعط الباطل الذى يحسن بنا أن نعلق الأبواب عليه .

فالكلمة بصيغة اجمع قد وردت في السور المدنية خطأً لأهل الكتاب أو رداً عليهم . ومعظمهم من اليهود مكبرى الدعوة اعمدية من سكان المدينة لتي برلت فيها تلك الآيات .

والمهم فى تفسير معنى الكلمة أن ترجع إلى معناها عند أهل الكتاب ، ولا سيما اليهود

فالمحقق الذى لا شك فيه أن أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين أجمعين كانوا إلى ما بعد ظهور الدعوة لإسلامية يقسمون العالم إلى قسمين : بنى إسرائيل ، والأمم التى لبست منهم ، ويزعم اليهود - خاصة - أن بنى إسرائيل وحدهم هم أهل النبوة والرسالة الدين احتصمهم الله دون سواهم من العالمين بالكتب المنزلة والأنبياء المرسلين ، وأن من عداهم من الأمم لا نبوة فيهم ولا كتاب لهم وليسوا من الموعودين بالهداية والرحمة

وفى كتب العهدين القديم والجديد عثرت من المواضع وردت فيها كلمة «الأمميين» بهذا المعنى ، وفيها كذلك عبارات شتى تذكر «الأمميين» فى مقابلة اليهود عند التحدث عن الأفراد من الرجال والنساء

ومن أمثلة ذلك ما ورد بالإصحاح السابع من بحيل مرقس ، وفه :

«إن امرأة كان نامنتها روح بحس سمعت به فأتت وحررت عند قدميه ، وكانت المرأة أعمية وهى جنسها فينيقية سورية» .

وحاء فى الإصحاح الثامى من رسالة بولس إلى أهل غلاطية :

«لكن لما رأيت أنهم لا يملكون باستقامة حسب حق الإنجيل قلت لبطرس أمم الجميع إن كنت وأنت يهودى تعيش أعمياً لا يهودياً فلماذا تلزم الأمم أن يتهودوا نحن بالطبيعة يهود ولسنا من الأمم خاصة» .

فلا خلاف فى أن كلمة الأمميين عند أهل الكتاب كانت معنى غير اليهود فى صفة الفرد أو الجماعة ، ولا خلاف فى أن النسبة إلى الأمم بالعربية تلحق بالاسم المفرد لا بالجمع ، وفاقاً لقاعدة النسبة فى اللغة العربية ، فيقال «الأمميون» بحسب هذه القاعدة ولا يقال الأميون

ومن كلام اليهود الذي لزمهم فيه حجة القرآن الكريم قولهم أنهم ليس عليهم في الأمين سبيل .

ودلك حيث جاء في سورة آل عمران .

﴿ وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بدينارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قائماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأَمِينِ سبِيلٌ ﴾ .

﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

وأصل ذلك أن اليهود يفرقون في المعاملة بالفروص والأمانات وفوائد الربا بين سبي إسرائيل وغير بني إسرائيل

ومن ذلك ما جاء بالإصحاح الثالث والعشرين في سفر الشريعة

« لا تقررص أخاك برب : ربا فسه أوريا طعام أوريا شيء ما لا يقررص بالربا ، للاجسبي تقررص بربا ولكن لا حيث لا تقررص برب . . . » .

فليست التفرقة في المعاملة بين أناس يعبرهون القراءة والكتابة وبين أناس يجهلونها . لأن اليهود - ولا سيما الفقراء المنهيين عن سوء معاملتهم - يجهلون القراءة والكتابة ولا يعرفهما من اليهود عامة غير الكهنة والمتعلمين من أصحاب الأموال .

ولكن التفرقة في المعاملة هي بين سبي إسرائيل وسائر الأمم الأجانب عنهم ، أو بين اليهود والأمينين .

ذلك معنى واضح لا لبس فيه ، فلا موضع للشك على الإطلاق في معنى الأمين عند أهل الكتاب ، وعليهم يرد القرآن الكريم ويأخذهم بما يقولونه لا بما يقوله الآخرون . . . فما يعنونه هم هو موضع الرد والحجاج وهو الذي تواتر في كتبهم كما تواتر على ألسنتهم وهذا هو ما يعنونه بغير خلاف .

وعلى مسيل لاستعارة والتعليق ترد كلمة «الأمي» بمعنى من يجهل الكتاب أولاً ومن يجهل الكتابة تبعاً لذلك

فإنما كانت المقالة أصلاً بين اليهود والأمينين على إطلاقهم ، فلما صارت المقالة إلى أهل الكتاب وغير أهل الكتاب سرت الاستعارة بين من يقرأون الكتاب وغير القارئين ويجب أن نترتب طويلاً عند قوله تعالى :

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾

فاليهودية قد دخل فيها أناس من الأمم غير سبي إسرائيل ، منهم بطبيعة الحال لا يقرأون العبرية ولا الآرامية ، ولا يريد علمهم بصلوات الكتاب على التأمين عند انتهاء الكاهن إليه «أمين أمين»

أما التعليقات الكثيرة التي وردت في لأقوال الشائعة عن أصل كلمة «الأمي» ومصدرها اخلل بما في كتب اليهود وما في عباداتهم من الشعائر والصلوات

فقد ديل إن «الأمي» مسوبه إلى أم القرى لأن النبي - عليه الصلاة والسلام - ولد فيها وهو قول يرادف القول «بالنبي المكي» في صفته - عليه الصلاة والسلام - وليس لهذا التخصيص بمدينة واحدة من مرجح بالقرية ولا بأنفسهم الصراح . فضلاً عن إطلاق صفة الأميين على ألوف لم يولدوا بمكة .

وقيل إن «الأمي» مسوب إلى الأمم لأنه يبقى كما ولدته أمه بغير تعميم ... ولم يرد قط هذا الوصف بهذا المعنى في كلام عربي قس النعثة المحمدية ، وإنما يفرق الناس هذه التفرقة بين من بقي جاهلاً ومن تعلم بعد مولده ، إذا وجد الكثيرون من المتعلمين والكثيرون من غير المتعلمين ، وذلك ما لم يحدث في الجاهلية .

وقيل إنه من الأمة من قولهم . فلان لا أمة له - أي لا ديانة له - واستشهد معجم «لين» الإنجليزى الكبير بكلام شاعر لم يذكر اسمه بقول
«وهل يستوى نوأمة وكثور؟»

وهو قول يجعل اليهود مكبرين للذين عندهم معترفون به عند غيرهم ، ولا يستقيم في الذهن على هذا الاعتبار .

وأعرب ما يقال : أن يسمي الأمي إلى لأمة أو إلى السواد الجاهل الذي لم نتعلم . . وقد جاء في لسان العرب أن الأمي «هو العبي الخلف الجاهل القليل الكلام قال : ولا أعود بعده كرياً .

أمارس الكهنة والصبيا

والعزب المنعم الأميا

ثم علله عث ما تقدم إذ قال «قيل له أمي لأنه عبي ما ولدته أمه عليه من قلة الكلام وحجمة اللسان» .

ومعاد الله أن يكون هذا هو الأصل في وصف بطلق على أفصح العرب
أجمعين .

فليس أصح في تميز الكلمة من أنها وردت على الاستعارة والتعليق للمقابلة
بين أهل الكتاب وغير أهل الكتاب .

ويسعى أن يتأني المتعجلون فلا يسكروا أن أهل الكتاب كانوا يسمون العرب
وغيرهم من الأجانب عنهم بالأميين ، فإن ثبوت هذه الحقيقة أمر ورء كل خلاف ،
ومن الورر أن يحمل الجاهل جهله على شيء يرد في القرآن الكريم
فاليهود ، إذا قالوا كلمة « لأميين » فإنما يعنون بها غير بنى إسرائيل ما في ذلك
جدال ولا محال .

ولا يمنع ذلك أن تطلق كلمة « الأمي » على من يجهل القراءة والكتابة حيث
تستعد للمقابلة بين قراء الكتاب وغير قرائه ، وبخاصة حين نتحدث عن مرجع
للمعنى فلا يستقيم لنا في نسبتها إلى الأم أو إلى السواد أو إلى أم القرى .

ولنقل عن يقين إن كلمة الأمي أطلقت على من يجهل القراءة والكتابة ، ولكن
لا نخطئ محمل ذلك موقوفاً على إنكار كلمة الأميين كما وردت في أقوال لا
عداد لها قبل مولد النبي عليه الصلاة والسلام .

إن القرآن الكريم لا يترك دعوى اليهود الكبرى بغير تصيد لها وتوكيد يبطلانها ،
ودعوىهم الكبرى هي أنهم محتصون بالسيوة دون سائر الأمم ، فأين هو جواب هذه
الدعوى في كتاب الإسلام ، إن لم يكن جوابها في تلك الآيات

وعليها أن تفهم أن النبي العربي والنبي الأمي بمعنى واحد ، وأنه - عليه الصلاة
والسلام - لم يكن يلو كتاباً قبل الكتاب ، لمزل عليه ولا كن يخطه يمينه .

﴿ وَمَنْ كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا يَخُطُّهُ يَمِينُكَ إِذَا لَأَرْتَابَ
الْمُبْطِلُونَ ﴾ صدق الله العظيم . . . وصدق سبحانه إذ قال :

﴿ أَتْلُ مَا أَوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ .

فليندبر هذا الأمر بالتلاوة من يتوهم أن التلاوة تنفص معنى « الأمية » على وجه
من الوجه .

تفسير الأستاذ الإمام^(١)

لكل مقام مقال :

هي حكمة بيعة ، على هداها عرف الأندلسون البلاغة ووضعوا لها تعريفها الصحيح :

وهو مراعاة مقتضى الحال .

ومقتضى الحال هو مقتضى المقام .

وإن الدين يشعلون عقولهم بامتحان صحة البلاغة ، أو صحة فهم الكلام البليغ ، يبحثون عن مسبار أفضل من هذا المسبار فيطول بهم البحث ولا ينتهون إلى خير من هذه الحقيقة

وهي أننا نعرف أن القائل قد فهم معنى ما يدرسه أو يفسره إذا عرفنا أنه فهم مقام القول ، وفهم من ثم مراد المائل وأثر كلامه في السامع على حسب ذلك المقام .

وإذا كان قد فهم مقام القول حق فهمه فذلك هو الأساس الذي يقوم عليه البناء ، أي أن نصيب هذا البناء من لثانة والجمال ، ولا قيمة للبناء المتين الجميل إذا قام على أساس غير سليم .

نقدم هذه الكلمة تهيداً للتعليق الذي دعانا إليه ، المصالح النفيس الذي كتبه العام الفاضل الدكتور عثمان أمين في عدد شهر جمادى الأولى من «مسر الإسلام» .

وأدر موضوعه على طريقة لأستاذ الإمام الشيخ محمد عبد الله في تفسير القرآن الكريم ، وهي فيما يرى أحدث أساليب التفسير وأساليب من الوجهتين الدينية والبلاغية ، وحلاصتها في كلمات معدودات ، إن الأستاذ الإمام كان أقدر المفسرين الحديثين على فهم كل مقام من مقامات الوحي الشريف ، وذلك مقصد بعهد الأمد فيما يرجع إلى فهم الوحي الإلهي على التحصيل ، وإي يعينه عليه أنه يدرك

(١) الأهر نوفمبر ١٩٦٣

وحده الوحي في جملته ، كما يدرك مقاماته أو مناسباته فهما منه لموقعه من السامع وللحكمة المقصودة بتوجيه الخطاب إليه

يقول الدكتور عثمان أمين عما توجاه الأستاذ الإمام من تفسير الكتاب : «إنما المهم الذي يريده هو ما يكون عن ذوق سليم وما يتسعه من لطف الوجدان ودقة الشعور اللذين هما مدار النعقل والناظر والفهم والدين ، ويقتضي ذلك السداد إلى روح القرآن والوقوف على معانيه . . . ومن أجل ذلك نراه يصح بأن يوحد القرآن جملة . . » .

ثم يقول بعد توصيح لهذه المكرة إن «مفسر المصرى» ينتهى إلى التصريح بأنها إذا كانت بحاجة إلى معرفة أسباب النزول في آيات الأحكام ، فإن معرفته الوقف والحوادث التي برز فيها الحكم تعين على فهمه وإدراك حكمته وسره . »

وفحوى ذلك أن معرفة لمقام أو المناسبة هي أساس للهداية إلى مقصد الخطاب وإلى أثر هذا الخطاب في وجدان السامع ، على حسب المقام .

وإن أحق الناس أن يبحر في تفسير الكتاب هذا المبحر هم أولئك الذين يعملون في التعليم وتقصى عليهم صاعقتهم أن يبحر فيها على أحدث مباحثه في «فتح الدروس» وتهيئة أذهان الطلاب لا تنظارها وملاحقة الأستاذ المعلم عند مناسبتها

وقد كان الكتب الحكيم مثلاً في منهج التعليم كيما كان موضوع الخطاب وموضع المستمع إليه وعلى هذا المنهج يتعلم المفسر كيف يتعلم من القرآن الكريم وكيف يعلمه ويمضى على سبيل توجيه خطابه إلى مستمعيه ، ولم يعمل أحد عن هذه السنن من حولوا فهم الكتب بعد عهد الأستاذ لإمام إلا كان تفسيره جهلاً بالمقال وجهلاً بالمقام في أن

والمثل المحدود أجدى من الخوص في شروح الطرياق وحتلاف الأقوال في التعليمات عليها ، فمن أيام قليلة أتبع لنا أن نستمع إلى هذا المثل محدوداً محسوساً في آيات من الكتاب تصدى لتفسيرها بعض المنقطعين للتعليم ، فوقعوا في أخطاء كأخطاء أولئك الأقدمين الذين فاتهم حظ العلم بصناعة التعليم على نهجهم الأول وعلى نهجها الأخير ، ثم أضافوا إليها أخطاء من قسيتها تدل على ضيق الأفق الذي يحصر فيه كل من يعمل عن حقيقة المقام وحقيقة انشغال في تفسير آيات القرآنية ، فإنه يحصر في نفسه ويقل شعوره هو إلى مستمع الخطاب

لأنه خرج به عن مقامه بالنسبة إلى القائل - حل من قائل - وبالنسبة إلى المستمع للكلام للإلهي ، وقد يكون المستمع نبياً لا محل للنسبة بينه وبين المتصدي لل تفسير ، وهو لا يفقه من مقتضيات المقام غير شعوره هو بعكسه على كل إسان وفي كل مناسبة ، وعلى غير مناسبة .

لقد أكثر بعض المفسرين من التعقيب على جواب موسى عليه السلام على سؤال الإله إياه عما يمينه كما جاء في سورة طه : ﴿وَمَا تَلْكَ يَمِينُكَ يَا مُوسَى . قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾

ومدار تلك التعقيبات جميعاً أن الجواب قد عرض لأشياء لم يتطلبها السؤال ، وهو أمر إذا صدر من نبي حليل وحب أن يفسره المفسر بما يرمى عنه الغرابة ومحالفة المنتظر في جواب نبي مرسل لخالفه الذي أسلم إليه الرسالة .

والخطأ كله إنما هو خطأ العاقلين عن مقام السؤال ومقام الجواب ، أو عن مناسبة القول التي يفهم منها « ما يناسبه » وما يعتبر اختلافاً بين عرض السؤال وعرض الجواب إن موسى عليه السلام قد فهم السؤال على الوجه الوحيد الذي يتقبل فهمه ولا يتقبل غيره .

إياه عليه السلام قد فهم قطعاً أن الله جل وعلا لم يسأله عما في يمينه ليعلم شيئاً مجهولاً ، حاشا لله أن يقع ذلك منه ، أو أن يقع في حلد عبد من عباده . فضلاً عن نبي من أنبيائه - إنه بما يجوز في حق الإله

هو أن موسى عليه السلام قال في الجواب : «إنها عصا» لكان هذا الجواب أبعد ما يكون عما ينبغي في هذا المقام .

ولكنه أجاب كما ينبغي أن يحيب من هو أهل لاستماع الرسالة الإلهية وبلاغها إلى عباده ، وعدم علم اليقين أن السؤال مقصود لتعليمه هو شيئاً يحمله ويريد على ما يعلمه من حقيقة عصاه ، فوجب أن يقول كل ما يعلم من تلك الحقيقة في انتظار المرید عنها بما يعلمه الله ويريد أن يعلمه به .

وهذا المصحح الإلهي في التعليم هو بعينه تلك المصحح الذي عاد المعلمون - على أحدث مثال - فقرروه «للتطبيق» في صاعاتهم العصرية ، وهم آخرون لا يمارسون هذه الصناعة أن يلتصقوا إليها .

والطريف أن تشترك في هذه المساحلة سيدة معلمة فلا تعطى المقام حقه ولا تعلل الإطالة في جواب موسى بمقام التعليم الإلهي بنبيه في موضعه ، وإنما يحطرها ما يدل على انحصار النفس في النفس ولا سيما النفس الأثوية ، فتقول إنما أطل موسى عليه السلام لأنه أراد أن يتدرج بالإطالة إلى طول الوقوف بين يدي الله !

وجائز أن يكون من أساليب المرأة الخمرة أن تتمحل الأسباب بجواب غير مطلوب للوقوف حيث تريد أن تطيل الوقوف ، ولكنه في «مقام» الاستعداد للنهوض بأعباء النسر وأخطار الوعيد ومازق الصدام بين دعوة الحق ورهبة السلطان شيء لا يقع في الحسبان .

وعير هذا وأمثاله كان فهم الإمام الرازي بوجه السؤال ووجه الجواب حيث قال في تفسيره لهذه الآية :

« هذا سؤالان : الأول قوله : ﴿ وَمَا تَلَكَّ يَمِينُكَ ﴾ سؤال .

والسؤال إنما يكون لطلب العلم وهو على الله تعالى محال ، فما الفائدة فيه ؟ والجواب : فيه فوائد ، إحداها أن من أراد أن يظهر من الشيء الخفي شيئاً شريفاً فإنه يأخذه ويعرضه على الحاصرين ويقول لهم : هذا ما هو ؟ ، ثم إنه بعد إظهار صفة الفائدة يقول لهم : خذوا منه كذا وكذا ، فالله تعالى لما أراد أن يظهر من العصا تلك الآية الشريفة ، كإقلابها حية وكضربه البحر حتى «يفلق» وفي الحجر حتى انفجر منه الماء - عرضه أولاً على موسى ، فكأنه قال : يا موسى ! هل تعرف حقيقة هذا الذي بيدك؟ وإنه خشية لا تصر ولا تمنع ، ثم إنه قبله شعباناً عظيماً فيكون بهذا الطريق قد نبه العقول على كمال قدرته ونهاية عظيمته . . . »

والفارق بين هذه النظرة من أمثال الإمام الرازي وبين نظرات الباطنيين من قبول من ذكرناهم هو في الواقع جملة الموارق الكثيرة بين فهم البلاغة وفهم تراكيب الحروف والألفاظ ، ويجمعها هذا الفارق الجوهرى الواحد وهو «مقام القول» .

فالمفسر الذى ينته إلى مقام القول يفقه مدلول السؤال كيما كانت عبارته وتركيب ألفاظه وحروفه ، ويفقه الجواب الذى ياسبه ويوحيه إلى مستمع القول على حسب إدراكه لمقامه .

والمفسر الذى يحطى هذا المقام يغفل عن القول وعن غرض القائل والمستمع

ويحصر في ذات نفسه ويقصر به المهم والحيل عما وراء شعوره ، أو يحسب السؤال والجواب بعدد الكلمات أياً كان لمقام أو المناسبة

ويقلب المهم رأساً على عقب بين النظرتين فيصبح الجواب المشترب هو الجواب الصحيح الذي لا حرمة فيه ، ويصبح الجواب المستظر هو الجواب غير المنتظر في مقامه وهو الجواب الذي يحاح إلى التعليق والبحث عن باطن غير الظاهر بين طوائفه .

فلو أن مرسى عليه السلام قال لما سأله ربه عما في عبه : «هي عصا أو هي عصدي ، فكان هذا هو موضع العجب كيف خفي على النبي المرسل أن الله سبحانه وعالي يعلم ما بيمينه ولا يسأله عن شيء بحيله ويصعب المعرفة به من جوابه .

فإذا فهم كما يسعى به أن يفهم أن المقام مقام تعليم ، لا استطلاع ، لم يكن له جواب غير جوابه الذي يتطلب المرید من العلم بما عند الله ما يهديه إليه ، وكان الجواب على قدر السؤال كلمة كلمة وحرماً حرماً ، ولم يكن بالمفسر حاجة إلى أن يتصور أن في الجواب إضالة غير مطلوبة ، وإنما هي تمحل لإطالة الحديث في غير غرض من أغراض الرسالة الإلهية .

ولابد من هذه النظرة إلى مقام القول في تفسير كل تلاوة «على حسب مقتضاها» ولكن للقرآن الكريم حكماً غير سائر الأحكام ، لأنه يتطلب من المفسر أن يعرف له مقدماً واحداً في جملته يخالف به كل مصمم : وهو مقام الرسالة الإلهية التي يرتبط بعضها ببعض وتنتهي طواهرها كلها إلى باطن واحد بواقعه جميع الأحرار من السور والآيات متفرقات ومتصلات

ولا يسي المفسر هذا المقام المحمل على اختلاف مناسبات واختلاف مقام القول في كل آية وفي كل حكم من أحكام ينوثر في تفصيل آياته

ودلت هو الذي عمده الدكتور عثمان أمين حيث يقول عن منهج الأستاذ الإمام في تفسيره : «إنه ينصح بأن يؤخذ القرآن حملة ، وينتهي إلى التصريح بأنما إذا كنا بحاجة إلى معرفة أسباب السور في آيات الأحكام فإن معرفة الوقائع والحوادث التي برز فيها الحكم تعين على فهمه»

وهذا في لسانه هو منهج كل مفسر يستمع إليه في هذا المقام الجليل ، ولا يجوز من لا يستطيعه أن يتصدى لتفسير القول الطبع كيما كان ، وأجدر ألا يتصدى لتفسير أحسن القول وأحراره بالتصريح والوعى والمعرفة بمقام كل مقال .

القرآن والنظريات العلمية^(١)

« . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد ، إن الأستاذ مصطفى صادق الرافعي رحمه الله ، يقول في الطبعة الثانية من كتابه «عجائب القرآن» في هامش ص ١٣٢ تعليقا على الآية القرآنية :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ﴾ . فجاءت العبارة في الآية الكريمة كأنها سلالة من علم تتسع لمذهب القائلين بالشو ، ولمذهب القائلين بالخلق ، ولمذهب القائلين بانتقال الحياة إلى هذه الأرض في سلالة من عالم آخر . . . فإن كانت نظرية دارون صحيحة فبى أريد أن أعرف رأيكم في الكيفية التي يقبل بها القرآن الكريم أن يكون الإنسان من سلالة القرود ، وأرجو أن أقرأ ردكم على صفحات الرسالة العراء ، ولكم جزيل شكرى والسلام» .

المخلص

والدى لاحظ أنه أولاً أن رواية مذهب دارون على هذا الوجه غير صحيحة . فإن دارون لا يقول بتسلسل الإنسان من القرود ، ولا يلزم من مذهبه أن يكون كل إنسان منحدرًا من القرود في أصله القديم .

وكل ما يلزم من مذهبه إن الإنسان والقرود العليا تلتقي في جذر واحد ، وأن بين الإنسان والقرود العليا حلقة مفقودة لم توجد إلى الآن

أما الآية القرآنية فهي لا تثبت المذهب ولا تنفيه ، ومن خطأ البين في عقادنا أن جعل تصوير القرآن تبعاً للنظريات العلمية التي سقض اليوم ما تشتهه بالأمس ، والتي يجري عليها الجدل بين المدرس العلمية - أو العيسية - على أسس شتى لم يتفق عليها العلماء

(١) الرسالة ٢٧ أكتوبر ١٩٤٧

ومن أمثلة ذلك ما ذهب إليه بعض المجتهدين احدثين هي التوفيق بين القرآن الكريم ومبادئ مذهب الشوء والارتقاء ، فالشوثيون يقولون بتنزع البقاء ، وهو مطابق للآية القرآنية :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ .

ويقولون ببقاء الأصلح ، وهو مطابق للآية القرآنية : ﴿ فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيُذْهِبُ جَفَاءً رَمًا مَا يَفْعُ النَّاسُ فَبِمَكْتُ فِي الْأَرْضِ ﴾ . ومن المشاهدات التي سجلها الشوثيون ما هو صحيح لا ريب فيه ، ولكن المذهب يشمل على نتائج وتحريجات كما يشمل على مبادئ ومشاهدات ، وكل ما جاء فيه من قسيل النتائج والتحريجات فهو في حكم الفروض التي تشمل النقص والإثبات ، ولا يصح أن نفسر القرآن الكريم وفقاً لها ، وهي لا تزل في صور التلليل والترجيح .

والنظرية السديمية مثل آخر من هذه الأمثلة في محاولات التوفيق بين القرآن الكريم والفروض العلمية فمن علماء الطبيعة - والمذك حاصة - من يرى أن انظومات العلكية شأت كلها من السديم الملتهب وأن هذا السديم تختلف فيه الحرارة فيتشقق ، أو يفصل بعضه عن بعض من أثر التمدد فيه ، فتدور الأحرام الصغيرة من حول الأحرام الكبيرة ، وتنشأ انظومات الشمسية وما شابهها من هذا التشقق وهذا الدوران .

فإد ببعض المجتهدين المعاصرين يحتر هذا القول فصل الخطاب في تشأة الأحرام السماوية ، ويقول ، نه هو المقصود بالآية القرآنية ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْماً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

ولكن النظرية السديمية لم تنته بعد بين علماء الطبيعة إلى قرار متفق عليه هه كان المضاء كله مخلواً من الحرارة ، وكانت الحرارة الكونية كنها مركزة في السدم وما إليها؟

ومن أين جاءت الحرارة للسدم دون غيرها من موحودات في هذا المضاء؟ ألا

يحدّر أن يظهر فى المستقبل مذهب يرجع بالحرارة إلى الفضاء فى حالة من حالاته؟
أليس حلو الفضاء من حرارة - إن صح هذا الحلو - صحناً محتاج إلى تفسير؟ أليس
انحصار الحرارة فى السدم دون غيرها أحوج من ذلك إلى التفسير؟

فالقول المأثور فى تفسير الآية القرآنية أن السموات والأرضين كنّت رتقا
فامتقت فى زمن من الأزمان أما أن يكون المرجع فى ذلك إلى النظرية السديمية
فهو مجردة بالرأى فى غير علم وفى غير حيلة ، وبغير دليل

و أظهر من هذا وذاك حيلهم القديم حول دوران الأرض وثربها ، أو حول
استدارة الأرض وسطحها .

فقد تمسك بعضهم فى تفسير أى القرآن الكريم فحرم بكفر القائلين باستدارتها
ودورانها ، وجعل القول بشوئها وتسطيحها حكماً قاطعاً من أحكام الدين فما قول
هؤلاء الآن وقد أصبحت استدارة الأرض مشاهدة من مشاهدات العيان؟ وما قولهم
وقد أصبح دورانها مسألة من مسائل الحساب الذى يحصى كل حركة لها كما
يحصى حركات كل قطار؟

وهكذا يخطئون فى النى كما يخطئون فى لإثبات كلما علقوا آيات القرآن بهذه
الطريات العلمية ، أو الفروض الفلسفية ، التى تختلف الأقول فيها باختلاف
الأزمنة أو اختلاف الأفكار .

وقد تكون محاولات التوفيق مأمونة معقولة كقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد
عبد راحمه الله فى تفسير الطير الأبدى بحراثيم الأمراض التى تسمى
بالمكروبات .

فالمكروبات موجودة لا شك فيها والإصابة بها محققة كذلك فى مشاهدات
مجربة لا تقبل الجدل . فإذا قال المفسر كما قال الأستاذ الإمام إن هزيمة أصحاب
الفيل ربما كانت من فعل هذه الحراثيم فذلك قول مأمون على الخوارزج والترجيح ،
ولكنه غير مأمون على الحرم والتوكيد ، لأن الحفريات التاريخية قد تكشف لنا غداً
عن حجارة من سجيل أصيب بها أصحاب الفيل فحملتهم كعصف مأكول .

ومهما يكن من فروض العلماء فى مختلف الأزمنة فإن القرآن الكريم لا يطلب
منه أن يتابع هذه الفروض كلما ظهر فيها مرض جديد ، وكل ما يطب منه أن يفتح

باب البحث لمن يؤمنون به فلا يصددهم عن طلب الحقيقة حيثما منحت لها بادرة مرجوة ، وقد توافر ذلك في آيات القرآن الكريم كما لم يتوافر قط في كتاب ديني تؤمن به الأمة ، فليس أكثر من الحث فيه على التفكير والاعتبار وطلب الحقائق في آيات خلق الله في الأرض والسماء : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا مُّسْحِكًا لِّقَوْمٍ عِدَابِ النَّارِ ۖ ﴾ .

وحسب المسلم أن يعمل بما علمه كتابه في هذه الآية وما جرى مجراها ليعطى العلم حقه ، ويطلب الحقيقة من حيث يطلبها لفكر الإنسان في عجائب خلق الله بين الأرض والسماء

أما مدلول الآية كما أشار إليه الراجعي فهو يتسع - كما قال - لجميع المذاهب في خلق الإنسان وسواء قطعاً الصلة بين الإنسان وسائر الأحياء العليا والدينا أو ربطناها فذلك لا ينفي أنه في أصله من سلسلة من طين . وقد جاء في القرآن الكريم ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ ولم يقل أحد إن خلق الأحياء جميعاً من الماء يمتد تسلسل الإنسان من مادة الطين ، فإن لأصل لا ينعدم إذا خرجت منه الفروع على التسلسل والتدرج ، أو خرجت منه دفعة واحدة بغير تسلسل ولا تدرج ، وحدد أن يقف في هذه المسألة كما وقف المجادلون من قبل في مسألة الأرض واستدارتها ودورانها ، فإنهم يدعون لأنفسهم ما لا يجوز لأحد أن يدعيه باسم العلم أو باسم الدين ، وفوق كل ذي علم عليم

الطير الأبايل في تفسير الأستاذ الإمام (١)

قلنا في كلامنا الذي نشر بالرسالة (٢) عن القرآن والنظريات العلمية إن محاولات التوفيق قد تكون مأمومة معقولة كقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله في تفسير الطير الأبايل بحرثيم الأمراض التي تسمى بالميكروبات ، فالميكروبات موجودة لا شك فيها ، والإصابة بها محققة كذلك في مشاهدات مجربة لا يقبل الخدال ، وإذا فإن المفسر كما قال الأستاذ الإمام إن هزيمة أصحاب القيل ربما كانت من فعل هذه الجراثيم فذلك قول مأمون على الحوار والترجيح .

وهذا الذي فعله الأستاذ الإمام حين أحاز أن تكون إصابة أحجار القيل من قيل الإصابة بجراثيم لأمراض .

وقد كتب الأستاذ الفاضل الشيخ مصطفى أحمد الرزقا إلى الرسالة معقبا على مقالتي فقال : «لعله اعتمد في فضية الطير لأبايل على رواية أحد سبب ذلك الرأي إلى الشيخ محمد عبده أحداً ما أشيع عنه وشتهر»

ولكن الواقع أننا لم نعتمد على الرواية بل اعتمدنا على كلام الإمام نفسه ، ولم نسب إليه غير ما جاء في نص تفسيره حيث قال في الصفحة ١٥٨ من تفسير حراء عم يتساءلون : «فيحوز بك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس المعوض أو الدباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض ، وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم الباس الذي تحمله الرياح فتعلق بأرجل هذه الحيوانات ، وإذا تصل بجسد دخل في مسامه فثأر فيه تلك القروح التي تسبب بإفساد الجسم وتساقط لحمه وإن كثيراً من هذه الطيور الضعيفة بعد من أعظم حدود الله في إهلاك من يريد إهلاكه من البشر ، وأن هذا الحيوان الصغير الذي يسمونه الآن بالميكروب لا يحرق عنها ، وهو فرق وجماعات لا يحصى عددها إلا نثرها ، ولا يتوقف ظهور أثر قدرة

(١) الرسالة ١٧/١١/١٩٤٧

(٢) انظر مقال السابق .

اللَّهُ في قهر الطاعين عني أن يكون الطير في ضخامة رؤوس الحبال ، ، فهذا الطاعية الذي أراد أن يهدم البيت أرسل الله عليه من الطير ما يوصل إليه مادة الحدرى أو الحصاة فأهلكته وأهلك قومه قبل أن يدخل مكة»

إلى أن قال رحمه الله : «هذا ما يصح الاعتماد عليه في تفسير السورة وما عدا ذلك فهو بما لا يصح قبوله إلا لتأويل إن صححت روايته ، وبما تعظم به القدرة أن يؤخذ من اسعر بالهليل وهو أضخم حيوان من دواب الأربع جسما ويهلك حيوان صغير لا يظهر لسطر ولا يُترك بالنصر» .

وفي هذا النص يرى المصالح الأستاذ «الرفاء» أسالم يعتمد على الرواية المنقولة ، ولم تتجاوز بالنص معناه حين فُتينا إن الأستاذ الإمام أثار تفسير الطير الأناجيل بحراثيم الأمر من التي تسمى بالبيكروبات ، وهو تفسير مقبول ولا شك . كما قلنا - على سبيل الجواز والترجيح .

مَسْأَلَةُ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ (١)

قد راعيت يا سيدي أن أقدم إليك مسألة واحدة حتى لا يشق على مجلة الرسالة ردك . وهذه المسألة هي «القضاء والقدر» ، هل الإنسان مسير أم مخير؟ . وقد وجهت هذا السؤال من قبل لأستاذي فرد عني ردالم أرفيه مفتعا فتصارت الآراء بعقلي ، وإني لأخشى على نفسي وعلى إيمانى

محمد على

طالب بعمل قنا

مسألة «القضاء والقدر» هي مسألة الحرية الإنسانية في جميع نواحيها ، فهي هذه المثابة مسألة قصائية بقية علمية ، وليست بالمسألة الدينية وكفى

وليس من الميسور أن تحل هذه المسألة من جميع وجوهها خلا يدع كل عتراض ، ويوافق كل رأى ، ويكشف القاب عن العلاقة بين حرية الإنسان وقوى الكون الذى يعيش فيه ، فإن العلم بحدود حريته يتوقف على الإحاطة بهذه العلاقة من جميع أطرافها ، وليس ذلك باستطاع في عصرنا هذا ، ولا نحاله يستطيع كل الاستطاعة في وقت من الأوقات .

لكن المستطاع الذى لا شك فيه أن مسألة القضاء والقدر هي نفسها حل معقول أسهل من جمع الحلول التى تذهب إليها العقول

فماذا يقول من ينكر القضاء والقدر كأنه شيء لا يوافق العقل ولا يساغ في منطق التفكير؟

أيقون بأن المخوقات يجب أن تختلف وأن تتساوى مع ذلك الاختلاف في كل قدر وقضاء؟

ذلك حكم لا يسوغ في عقل عاقل ، لأن اختلاف التصدير لازم مع اختلاف الأمدار .

(١) الرسالة ٣ مارس ١٩٤٧

فإد حتمت أقدر المخلوقات وأوصافها فلا يحظر على العقل أن تكون بعد ذلك
سواء في الأعمال أو التقديرات .

وإد هي لم نحلف فكيف يريد المعترضون أن تكون؟ وكيف يتوهمونها في
الخيال فصلاً عن تقديرها في عالم الفكر أو عالم العيان؟
أيريدونه عالماً لا فرق فيه بين حى وحى ، ولا بين شىء و شىء ، ولا بين موجود
وموجود؟

إد هم يريدونه عالماً لا أشياء فيه ولا أحياء فيه ولا موجودات فيه .
لأن الشىء لا يسمى شيئاً إلا إذا كان محالماً لشيء آخر في جوهره أو صفاته ،
فإد نحل الاختلاف بين الأشياء بطل قوام الأحياء وموجودات
فهل يرى المعترضون أنهم هربوا من مسألة القضاء والقدر إلى مسألة يقلها العقل
وتربصها النفس ، ويتصورها الخيال ؟

وأى الصورتين بعد هذا أقرب إلى عقول المفكرين . عالم فيه خلاف في التقدير
و اختلاف في الأقدار ؟ أو عالم لا توجد فيه الأشياء ولا توجد فيه الأحياء ؟
فمسألة القضاء والقدر على هذا أقرب إلى المهم من : مسألة تحظر على بال
مكرر في هذا الموضوع

وإد كانت هي الوجه الذي يقله العقل والباحية المجهولة منه يسعى أن نعلم
على الباحية المعلومة ، فيطمش الفكر إلى موافقتها له ومطابقتها لدو على الإيمان
أما هذه الباحية المجهولة فهي باحية التوفيق بين العدل الإلهي واختلاف الخراء
على الأعمال .

فإد وحب أن تختلف الأشياء ويحسف الأحياء ويختلف الخراء ، فقد وحب أن
يكون خراء غير ماقص للعدل في نهاية المطاف ونهاية المطاف هذه هي التي
يجهلها الإنسان ، ويفيسها على ما يعلم فتسرى إليه الطمأنينة في هذه القياس
الصحيح .

ويتحدث الأديب صاحب الخطاب عن صديق له يسحر من تبليل خاطره في

هذه المسألة فيقول : «إنه أبرزلى آراء فى هذه المسألة وقال إنها آراء أهل السنة وأخرى قال إنها آراء المعتزلة» . . . ولا يدري أيها أحق بالاتباع ؟
ولا فائدة من الإطالة فى تفصيل هذه الآراء أو تلك الآراء .

ولكن كاتب الخطاب خليق أن يوقن أن آراء المعتزلة تؤدى إلى تلبيل فى الخواطر يعود على صاحبه بسخرية أمر أنكى ، لأنهم يحلون المشكلة بمشكلات ويخرجون من تيه إلى أتياه ، ويقولون إن الإنسان ينبغي أن يكون حراً لأن الله يحاسبه ، وإن الله لا يحاسبه إلا لأنه حر فى عمله واختياره .

فهم لا يقررون أن الإنسان حر فى عمله واختياره بدليل من الواقع ، بل يفرض من الفروض ، فمن أين لهم أن حساب الله لا يوافق حالة التقدير ، وأنه لا بد أن يتناقض العدل إذا وجب الإيمان بالتقدير ؟ ولماذا يمنعون على الله حساباً يتقابل فيه العدل والرحمة وصدق الجزاء والعقاب ؟ وإذا وجب التسليم بأن الاختلاف فى العالم المشهود هو الحالة التى يتحقق عليها الوجود ، فلماذا يجزمون بأن هذه الحالة الواجبة ستناقض ما يجب فى مسألة العدل والتوفيق بين العمل والمصير ؟

لو كان المعتزلة ينكرون وجود الله لجاز أن يبطلوا الحكمة فى الخلق كله ، وأن يبطلوا العدل والرحمة فيما هو ظاهر لنا وما هو محجوب عنا ، ولكنهم يؤمنون بالله ويؤمنون بوجوب الاختلاف بين الأشياء والأحياء . فلماذا تضيق قدرة الله عندهم عما يوافق الحكمة فيما يجهلون ؟

وقصارى القول أن الحل الوحيد المستطاع لعقدة القضاء والقدر هو المقابلة بينها وبين العقد التى تنتهى إليها إذا أنكرنا القضاء والقدر . وإن العدل بمعنى المساواة الشاملة هو العدم بعينه ، لأن المساواة الشاملة تنفى قيام الأشياء والأحياء ، فلا بد من معنى للعدل الإلهى غير هذا المعنى ، ولا تناقض إذن بين العدل والاختلاف فى تركيب الموجودات ، إذا وجب أن نفهمه فهما غير فهم المساواة فى الأقدار والمساواة فى التقدير .

ونحن نرى فى حياتنا العملية أن الناس يرون أخلاقهم من أبائهم وأمهاتهم ، وينشأون فى عاداتهم على نشأة بيئتهم وبيئات أسلافهم ، ولكننا مع هذا لا تبطل التكليف والجزاء ولا نرى أنه عبث فى غير جدوى ، أو أن إلغاء القوانين والعقوبات

مساو لبقائها ومريانها . فهناك نصيب من الحرية يكفى لقيام التكليف فى المسائل
الدنيوية ، وهناك نصيب من الحرية يكفى للتوفيق بين العمل والجزاء فى هذه الحياة
القصيرة ، فكيف بالحياة الأبدية التى تدبرها عناية الله ولا يحيط بها علم الإنسان؟
إن مسألة القضاء والقدر عقدة ، ولكنها عقدة لا ينكرها المنكر إلا وقع فيما هو
أعقد منها ، ولا سيما المنكر الذى يؤمن بوجود الخالق القديم .

أما الذين يبطلون وجوده فإنهم يعطلون العقل جملة فى هذه المسألة وفى غيرها
من المسائل ، لأن تفسير العالم كله بالمصادفة العمياء لا يدع مجالاً للإشكال ولا
للسؤال ، وكل شىء جائز أو غير جائز ، فقد استوى الجائز وغير الجائز على كل حال .

فهرست الكتاب

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٥٦	عيد سعيد	٣	تقديم
٦٢	عيد الفطر		الفصل الأول
٦٦	العيد الكبير	٧	نبي الإسلام
٧٠	الضحية في مقارنة الأديان	٨	محمد العربي الإنسان
٧٥	خواطر العيد بين ألفاظه ومعانيه		رأى في نبي الإسلام بين
٨٠	خواطر في رأس السنة الهجرية	١٢	الأنبياء
٨٤	شعبان ونصف شعبان	١٧	حكومة النبي وخلفائه
٨٩	في الحرم	٢٢	لوعاد محمد ﷺ
	الفصل الرابع		الفصل الثاني
٩٥	الإسلام والمسلمون	٢٧	رمضان والصيام
٩٦	الإسلام والعرب	٢٨	ألوان من الصيام
١٠٣	فهم الإسلام	٣٣	رمضان وليلة القدر
١٠٨	الإسلام بين أديان الأمم	٣٨	ليلة القدر
١١٧	الإسلام دعوة عالمية	٤٢	شهر الصيام
١٢٢	الإسلام في تاريخ العالم	٤٦	فيلسوف وقديس
١٢٧	مراجعات إسلامية	٥١	الجمعة السعيدة
١٣٢	دراسة للإسلام المعاصر		الفصل الثالث
١٣٦	الإسلام والنظام العالمي الجديد (١)	٥٥	الأعياد الدينية وحكمتها الخالدة

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
من الدعوة الهندية	١٤١	حول إعجاز القرآن وأوهام	
الإسلام والنظام العالمي الجديد (٢) -	١٤٥	المستشرقين	١٧٢
عقيدة الذات الإلهية في الإسلام -	١٥١	معنى كلمة الأمين	١٧٧
العالم الإسلامي والجغرافيا الدينية -	١٥٥	تفسير الأستاذ الإمام	١٨٢
الفصل الخامس		القرآن والنظريات العلمية	١٨٧
مباحث في القرآن الكريم	١٦٣	الطير الأبايل في تفسير الأستاذ	
قصص القرآن ، حروس وعبر	١٦٤	الإمام	١٩١
القصص الدينية بين العلم والتاريخ .	١٦٨	مسألة القضاء والقدر	١٩٣
